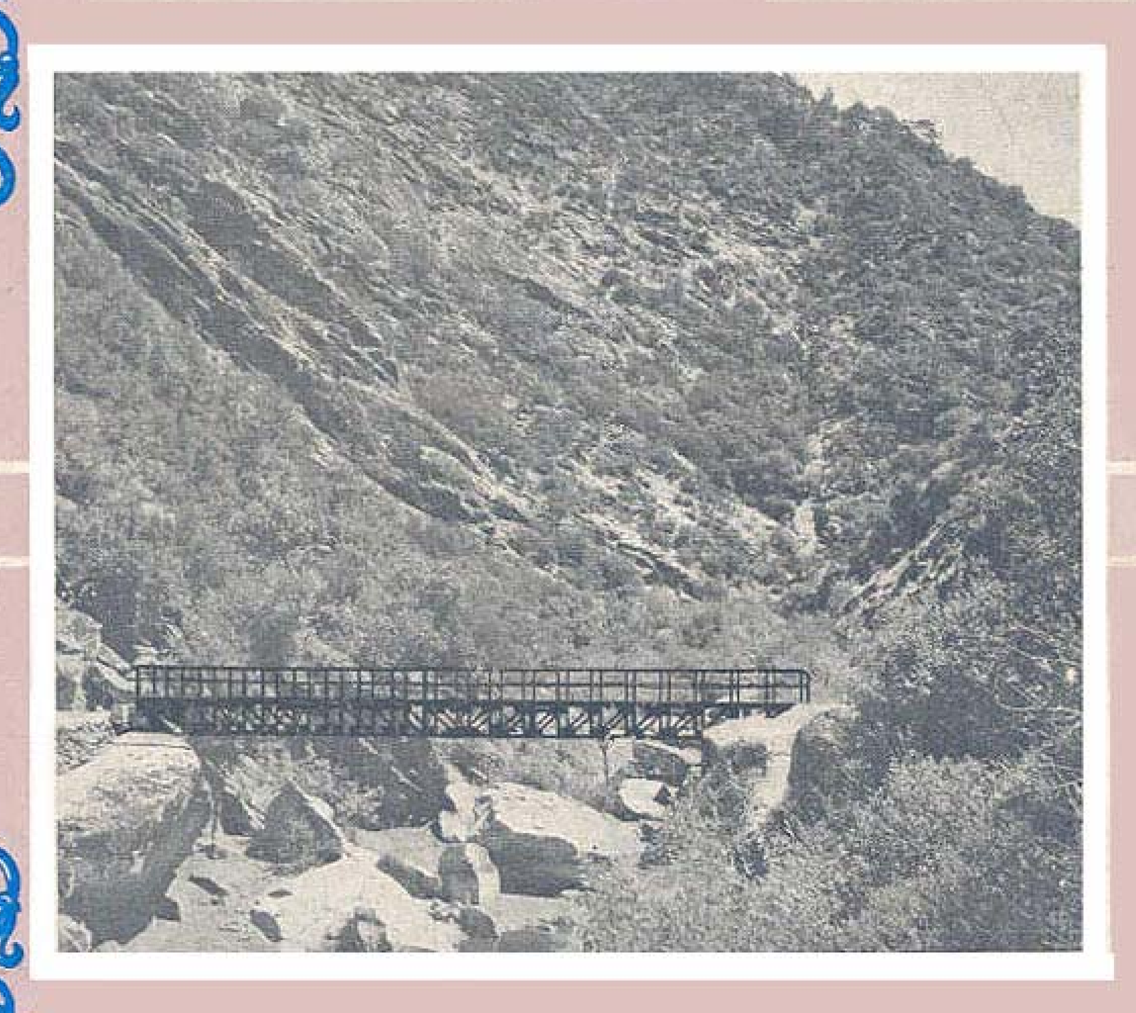


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العدد الرابع * السنة الخامسة
شعبان 1381 – جانفي 1962
ثمن العدد : درهم واحد

مجلة تصدرها وزارة عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الرابع
السنة الخامسة
شعبان - 1381
جانفي - 1962

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط . المغرب

صورة الغلاف



ولماس ــ منطقة جبلية تكسوها غابات كثيفة يرتادها هواة الصيد

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ــ قسم التحرير ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 20 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لايقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
« دعوة الحق » الحوالة البريدية رقم 55 ــ 485 ــ الرباط ــ
DAOUAT AL HAK compte chèque postal 485-55 à RABAT

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل مايتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط
تليفون 308.10 ــ الرباط

دراسات إسلامية

صياغة مشروع لجامعة إسلامية

لفضيلة الاستاذ ابو الاعلى المودودي

نــــرى رجال العلم والفكر فى مختلف اقطار العالم الاسلامي ينادون بين يوم وآخر بضرورة ادخال تغيير اساسي على نظم التعليم والتربية التي يتربى عليها المسلمون فى العصر الحاضر ويدعون الى اقامة مؤسسات تعليمية ، على الطراز الحديث ، تحلي الشباب الاسلامي بمؤهلات تكفله لمهمة ارشاد الدنيا وتوجيهها فى هذا العصر وفق وجهة نظر الاسلام . واما ما اسس فى الآونة الاخيرة من المعاهد لهذا الغرض فى مختلف البلاد الاسلامية ، فلا تكاد نرى احدا من ذوي العلم والراي يطمئن بها قلبه اذا القى نظره على اوضاعها ومناهجها للتعليم وما اتت به من النتائج . فمن الواضح ، وضوح الشمس فى رابعة النهار ، أن الحاجة التي تمس العالم الاسلامي كله فى هذا الزمان ليست هي الى كلية للشريعة تعد علماء على الطراز القديم ولا الى جامعة عصرية تخرج ماهرين فى العلوم الغربية على الطراز الحديث ، بل هي تعدو هذا وذاك الى جامعة تكون حملة للواء الاسلام كنظام للحياة فى هذا العصر .

ان العالم الاسلامي – من اندونيسيا شرقا الى مراكش غربا – انما يجري فيه منهجان للتعليم والتربية :

منهج لايخرج الا الافراد المتحلين بعقلية الغرب ، المصطبغين بصبغة ثقافته حذو القذة بالقذة . وهؤلاء هم الذين يسيرون اليوم دفة الحكومات فى معظم الدول الاسلامية الحاضرة وفى ايديهم ازمة امور الاقتصاد والسياسة والمدنية فيها . ومن دواعي الاسف ان اغلبيتهم جاهلون كل الجهل بما للدين الاسلامي من الهدى والتعاليم فى امور الحياة البشرية، مفتتنون بالحياة الغربية ، مهزومون امام الثقافة العصرية الخلابة ، فهم يقودون قطار الامة الاسلامية الى جهة تخالف جهة الاسلام ولا ياتي يوم الا وهم فيه اسرع سيرا الى تلك الجهة .

ومنهج لايخرج الا علماء للعلوم الدينية يفقدهم معرفة العلوم الدنيوية الحديثة . فلذا تقتصر دائرتهم فى القيام بواجب المحافظة على ناحية دينية من نواحي حياة المسلمين العديدة ولا يتحلون ، فى اي مكان فى الدنيا ، بالصفات والكفاءات التي تؤهلهم لقيادة قطار المسلمين فى هذا الزمان وانما وظيفتهم فى كل مكان وظيفة الفرملة Brake فى جهاز القطار او بعبارة اخرى ان وظيفتهم تقتصر على اقامة الحواجز امام سير القطار الذي تقوده الفئة الاولى حتى تهدأ سرعته . غير اني ارى بأم عيني ان هذه الحواجز طرا عليها الضعف بل قد كسرها فى بعض الدول الاسلامية السائقون المتمردون الشرسون وبداوا يسوقون قطار بلادهم على خط الالحاد والفسوق والخلاعة والمجون غير عابئين بشيء فى ذلك . فيجب علينا ، قبل ان يستفحل الامر ويستشري الفساد وياتي يوم تتحطم فيه تلك الفرملة التي لاتزال تعمل بعض عملها فى بقية الدول الاسلامية، ان نعمل الفكر والروية فى وضع منهج للتعليم يخرج علماء يجمعون بين العلوم الدينية والمدنية معا ، ولا يكونون بمنزلة الحواجز ، بل يتبوأون مكان السائق فى قطار حياة المسلمين ، ويتفوقون على المتخرجين تحت منهج التعليم الغربي فى اخلاقهم وصفاتهم فى جانب ، وفى مؤهلاتهم وكفاءاتهم العلمية فى الجانب الآخر .

هذه حاجة ملموسة لانرى مؤسسة تربوية تقوم بتحقيقها فى العالم الاسلامي ، ان القلق يقض على جميع اهل العلم والرأي مضاجعهم وهم يتفكرون اي معجزة يمكن ان تحفظ على هذه الامة دينها من الفساد النهائي ، واخلاقها من الانحلال التام لو لم يبرز الى الوجود نظام للتعليم والتربية يحمل في طياته المزايا المذكورة آنفا . ومما لايرتاب فيه احد ان وضع منهج للتعليم كهذا ، يتطلب من الوسائل ما لا يقدر على تهيئته الا الحكومات ، واكثر الحكومات الحاضرة فى العالم الاسلامي قد تربع على كراسيها رجال لايخفى على احد عقلياتهم واتجاهاتهم .

ولهذا - والحالة كما قلت - لم اجد بدا ، امام هذه الحاجة الملحة ، من ان اقدم الى العالم الاسلامي ما اجد فى ذهني من مشروع لمؤسسة تعليمية منشودة آملا ان يتفكر فيه اهل العلم ، وان يقيض الله لحكومة من الحكومات المسلمة الحاضرة اخراجه الى الوجود او ان يشرح صدور بعض اهل الثراء والايادي البيضاء فى الدنيا لهذا الفرض وما ذلك على الله بعزيز

❊ ❊ ❊

وفى ما يلي اذكر على وجه الاختصار ما اجد فى ذهني من الاقتراحات بخصوص جامعة اسلامية على الطراز الجديد :

1 - ان اول شيء واهمه بالنسبة لهذه الجامعة هو ان تحدد غايتها تحديدا واضحا حتى لا يوضع كل نظامها الا على حسب هذه الغاية ، ولا يعمل فيها العاملون الا واضعين هذه الغاية نصب اعينهم ، ولا ينظر اليها عامة المسلمين الا من ناحيتها ولا يعتبرون نجاحها فى اداء رسالتها الا على مدى نجاحها فيها . وعندي ان جامعة كهذه يجب ان تكون غايتها : « اعداد علماء صالحين يتولون مهمة ارشاد الدنيا وتوجيهها فى هذا العصر الجديد وفق احكام دين الحق ومبادئه »

2 - يجب ان تكون دائرة هذه الجامعة محدودة فى العلوم الاسلامية . اما العلوم الاخرى فانما تدرس فيها باعتبار انها مساعدة للعلوم الاسلامية لا باعتبار ان الجامعة تهدف الى اعداد الماهرين فيها .

3 - يجب ان تكون هذه الجامعة سكنية لا تكون سكنى الطلاب ولا سكنى الاساتذة الا فى داخلها .

4 - ينبغي ان يكون بابها مفتوحا على مسلمي الدنيا جميعا حتى يقصدها الطلاب من جميع نواحي الارض اذا شاؤوا .

5 - ينبغي ان يكون وسطها وسطا اسلاميا بكل معنى الكلمة حيث يتحلى الطلاب بالتقوى والاخلاق الفاضلة ويغرس فيهم الولوع بالثقافة الاسلامية ، ويجب ان يعمل كذلك على حفظها من تاثيرات الثقافة الغربية ونفوذها حتى لاينشا فى طلابها تلك العقلية المهزومة التي ترى بوادرها تفشو بكل سرعة فى الامم المغلوبة المفتتنة بحضارة الغرب وثقافته فى كل مكان . ومن الواجب - لهذا الغرض - ان يكون استعمال اللباس الغربي غير مسموح به فى حدود هذه الجامعة وان تروج فيها لتربية الطلاب تربية رياضية ركوب الخيل والسباحة والرمي واستعمال الاسلحة والتمرن على سوق السيارة والدراجة النارية وما اليها من الالعاب الرياضية الجديدة الاخرى بدلا من الالعاب الغربية . كما انه من المستحسن ان يدرب فيها الطلاب على التربية العسكرية الى جانب هذه الالعاب .

6 - يجب ان لايكون اختيار الاساتذة للتدريس فيها على اساس الخبرة والكفاءة العلمية فحسب ، بل يجب ان يكون اساتذتها - قبل كل شيء آخر - متحلين بصفات الصلاح والتقوى من حيث عقائدهم ومن حيث حياتهم العملية معا . كما يجب ان يختار الاساتذة من مختلف اقطار العالم الاسلامي بعد اجراء الفحص الدقيق واعمال الروية البالغة ، ممن لاتتوفر فيهم شروط الكفاءة العلمية فحسب ، بل يكونوا ، قبل كل شيء آخر ، مسلمين بكل معنى الكلمة من حيث عقائدهم وافكارهم وميولهم ، متمسكين باحكام الدين غير مفتتنين بالحضارة الغربية . بل ارى كذلك من اللازم ان تكون على اطمئنان كامل وثقة وافرة باهل بيتهم حيث لايكونوا احرارا من التمسك باحكام الشريعة وآدابها ومتعدين لحدودها . وذلك ان الاساتذة اذا كانوا يسكنون فى دائرة الجامعة مع زوجاتهم وهن متبرجات سافرات وترتفع من بيوتهم اصداء الاغنية الخليعة ، فمن المستحيل ان يتربى الطلاب على ايديهم تربية حسنة تتفق واغراض الاسلام السامية .

7 - يجب ان يربى فيها الطلاب تربية تحليهم بالصفات الآتية بوجه خاص :

ا ــ الاعتـزاز بالاسلام وثقافتـه والعزيمـة على اعـلاء كلمتـه في الدنيـا .

ب ــ التخلق بالاخلاق الاسلامية والمحافظة على الاحكام والشرائع الاسلاميـة .

ج ــ التفقـه والبصيرة الاجتهادية في الديـن .

د ــ النزاهة من الطائفيـة وضيق النظـر فـي امـور الديـن .

هـ ــ المؤهلات الكافية للكتابة والخطابة والمناقشة والكفـاءات المناسبة للقيـام بمهمـة تبليـغ الديـن والدعـوة اليـه .

و ــ التعـود على الجهـد والمشقـة والنشـاط وخشونة العيش والاعتمـاد على النفس في انجـاز جميـع الاعمـال .

ز ــ الاستعـدادات اللازمـة للتنظيـم والادارة والقيـادة .

8 ــ يجب ان لايقبل للالتحـاق بهـا الا الطلبـة الحاصلون على شهادة اقسام الدراسة الثانـويـة . اما الطلاب من البلاد العربية فيمكن لهم ان يلتحقـوا بهـا راسـا . واما الطلبة من البلاد غير العربية فان لم يكن لهم المام كاف باللغة العربية ، يجب ان يكـون هناك قسم خاص لتعليمهم اللغة العربية مدة سنـة واحدة حتى يتأهلوا للاستفادة من الدروس باللغـة العربية قبل التحاقهم بالجامعـة .

9 ــ يجب ان تكون مدة الدراسـة فيها 9 سنوات بتوزيعها على ثلاث مراحل :

اما المرحلة الاولى فيدرس فيها الطلاب ماياتـي من العلوم (على ان تقسم دراستها على اربع سنوات بطريقة متناسبـة وينـال الطالب اذا نجح شهـادة البكـالريـوس

ا ــ العقائد الاسلامية بالتفصيل الآتي : عقائـد الاسلام بموجب الكتاب والسنة والدلائل النقليـة والعقلية التي تقوم عليها هذه العقائد ، كما انـه مـن اللازم ان يدرس الطالب بهـذا الصدد : كيف وبـأي ترتيب ظهر ما ظهر بين المسلمين مـن الخـلافات في العقائد ؟ وكم يوجد في الدنيـا اليوم من المذاهب على اساسها ؟ وينبغي ان لاتكون هذه الدراسة للعقائـد متجاوزة لحدود البيان العلمي المجرد مع الابتعاد ــ الى حد الامكان ــ عن المحاربة في العقائـد .

ب ــ النظام الاسلامي للحياة : يعـرف الطالب في هذه المادة بنظام الاسلام المتكامـل للحياة البشريـة حتى يكون على معرفة تامة بالتصورات الاساسية التي ينهض عليها بناء الاسلام وكيف انه يشكل على اساس هذه العقائد الاخلاق والسلوك الانسـاني وما هـي المباديء التي ينظم عليها في المجتمـع مختلف شؤون البشر من الحياة العائلية الى الاقتصـاد والسياسة والعلاقات الدولية وما هي الصورة التي تبرز عليهـا حضـارة الاسـلام .

ج ــ القـرآن : يدرس الطالب في هذه المرحلـة القرآن من اوله الى آخـره مـع تفسيره الموجـز . والافضل عندي لهذا الغرض ان لايقـرر للتدريس في هذه المادة كتاب خاص في التفسير ، بل على الاستـاذ ان يراجع بنفسـه مختلف كتب التفسير ثم يلقـي دروسه على الطلاب على ضوء استفادته منها بحيث يدرك الطلاب غاية كتاب الله تعالى ومقصوده ويرتفع عن اذهانهم مايجـدون فيهـا من الشبهـات حـول تعاليمـه واحكـامـه .

د ــ الحديث : وفي هذه المادة ، بعد ان يعـرف الطالب الى الحـد الضروري بتاريـخ علـم الحديث واصول الحديث والبراهين على الاحتجاج بالحديث ، يدرس احد مجاميع السـنن كمنتقى الاخبار او بلـوغ المرام او مشكاة المصابيـح مثـلا .

هـ ــ الفقـه : وفي هذه المادة ايضا بعد ان يدرس الطالب كتابا مختصـرا في تاريخ الفقه يلقن تعليم الفقه باسلوب يعرفه بمذاهب مختلف الفقهـاء في جانب ؛ وكيف استنبط الائمة المجتهدون المسائل من ادلتهـا الشرعية في الجانب الآخر .

و ــ التاريخ الاسلامـي : وفي هذه المـادة يدرس الطالب اولا تاريخ الانبيـاء عليهم السـلام ثم يـدرس السيرة المحمدية على صاحبهـا الصلاة والسـلام ، وسيرة الخلفاء الراشديـن بمـا يمكـن من البسط والشرح ثم يدرس التاريخ الاسلامـي الى الزمـن الحاضر على الوجه المختصـر .

ز ـ العلوم العمرانية : (ولا سيما المتعلقة منها بالاقتصاد والاجتماع) ومن الواجب بالنسبة للاساتذة الذين يختارون لتدريس هذه المادة ان يكونوا ممن يستطيعون تدريسها مع نقدها بوجهة نظر الاسلام حتى لايفرغوا الافكار والنظريات الغربية فى اذهان الطلاب كما هي .

ح ـ الالمام على الوجه الاجمالي باديان العالم ولا سيما اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوكية .

ط ـ التاريخ الموجز للافكار والمذاهب الجديدة ولا سيما الديمقراطية الغربية والشيوعية والفاشية وما اليها .

ي ـ احدى اللغات الثلاث الآتية : الانكليزية والالمانية والفرنسية .

ك ـ اللغة العربية وآدابها .

اما المرحلة الثانية فتكون الدراسة فيها لثلاث سنوات منقسمة على خمسة اقسام : التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والتاريخ بحيث يكون لكل طالب اذا نال شهادة اتمام الدراسة فى المرحلة الاولى ان يدخل فى احد هذه الاقسام الخمسة . وينال اذا نجح شهادة الماجستير

1 ـ اما قسم التفسير فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

ا ـ تاريخ القرآن

ب ـ تاريخ علم التفسير ومختلف مذاهب المفسرين مع الالمام بمزاياها وخصائصها .

ج ـ الاختلاف فى وجوه القراءة

د ـ اصول التفسير

ه ـ الدراسة الوافية العميقة للقرآن الحكيم

و ـ الاستعراض الدقيق لما وجه الى القرآن من الاعتراضات من قبل المعاندين واجوبتها .

ز ـ احكام القرآن .

2 ـ اما قسم الحديث فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

ا ـ تاريخ تدوين الحديث

ب ـ علوم الحديث بكل شعبها

ج ـ احد امهات الكتب فى الحديث مع النقد التفصيلي لمتونه واسانيده حتى يتمرن الطالب على نقد الاحاديث على طريق ائمة الحديث .

د ـ نظرة شاملة فى الصحاح .

ه ـ الاستعراض الدقيق لما وجه الى الحديث من الاعتراضات من قبل المعاندين واجوبتها .

3 ـ اما قسم الفقه فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

ا ـ اصول الفقه

ب ـ تاريخ الفقه

ج ـ فلسفة القانون الجديد

د ـ المقارنة بين القوانين الرومية والفارسية والشريعة اليهودية والقوانين الوضعية الجديدة والشريعة الاسلامية .

ه ـ المذاهب المختلفة لفقهاء الاسلام وقواعدها .

و ـ التمرن على استنباط المسائل من القرآن والسنة مباشرة

ز ـ الفقه على المذاهب الاربعة وعلى مذاهب الظاهرية والزيدية والاثنا عشرية .

4 ـ اما قسم علم الكلام فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

ا ـ مباديء المنطق

ب ـ الفلسفة القديمة والجديدة

ج ـ تاريخ علم الكلام عند المسلمين وتفصيل المذاهب الكلامية الناشئة بينهم للعوامل الخارجية والداخلية .

د ـ مسائل علم الكلام وما للقرآن والسنة من الهدى فى بابها

ه ـ الاستعراض الدقيق لما وجه الى الاسلام من الاعتراضات من قبل المعاندين واجوبتها .

و ـ المقارنة بين الاديان ولا سيما الدراسة التفصيلية لتاريخ المسيحية وفرقها وعقائدها .

ز ـ جهود المبشرين المسيحيين وطرائق عملهم

5 ـ اما قسم تاريخ الاسلام فتكون الدراسة فيه للعلوم الآتية :

ا ـ فلسفة التاريخ وغاية دراسته واسلوب دراسته بموجب القرآن

ب ـ المذاهب المختلفة فى فلسفة التاريخ منذ ابن خلدون الى العصر الحاضر .

ج ـ تاريخ الجزيرة العربية والشرق الاوسط قبل الاسلام .

د ـ تاريخ الاسلام منذ العهد النبوي الى العصر الحاضر من جهة تطور الافكار والاخلاق والعلوم والمدنية والسياسة

هـ ـ الحركات لتجديد الدين واحياء دعوته فى مختلف العصور

و ـ تاريخ الاستعمار الغربي فى بلاد المسلمين وآثاره فيها .

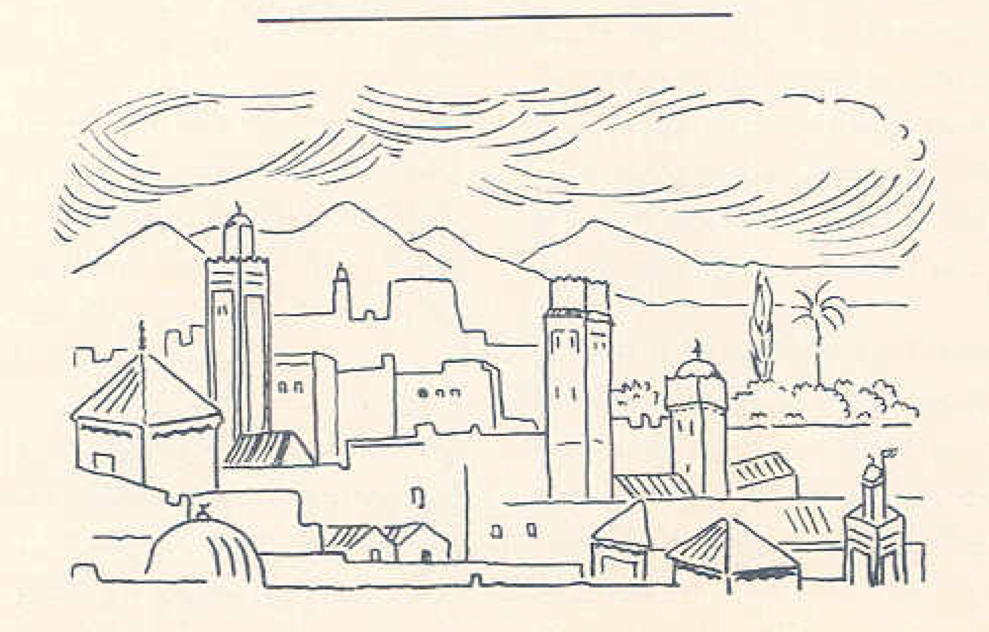
اما المرحلة الثالثة فيكون فيها لكل طالب اذا نال شهادة اتمام دراسته فى المرحلة الثانية واراد التدرب على البحث والتحقيق على الطريق العلمي ان يختار اي موضوع من الاقسام الخمسة المذكورة ويدرسه دراسة عميقة تحت اشراف الاساتذة ثم يقدم فيه اطروحته بعد سنتين ، فعندئذ يمنح الشهادة بعد ما ينظر فى اطروحته اصحاب العلم . وتكون هذه الشهادة شهادة الدكتورة .

10 ـ يجب ان تزود هذه الجامعة بمكتبة من النوع الاعلى زاخرة بمجموعة علمية من كتب الدراسة والمراجعة على قدر حاجات الجامعة المذكورة .

11 ـ ويجب كذلك ان تؤلف لجنة من اصحاب العلم لاختيار الكتب المناسبة لمختلف مراحل الدراسة فى الجامعة ولمختلف شعبها الاخرى .

12 ـ ويجب كذلك ان يؤسس مجمع علمي (اكاديمي) لتاليف الكتب الجديدة على قدر حاجات الجامعة خاصة .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .



مبادئ الاسلام الدستورية في نواحي الحياة

الدكتور معروف الدواليبي

- 3 -

اقامة الاسلام دعوته على مبدا السلم والسلام ومنه اشتق اسم الاسلام

واقام هذه الدعوة على مبدا وحاد هو مبدا السلم والسلام ، ومنه اشتق اسم الاسلام ، وقال (ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا) وقال (ياايها الذين ءامنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) بل اتخذ شعاره فى التحية على الدوام كلمة (السلام) .

ولعل الاسلام ايضا هو وحده الذي سمى الله بعد الكلمة الجامعة لجميع معاني التقديس باسم (السلام) عوضا عن (اله الحرب) فقال : هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام .

بل وقد وصفت الليلة الذي نزل فيها دستور الاسلام وقرءانه فى ليلة القدر بانها ليلة سلام فقال سبحانه وتعالى : (انا انزلناه فى ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر ، سلام هي حتى مطلع الفجر) .

وبعد ، فان الاسلام بدعوته الناس اجمعين الى (الحياة) على اساس (مبدا السلام) لم يترك هذا المبدا مبدا روحيا غامضا لا حدود له ولا بيان ، بل اقام جميع نواحي الحياة الانسانية ، وصلاتها مع الله والانسان على قواعد صريحة بينة تقود متبعها من غير شك الى السلام ، وتجنبه مواقع الخصام ، كما تجنبه مواقع الاستسلام والامتهان ، عملا بقول القرءان الكريم (ولله العزة ولرسوله وللمومنين) .

هذه الروح الجديدة اعدت العرب لحمل رسالة انسانية خالدة

وبذلك تم للعرب بهذا الروح الاسلامي : اولا ـ اعداد انفسهم لحمل الرسالة واداء الامانة ، واشعروا فى قرارة انفسهم بانهم اصبحوا خير امةاخرجت للناس فاندفعوا فى طريق المجد من غير ضعف وحملوا الخير للانسانية دون تمييز ، وعملوا فى هذه الطريق على بصيرة وايمان ؛ وحققوا لاول مرة فى التاريخ وحدة العروبة فى ارضهم ، ووحدة قلوبهم ، بل ووحدة لغتهم ولهجتهم على مثل وحدة القرءان ووحدة لهجته الى يوم الدين ؛ وهذا ما ادخل الاسلام فى تاريخ العروبة الخالدة ، وجعله جزءا لا يتجزا من تاريخ انبعاثها الجديد .

كما تم للعرب بهذا الروح الاسلامي : ثانيا ـ ان اختلفت قوميتهم عن عصبية القوميات الاخرى المعروفة من قبل ومن بعد ، تلك القوميات التي تعمل وتجتمع وتتموج فقط لخيرها ولصالحها ، وتفتح الارض لاستعمارها ، وتسيطر على الامم لاستعبادها ، فان العرب بعد الاسلام قد ارتفعوا بقوميتهم فوق

القوميات واصبحت رابطتهم القومية عنوانا على حمل رسالة انسانية خالدة واداء امانة تحريرية واجبة .

قواعد الاسلام الدستورية القائمة على روح الاسلام فى جميع نواحي الحياة

تلك الرسالة الخالدة هي ما جمعها الاسلام فى قواعده الدستورية القائمة على روح السلام فى جميع نواحي الحياة :

— فى العقيدة اولا . وفى الحياة الخاصة ثانيا . وفى الصلات فيما بين الناس عامة ثالثا . وفى النظام العام رابعا . وفى الحكم خامسا .

السلام فى العقيدة اولا ووقائع ذلك مع المسيحيين

ففي العقيدة فرض دستور الاسلام السلام اولا ما بين العلم والعقل من جهة ، وبين العقيدة من جهة ثانية ، واختص فى خطابه الذين يعلمون والذين يعقلون كما مر معنا ءانفا ، فقال : (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) وقال ايضا (نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال (كذلك يفصل الآيات لقوم يعقلون) .

وكذلك فرض دستور الاسلام السلام فى العقيدة فيما بين اصحاب الاديان فقال (لا اكراه فى الدين) .
وهذا لعمري منتهى ما وصلت اليه البشرية اليوم فى دساتيرها الراقية الحرة فى سبيل حماية حرية المعتقدات ، مما قد سبقهم اليه الاسلام قبل اربعة عشر قرنا بكل تاكيد .

بل ذهب الى ابعد من ذلك فحض على البر بابناء الاديان الاخرى مهما كانت عقائدهم ، ما لم يقاتلونا فى الدين وما لم يخرجونا من ديارنا ، فقال سبحانه وتعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم انتبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين) تبارك الله العظيم انه والله لدستور سلم كريم ، لم يسبق احد اليه من الاولين ، ولا نظن ان احدا سيلحق به فى الآخرين .

واعطى دليلا عمليا على ذلك حين دخل الاسلام الى مصر وبلاد الشام ووجد النزاع قائما ما بين الكنيسة الغربية فى حماية اباطرة الرومان وبتشجيعهم ، وبين الكنيسة الشرقية التي لا حماية لها وهي اصل النصرانية ، ومع ذلك فقد كان معظم رجالها يتهمون بالزندقة والالحاد ، فلما حل الحكم الاسلامي محل الحكم الروماني ، لم يثر هذه على تلك ، بل حمى الاثنتين ولو كانت كل منهما ضد عقائد الاسلام ، فوقفت الكنيسة الشرقية على رجليها ، ولم تشعر الكنيسة الغربية باضطهاد ، وان موقف الاسلام منها هذا الموقف هو الذي يفسر موقف بطارقة حمص عندما تركهم ابو عبيدة فاتح حمص واراد ان يرد عليهم الجزية التي اخذها فاجابوه (ان عدلكم احب الينا من ملوكنا) ثم اغلقوا ابواب مدينة حمص ضد الرومان منتظرين نتيجة المعركة بين المسلمين والرومان ، وداعين بالنصر للمسلمين على الرومانيين .

بل ذهب الاسلام الى ابعد من ذلك واعطى لكل منهم حكما كنيسيا فى الشؤون الدينية لم يكن ليعترف به لاحد منهما من قبل دولة الرومان النصرانية .

ولابد ان نشير فى هذا المقام الى ما سجله مؤرخو المسيحية انفسهم مما لاقته الكنيسة الشرقية فى عهد الصليبيين من (اقفال الكنائس الشرقية واضطهاد بطارقتها الى ان احوجوهم ان يفضلوا موادة العرب حكام البلاد الاصليين على موادة الصليبيين كما صرح بذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان .

السلام فى الحياة الخاصة

واما فى الحياة الخاصة فقد فرض دستور الاسلام السلام ايضا ما بين رغبات الانسان ومطالبه فى الحياة ، وما بين فكرة الاحسان والصلاح فى تلك الرغبات ، فقال رسول الله (ص) : ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل فى موضعه بفاس ، فقالوا له ما تصنع ؟ قال هو مكاني اصنع فيه ما اشاء ، فان اخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا ، وقال القرءان الكريم فى لذات الانسان : (كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وقال ايضا (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين ءامنوا فى الحياة الدنيا ..)

وهكذا لبى الاسلام فى ذلك رغبات الانسان ولذاته الشخصية من غير عدوان على احكام العقل ، ولا حيف على طبيعة الانسان كانسان ، ولم يشترط فى الوصول الى الطيبات وزينة الحياة وما اتاه الله للانسان من منكية استخلفه فيها غير الطريق المشروعة ، والعمل الصالح ، وان يحسن فيما ءاتاه الله كما احسن الله اليه ، وان لا يبتغي الفساد فى الارض .

وان كل مطلب خاص للانسان يتجاوز هذه الحدود فهو ممنوع عليه ، لانه يخرج الانسان من نطاق السلام الى نطاق البطلان والفساد ، وقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك (ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل) وقال ايضا (وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين) وقال ايضا (ءامنوا بالله ورسوله ، وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

وبذلك احتفظ الاسلام للانسان بمكانه فى الوجود كانسان ، وبحظوظه فيه، واباح له ما شاء من الحظوظ، وما ءاتاه الله من ملك استخلفه فيه : بشرطين اثنين فقط هما الاحسان وعدم الفساد ، ولم يشا ان يرتفع بالانسان من عالمه الى عالم ليس هو منه وهو عالم الارواح الخالصة ، ولا ان يهبط به الى عالم الشياطين

السلام فى الصلات فيما بين الناس عامة

واما فى الصلات فيما بين الناس عامة فقد فرض ايضا دستور الاسلام السلام فيما بينهم ، وقال فى سبب جعلهم شعوبا وقبائل انها كانت وسيلة لتسهيل التعارف والتقارب فيما بين الناس ، لا وسيلة ليرتفع بعضهم على بعض ويتخذ بعضهم من انفسهم ءالهة من دون الله فوق الاخرين ، وقد قال القرءان الكريم فى ذلك : وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) واستل بذلك من نفوس المسلمين ما رسخ فى نفوس جميع الاقدمين والكثيرين من الحديثين من رجحان شعب على شعب فى الحقوق والكرامة ، وتجريد الكثيرين من بني الانسان من حقوقهم الحرة فى الحياة والسيادة .

السلام فى النظام العام

واما فى النظام العام فقد فرض دستور الاسلام السلام ايضا ما بين الانسان واخيه الانسان : فلا طبقية ، ولا عرقية ، ولا اجناس ، وقرر المساواة ما بين الجميع فقال رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام فى ذلك (لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لابيض على اسود ، الا بالتقوى) وهذا ايضا منتهى ما تنشده الانسانية اليوم ومفكروها ، ومنتهى ما تعمل على ادخاله فى دساتيرها ، كحقوق طبيعية للانسان .

السلام فى الحكم

واما فى الحكم فقد فرض ايضا دستور الاسلام السلام فيما بين الناس فى الحكم ، لانه فرض العدل فى الحكم والمساواة فى الحقوق لجميع من يسوده نظام الاسلام ولو لم يكن عربيا او مسلما ، وجهرت احكام الاسلام فى ذلك لغير العرب ولغير المسلمين قائلة (لكم ما لهم ، وعليكم ما عليهم) .

اثر هذه المبادىء السلمية فيما بين ابناء العروبة من مسلمين وغيرهم

وبذلك لم يعد هناك من فارق ما بين ابناء العروبة مسلمهم وغير مسلمهم فى الافتخار بحمل هذه الرسالة الى ابناء الانسانية لتسود فيهم احكامها ، كما لا يوجد فارق اليوم ما بين ابناء الدولة الواحدة الحديثة على اختلاف اديانهم ممن يدينون بدساتيرهم المتحررة ويفتخرون بها ما دامت تقوم على هذه القواعد العامة للانسانية ، والمبادىء الخالدة .

اثر هذه المبادىء السلمية فيما بين العرب وغيرهم

وبذلك ايضا لم يعد هناك من فارق ما بين عربي وغير عربي فى الافتخار بحمل هذه الرسالة واداتها ، والانضواء تحتها ، والاخذ بمبادئها الدستورية، والتقديس لمن نادى بها ودعا اليها ، وما تقديس المسلمين غير العرب للعرب ، والايمان بهم ، والافتخار بالالتحاق بهم ، والانضواء تحت لوائهم ، ممجدين العروبة من غير غل ، ومفتخرين بها من غير شك ؛ الا اثر هذه العروبة التي بلغت فى ظل البعث الاسلامي كما اراده الله ءاخر مرحلة من مراحل تطورها ، فكانت من قبل الاسلام قومية عربية عصبية كغيرها : يجتمع اصحابها ليعيشوا لانفسهم ، فاراد الله لها بالاسلام

ان تتم مرحلة تطورها الصاعد ، فغدت قومية عربية انسانية ، يجتمع اصحابها ليعيشوا لهم ولغيرهم من الناس ، وبذلك جعلهم خير امة اخرجت للناس ، وبذلك ارتفعت قوميتهم الى عرش القوميات الخالدة بل انفردت به حتى الآن دون غيرها من العالمين ، اذ لا تجد وراء العرب وعلى طريقتهم من سار سيرتهم ، والله يؤتي فضله من يشاء ، وهو اعلم حيث يجعل رسالته .

خاتمة البحث ووجوب المجاهرة بشخصية الاسلام السلمية

وبعد ايها القراء الكرام ، فهذا هو الاسلام فى مبادئه الدستورية

فهو سلام فى اسمه

وسلام فى تحيته

وسلام فى ليلة نزوله

وسلام فى اسم ربه

وسلام فى عقيدته ما بين العقل والايمان

وسلام فيما بينه وبين اصحاب الاديان

وسلام واحسان فى مطالب الحياة الخاصة

وسلام وبر فيما بين الاخذين بمبادئه وبين سائر الناس ما لم يقاتلوهم فى الدين او يخرجوهم من الديار فانه عندئذ فقط حرب على الظلم والعدوان وذلك ايضا فى سبيل السلام .

وهو سلام ايضا فى النظام فلا طبقية ولا عرقية ولا اجناس

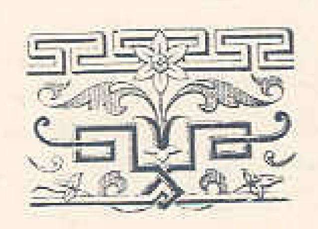
وسلام فى الحكم وعدل فى الحق ما بين العرب وغير العرب ، وما بين المسلمين وغير المسلمين .

واخيرا وبكلمة واحدة : فهو سلام فى سلام .

ونحن اليوم فى عهد العلم ، وفى عهد سلطان العقل ، وهو عهد يرحب به الاسلام ، وتحبيه مبادىء الاسلام .

فما كان يضرنا بالامس من ضيق العقول ، وجهل المخاطبين ، وبحملنا على اخفاء شخصية الاسلام فى شخصية المبادىء الديموقراطية عندما يسود اصحابها ، او يحملنا على اخفاء شخصية الاسلام فى شخصية المبادىء الاشتراكية عندما تشتد سواعد اربابها ، او كما ذهب البعض الى تلوين شخصية الاسلام بالوان الزعامة فى عهد انتصار الزعامة النازية اثناء الحرب العالمية الثانية .

فما كان يضرنا بالامس وبحملنا على اخفاء شخصية الاسلام لم يعد يضرنا اليوم ، فقد تفتحت العقول وانتصر العلم ، واصبح العالم اجمع فى حضارته الحديثة كانه اسرة واحدة ، وتشوقت النفوس بعد ما اصابها من مآسي الفرقة وتناحر المبادىء الى صوت السماء وصوت السلام ، فاعلنوا للعالم مبادىء الاسلام وقواعده الدستورية ، كما اشرنا اليها ، فانها السبل الوحيدة لضماد جروح الانسانية ، وانها السبيل الوحيدة لجمع الكلمة فيما بين ابنائها والتعايش فيما بينهم بسلام ، على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم واديانهم واعراقهم دون المساس بها واسمعوهم قول السما (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (ان هذا القرءان يهدي للتي هي اقوم) (فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون) .



موقف الاسلام من التطور الاجتماعي وفقا لمقتضيات العصر

للدكتور
محمد البهي

لكي يتضح الكلام في هذا الموضوع يجب ان يشرح اولا : معنى التطور الاجتماعي ، ويشرح ثانيا : معنى مقتضيات العصر .

معنى التطور الاجتماعي :

والتطور الاجتماعي هو تطور علاقات الافراد بعضهم ببعض ، بحيث يكون الجانب الاجتماعي ، او بحيث تكون النظرة الى رعاية الفرد للفرد لا تقل عن رعاية الفرد لنفسه . التطور الاجتماعي هو نمو علاقات الافراد في دائرة المشاركة الوجدانية والتعاون في سبيل العمل المثمر والخير العام للجميع ، بدلا من استمرار « الفردية » وتحكم الانانية التي توحي بها طفولة الفرد، وطفولة المجتمع .

ولكي ندرك معنى التطور الاجتماعي ادراكا لا لبس فيه نعود الى الجماعات البدائية ، التي لم تع بعد العلاقات المشتركة ، ولم تقر بعد بالوجود المشترك بين الافراد ، ولم تقر كذلك بالهدف المشترك الذي يصح ان يجتمع عليه فريق من الناس ، وجملة من الافراد ، ويقيمون بسبب ذلك « مجتمعا » بينهم يسعون جميعا لتحقيق هدفه ، والتعاون جميعا في سبيل بقائه .

ان الانسان البدائي لا يكون مع انسان ءاخر بدائي مثله « مجتمعا » وانما يتكون منه ومن نظيره « مجموع » تخضع العلاقات بين الافراد فيه للانانية، ولفريزتي حب البقاء، والدفاع عن النفس،دون سواهما من الفرائز الاجتماعية الكامنة في الانسان والتي لم تبرز بعد بتأثير التوجيه والايقاظ . ومن ثم لا تعرف هذه العلاقات السلم الا عند مواجهة ضعيف لقوي بين الافراد ، اما قاعدة التعامل فهي الاحتكاك عند السعي نحو ما يسد حاجة البطن او ينفس عن شهوة الفرج .

ليست هناك علاقات في واقع الامر بين افراد المجموع الا بمقدار ما يقع بينهم من احتكاك واصطدام من اجل تحقيق ما اشرنا اليه من هدف : ليست هناك علاقات اسرية . اي ليست هناك علاقات ابوة وبنوة وامومة ، واخوة .. الى بقية انواع القربى في الاسرة ، التي تقوم على الدم المشترك ، والوراثة العقلية والمادية، والوضع الذي لهذه الاسرة . نعم ينل الافراد بصلة الذكر بالانثى بحكم التفاعل الطبيعي بين الموجب والقابل . ولكن قلما يوجد الشعور بنوع القرابة الاسرية . بمعنى انه قلما توجد هناك رعاية من اب لابنه ، او رعاية من ذكر لانثى انتج منها ولدا . وعلى معنى انه قلما يوجد هدف هو المحافظة على الاسرة ، بالسعي في توفير العيش لها ، وبالدفاع عن افرادها ، ان احتاج الامر الى الدفاع عنها ، وصيانتها من الابادة او الافناء . بل كثيرا ما يصطدم الذكر الاب بالانثى الام ، او يصطدم الاب بابنه ، والاخ بأخيه في سبيل الحصول على لقمة العيش . وكثيرا ما لا يعرف الذكر عند الاجتماع بالانثى حرمة لامه ، ولا لاخته ، ولا للاخريات اللواتي لا يقر « المجتمع » نكاحهن من افراد معينين لانهم محارم لهم . لهذا ليس هناك حد لتعدد الزوجات . وليس هناك اطار للحل والحرمة في التزاوج . بل ربما لا يوجد رقم معروف يحدد الافراد الذين ينتمون الى نسل رجل واحد في علاقته بعدد من الاناث .

فاذا ما ابتدا الافراد يحددون علاقاتهم بعضهم ببعض . ويدركون الاطار الذي تدور فيه هذه العلاقات ـ هنا يبتدىء قيام « المجتمع » وكلما تحددت علاقات الافراد بعضهم ببعض ، وكلما وضح الاطار الذي تدور فيه هذه العلاقات ، وبالتالي وضحت الاهداف والغايات التي يسعى اليها هؤلاء الافراد كلما برز المجتمع ، وكلما وضحت الامارات مع وجوده القوي .

فاذا ادرك افراد الاسرة فعلا علاقات بعضهم ببعض ، وارتبطوا فيما بينهم على اساس من التعاون والرعاية المتبادلة عند الازمات التي تجد بينهم ، او تطرا عليهم من غريب عنهم ، وعرفوا حدود ما يجب ان يفعل ، وما يجب ان يترك في سبيل هذا التعاون وفي سبيل تلك الرعاية ، ووقفوا على ان لهم جميعا هدفا واحدا هو ان تبقى اسرتهم ، وتبقى قوية عزيزة ، في مواجهة غيرها من الاسر ـ هنا يكون الوعي الاجتماعي قد تيقظ بين افراد هذه الاسرة واخذ طريقه نحو غايته ، ينتقل من مرحلة الى مرحلة اقوى منها ، حتى يصل الامر بينهم الى تكتل او وحدة .

واذا ما تجاوبت اسرة مع اسرة في العلاقات ، وارتبطت معها في الهدف هنا يكون المجتمع الكبير قد تاسس . فاذا ما اتسع نطاق العلاقات المشتركة والترابط الى عدد من الاسر ، او الى كثير من الافراد ـ عندئذ يكون المجتمع الانساني قد قطع جملة من المراحل في سبيل وجوده ، وفي سبيل بقائه ايضا .

وهكذا : النمو الاجتماعي يسير في اتجاهين : بينما يتجه نحو الامتداد والاتساع ، يتجه ايضا نحو العمق والغور . اي في الوقت الذي يسعى فيه الى جمع افراد كثيرين ، يسعى ايضا الى تعميق العلاقات بين هؤلاء الافراد ، وتقوية الروابط الانسانية المشتركة بينهم . وعمق العلاقات بين الافراد ، وقوة الترابط الانساني بينهم يبدو اولا : في التعاون المثمر ، وثانيا : في المحبة والاخوة . وبعبارة اخرى يبدو هذا وذاك في تحقيق اهداف الانسانية وهي التحرر من السيطرة الحيوانية ، وسيطرة الغرائز ، وسيطرة الطفولة ، على العلاقات بين الافراد .

مقتضيات العصر :

واذا كان التطور الاجتماعي هو التحرر من سيطرة الحيوانية ، والغرائز والطفولة البشرية ، اي التحرر من سيطرة الفردية والانانية ـ فمقتضيات العصر ان كانت دافعة على هذا التحرر تكون من عوامله ويكون التطور عندئذ ءاخذا طريقه الطبيعي نحو غايته الاخيرة ، وهي الانسانية فيما تتميز به من محبة ، وتعاطف ، وتواد بين افرادها .

وبذلك تحدد مقتضيات العصر تبعا لتحديد معنى التطور الاجتماعي نفسه ، وليس تبعا لما يوضع من رغبات ، ويوجه المجتمع نحوها بعض الكتاب والمفكرين .

فالطائفية ، والحزبية ، والمذهبية ، والعصبية ، والقبلية ، لا تعد من مقتضيات العصر .

وتحرير المراة ، على معنى تمكينها من اداء وظيفتها في الاسرة كأم ، وفي المجتمع كعضو يقع عليه عبء تمليه طبيعته كأنثى ـ من مقتضيات العصر .

والدعوة الى تعاون الزوجين ، والى منع التعسف ، والتحكم من القوي ضد الضعيف ، والى البر ، والتهذيب في معاملة كل منهما للاخر من مقتضيات العصر .

والدعوة الى عدم اساءة استعمال الحق ، في الجوار والمعاملة ـ وبالاخص بين الزوجين ـ من مقتضيات العصر .

لكن الدعوة الى تحرير المراة ، على معنى ان تكون رجلا ءاخر في صورة امراة ، فذلك ليس من مقتضيات العصر ، لانه ضد طبيعة المراة نفسها ، وضد التطور الاجتماعي ذاته . اذ التآلف ، والتواد ، والمحبة بين الافراد ، التي هي نهاية التطور الاجتماعي ، لا تتحقق الا اذا وقع انسجام بين الافراد وتحول فيما بعد هذا الانسجام الى تآلف ، وتواد ، وتحاب ، والانسجام لا يكون بين متشابهين تماما . بل كلما كانت هناك مفارقة بين الطرفين ، وكلما كان هناك خروج عن التشابه التام بينهما ـ كان ذلك ادعى الى الانسجام بينهما . اذ عندئذ تكون حاجة كل منهما

الى الآخر امرا واضحا ، وبذلك يكون « التعويض » والتعويض مبدا دوري في الحياة ، لانه يتجاوب مع مبدأ آخر هو اصل الحياة نفسها ، وهو « الثنائية » : الفاعل والقابل . والموجب والسالب . فلولا هذه الثنائية ، ولولا هذا التقابل بين القابل والفاعل ، والموجب والسالب لما اجتمع اثنان ، ولما وقع انسجام في الحياة اطلاقا .

ان « التشابه » التام بين شيئين سبب من اسباب الاحتكاك والاصطدام وليس سببا من اسباب الالتقاء والانسجام . اذ عندئذ كلاهما لا يشعر بحاجة الى الآخر ، او كلاهما لا يرى ان به فراغا يسده الطرف الآخر . فتساوي الرجل والمرأة في الارادة او عدم الارادة مدعاة الى الفرقة بينهما وليس اللقاء والانسجام ، رغم ان هناك مفارقة اخرى بينهما هي الذكورة والانوثة . والتشابه في الصفات الجسمية وفي تكوين البدن ، وفي ملامح الوجه بين الرجل والمرأة . سبب من سبب الفرقة ، وان كانت هناك مفارقة اخرى هي الذكورة والانوثة ، فالمرأة تريد رجلا . اي تريد انسانا مقابلا لها في الخصائص النفسية والبدنية . والرجل يريد امرأة ، اي يريد انسانا مقابلا له في الخصائص النفسية والبدنية . عندئذ يكون اللقاء بينهما امرا طبيعيا ، ويكون الانسجام ظاهرة اللقاء الاول . اي رجل يريد امرأة تكون لها عضلات الرجل ؟ واي رجل يريد امرأة تتجرد من عاطفة الانوثة ، وتكون لها الارادة الصلبة التي للرجل ، ذلك الانسان الذي مارس الحياة ، وارتاد صعابها وازماتها ؟ واية امرأة تريد رجلا له التكوين الرقيق الذي للانثى في عضلاتها ؟ واية امرأة تريد رجلا تسيطر عليه العاطفة فيكون مترددا في قوله وفي تصرفاته ؟ . يميل حسبما تتجه به الريح . وحسبما يكون التأثير عليه ؟

وهنا تكون « الرئاسة » او « القيادة » في المجتمع امرا طبيعيا يقوم على طبيعة هذا المبدأ الضروري . على معنى ان يكون هناك راع ، وتكون هناك رعية ، وان يكون هناك قائد او رئيس ، ويكون هناك من يتوجهون بتوجيهه ، ويتبعون قيادته . ولو فرض ان الافراد جميعا ارادوا ان يكونوا رؤساء لما كان احتكاك بينهم . ولو فرض انهم جميعا مرؤوسون بدون رئيس لما كان هناك مجتمع ، ولما كان هناك سبب يحملهم على الانقياد في اتجاه واحد ، وغاية واحدة ، وعندئذ يكون الاحتكاك والاصطدام هو السائد على العلاقات بينهم ان كانت هناك علاقات .

وهنا ندرك : لماذا يعبد الله ؟ ولماذا يجب على الناس جميعا ان يخضعوا لقيادة موجه واحد ، هو الله سبحانه وتعالى :

ان عبادة الله يفرضها هذا المبدا الطبيعي للوجود ، وهو مبدأ « التقابل » الذي هو اصل الانسجام في الحياة ، ومطلوب الانسان في حياته ان يكون منسجما مع نفسه ومع من عداه في وجوده الخاص والعام :

والتطور الصناعي في وقتنا المعاصر اذا كان في خدمة الانسانية فهو في خدمة التطور الاجتماعي ، وعندئذ يكون من مقتضيات العصر .

ومعنى كونه في خدمة الانسانية ان يبقى الانسان ذا سيادة والا تكون الآلة هي السيد . معنى ذلك ان يستخدم الانسان الآلة في رفع مستوى معيشته ، وفي وضعه الاجتماعي وفي تخفيف المرض ، وفي ازالة الجهل والامية وفي التنوير والتبصير بالحياة والكشف عنها لا ان يكون عبدا ذليلا لها تفرض عليه الرق والعبودية ويكون مسخرا لها . اذ عندئذ تصبح مصدرا للقلق والاضطراب ، وبذلك تكون معوقا له عن ان يصل الى الهدف الاخير للتطور الاجتماعي ، وهو التعاون والتواد ، والتحاب بين الناس جميعا .

الاسلام وموقفه من التطور الاجتماعي وفقا لمقتضيات العصر :

الاسلام هو رسالة السماء الى البشر على هذه الارض ، وهو رسالة الله للناس جميعا ، لا فرق بين عربي واعجمي ، اي لا فرق بين فرد وآخر ، جاء ليهدي البشرية الى الطريق الذي يصل بها الى تحقيق معنى الانسانية في حياة الانسان .

فاذا كان معنى الانسانية الاخير – كما شرحنا – هو لقاء الانسان بالانسان ومودة الانسان للانسان ، واخوة الانسان للانسان ، وتعاون الانسان مع الانسان ومحبة الانسان للانسان – فالاسلام جاء ليوقظ في الانسان هذه المعاني وينميها فيه ، ويحثه على رعايتها وعلى ان يتمثلها في سلوكه وتصرفاته .

الاسلام جاء ليدفع الانسان الى الخروج من الطفولة البشرية الى الرشد الانساني ، اي انه جاء لتطوير المعنى الانساني فى الانسان ، جاء لتطوير المعنى الاجتماعي فى الانسان ، فليس المعنى الانساني الا ذلك الترابط الاجتماعي . والا تلك العلاقات بين الافراد التي تؤسس على التعاون ، وعلى شتى انواع الرعاية بينهم . وقد رأينا ان معنى البدائية هو التفكك فى العلاقات بين الافراد ، او هو سيطرة الانانية ، « والفردية » او بعبارة اخرى سيطرة الحيوانية والغرائز ، دون ما يتميز به الانسان من خصائص وينفرد به عن بقية الكائنات الاخرى الحية التي لها الحركة والتي لها السعي فى سبيل حب البقاء.

الاسلام جاء يحث على التعاون فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » حث على البر فقال : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، واقام الصلاة وءاتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » حث على الاحسان فى المعاشرة فقال : « ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها » وعلى الاخص بين الزوجين فقال : « فامساك بمعروف او تسريح باحسان » حث على العدل فقال : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا » حث على رعاية البشرية وصيانتها من الظلم والعسف فقال : « ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

كل هذا وغيره مما حث عليه الاسلام هو دفع لنمو العلاقات الاجتماعية ، والتطور الاجتماعي .

ورسالة الاسلام تكاد تنحصر فى امرين : ضغط الانانية وكبت الفردية من جهة ، وايقاظ المشاركة الوجدانية وتنمية العلاقات الاجتماعية من جهة اخرى. رسالة الاسلام هي ابعاد الطفولة الانسانية عن تصرفات الانسان ، واحلال الرشد الانساني محل هذه الطفولة ليبقى الانسان متميزا ، ولتبقى له الكرامة والسيادة .

فالاسلام اذ يقول : « ولقد كرمنا بني ءادم » . لا يقصد بتكريمهم الا انه ميزهم عن غيرهم بالخصائص الانسانية . والله اذ ارسل الرسل برسالته لم يقصد الا ان يمكنهم من الطريق الذي يهديهم الى تحقيق هذه الخصائص فى سلوكهم وتصرفاتهم .

وبهذا اذا فهم التطور الاجتماعي على نحو ما شرحنا ، وفهمت مقتضيات العصر فى ظل التطور الاجتماعي ــ كان الاسلام مصدر دفع لهذا التطور ، مصدر تقدير لهذه المقتضيات التي من شانها ان تدفع الى هذا التطور .

اما اذا اريد بالتطور الاجتماعي مذهب سياسي خاص ، او مذهب سياسي معين فالاسلام نظام مستقل يتلاءم مع ما يتفق معه فى الهدف والخطة ويتنافر مع ما يختلف معه فى هذا وذلك .

واذا اريد بمقتضيات العصر ضروب خاصة من التصرفات فى المجتمعات القائمة ــ فقبل ان يحدد موقف الاسلام : سلبا او ايجابا منها ، يجب توضيحها اولا .

والاسلام على كل حال ليس الا ذلك النور الذي يهدي الى الصراط المستقيم . وليس الصراط المستقيم الا ذلك الطريق الموصل الى غاية الانسانية .

الموازين والضوابط



- 17 -

مـــا اعجب نظام الضوابط والموازين الذي منع اي حيوان ، وان بلغ من الضـراوة والقوة وعظـم الجسم والمكر كل مبلغ ، مـن التحكم في اهـل الارض والسيطرة عليهم منذ عصر الحيوان القشري المتجمد ، لكن الانسـان وحده قلب هذه الموازين الطبيعية بنقلـه الاشجار وسائر النبات والحيوان من مكان الى مكان ، الا انه قد ادى ثمن تلك السيطـرة وعوقب عقابـا شديدا بسبب تطور الحيوان والحشـرات والنبـات وما نشأ عن ذلك من الآفات .

والحقيقة التالية مثال واضح يدل على اهمية تلك الضوابط وذلك التوازن بالنسبة لوجود الانسان ، قبل سنين عديدة زرع نوع من التين الشوكي (الهندية) في استراليا على شكل سياج (زرب) وقائي ، ولا توجد في استراليا حشرات مضادة لشجر التين الشوكي ، فلذلك نمى بسرعة غريبة حتى غطى مساحة واسعة تساوي مساحة البلاد الانكليزية كلها وضايق اهل المدن والقرى ، واتلف مزارعهم ، وحال بينهم وبين الزراعة ، ولم يستطع اهل تلك البلاد ان يجدوا وسيلة لوقفه عن الانتشار ، واصبحت استراليا في خطر من جراء جيش من الزرع الصامت يكتسحها ، لاطاقة لها بدفعه . وعند ذلك اخذ علماء النبات يبحثون في جميع انحاء الدنيا عن وسيلة تقاوم انتشاره ، حتى عثروا في نهاية بحثهم على حشرة لا تعيش الا على التين الشوكي ، ولا تأكل شيئا آخر ، وهي سريعة النمو والتكاثر وليس لها عدو يقاومها في استراليا ، فاخذت في اكل التين الشوكي حتى قضت عليه ، ثم قل عددها ولم يبق منه الا القدر الكافي لوقف ذلك النوع من النبات عند حده الى الابد .

وكذلك خلق الله الضوابط والموازين لوقف كل نوع من المخلوقات عند القدر الصالح حتى لا يطغى بعضها على بعض .

لماذا لم تسيطر بعوضة الحمى الناقض (ملاريا) على اهل الارض فتجعل اسلافنا عبر الاعصار والقرون يموتون بسببها او يكتسبون مناعة ؟ ومثل ذلك يقال في بعوضة الحمى الصفراء التي انتشرت شمالا في احد الفصول حتى وصلت نيويورك ، والبعوض كثير جدا في المناطق المتجمدة ، ولماذا لم يتطور ذباب (تسي تسي) حتى يعيش في غير المناطق الحارة ، وحينئذ يقضي على البشر ويمحوهم من الوجود ؟ ، وهنا ينبغي لنا ان نذكر الطواعين والاوبئة القتالة التي لم يكن للناس ما يحميهم او يمنعهم منها الى امس القريب ، ويذكر ما كان عليه الانسان من الجهل التام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم ان بقاء الجنس البشري مع كثرة اعدائه امر عجيب تتحير فيه الالباب هذه الحقائق العجيبة من اسرار الطبيعة تستحق الذكر والاعتبار ، وان كانت لا تكون بالضرورة برهانا تاما على وجود العناية الربانية من طريق مباشر ، ولكنها تضاف الى البراهين السابقة فتزيدها قوة ووضوحا .

ان الحشرات ليست لها رئتان كما للانسان ، وانما تتنفس بواسطة انابيب ، فاذا نمت وكبرت اجسامها لا تنمو تلك الانابيب بنمو الحشرات، فيتوقف نموها بسبب ذلك ، فلا تجد حشرة تزيد في طولها على بضع بوصات (البوصة هي الانتش باللغة الانكليزية ، وقد تقدم وهي تساوي ثلاث سنتمترات الا قليلا) ولا تطول اجنحتها الا قليلا ، وبسبب تكوينها الجسمي

وطريقة تنفسها لم توجد قط حشرة ضخمة الجسم ، وهذا الحد من نمو الحشرات منعها من الطغيان والسيطرة ووقفها عند حدها ، ولولا وجود هذا القانون الطبي ما امكن وجود الانسان فتصور الانسان في اول اطواره يصادف زنبورا في حجم الاسد او عنكبوتا مثل ذلك .

ولم يكتب الا قليل من انظمة انواع الحيوان الكثيرة بتلك الانظمة الفيزيولوجية العجيبة التي بدونها لا يمكن وجود حيوان ولا نبات ايضا ، واذا وجد الم يمكن استمرارهما ، وتلك الحقائق بلغت من الاهمية غايتها حتى صار ذكرها واجبا حتما ، لقد انتبه العالم الى وجود هذه الحقيقة ، وهي ان هناك اشياء كالفيتامينات ، وكان الناس من قبل يجهلونها وعرفوا ان فقد هذه الفيتامينات يسبب امراضا : نحو بلاكرا ، وبربرز وسكرفوي وسائر الامراض التي تعرف بامراض سوء التغذية ، ولابد ان الانسان قد عاش ملايين السنين قبل ان يعرف هذه المواد التي هي ضرورية لاستمرار حياته ، فان الاسفار الطويلة في البحر بدون غذاء تام تفضي الى مرض (سكرفوي) وقد اكتشف ان عصير الليمون دواء نافع لهذا المرض، وكان الملاحون في السفن الكبيرة في الزمن القديم يسمون عاصري الليمون ، ولم يكن الملاحون الاقدمون يعرفون سبب مرض سكرفوي وهذا الدواء البسيط اكتشفه فاسكودي غاما لما كان ملاحوه يموتون في مدغشقر ، غير انه مضى قرن من الزمان او اكثر قبل ان تكتشف العلاقات بين الليمون وبين اختفاء مرض سكرفوي ، وقد زال هذا المرض الفتاك وانقطع عن المسافرين في البحار بسبب ما ذكرنا ، انقضى قرن ءاخر او اكثر قبل ان يعرف الانسان قيمة الفيتامينات التي توجد في الليمون ، ولكنه لم يكن يعرف حينئذ ما تشتمل عليه هذه الفاكهة ؛ كذلك عاش ملايين السنين ايضا قبل ان يعرف وظائف المعامل الكميائية الصغيرة المعروفة بالغدد الصم ، التي تمده بالتركيبات الكيميائية التي هي جد ضرورية له ، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته واعماله ، اضف الى ذلك ان تلك المواد التي هي جد ضرورية له ، وهي تصنعها وتسيطر على حركاته واعماله ، اضف الى ذلك ان تلك المواد التي بلغت من القوة ان جزءا من بليون منها يحدث ءاثارا بعيدة المدى ، هي منطقة ، ينظم كل منها غيره ويحفظ توازنه ، وقد علم يقينا ان هذه الافرازات المعقدة اذا اختل توازنها حدث اختلال عقلي وجسمي في غاية الخطورة ، ولو عمت هذه المصيبة لاضمحلت المدنية وانحط الجنس البشري الى حالة الحيوان الاعجم ؛ هذا ان امكن بقاؤه ، على اننا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازين وحدها التي بدونها لا يمكن وجود الحياة كما نعهدها لواجهنا بقاء الانسان بمسالة حسابية تستحق قدرا كبيرا من الاهتمام عند المدافعين عن عقيدة المصادفة .

تعقيبات :

1) تعجب المصنف من التوازن الذي جعله الله بين اجناس المخلوقات بسبب التضاد الذي فطرت عليه حتى لا يطغى بعضها على بعض ويستمر بقاء كل منها بالقدر الذي يصلح به نظام الحياة وعمارة الارض ، وكل ذلك سخره الله للانسان فهو السيد الحاكم المتصرف المستغل المستمتع ، وقد جاء في كتاب الله من التنبيه على هذه القاعدة ما فيه عبرة لاولي الالباب المنصفين الاحرار ، قال تعالى في سورة البقرة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين) وقال تعالى في سورة الحج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) الصوامع (معابد الرهبان والراهبات التي انقطعوا فيها الى العبادة وتركوا امور الدنيا يريدون بذلك التقرب الى الله والبعد عن فتنة الدنيا حسب اعتقادهم كما قال تعالى في سورة الحديد : (ورهبانية ابتدعوها) وقد امر النبي (ص) المسلمين اذا وقع بينهم وبين النصارى قتال ان يحترموا الرهبان والراهبات ولا يتعرضوا لهم بسوء الا اذا اشتركوا في القتال . والبيع جمع بيعة وهي في الاصل الكنيسة التي بنيت قبتها على شكل بيضة ، لان البيعة باللغة السريانية هي البيضة ، قلبوا الضاد عينا كما فعلوا ذلك في ضاد الارض فقالوا (ارعا) ومن المعلوم عند من يعرف اللغة السامية ان الضاد تصعب على السريانيين والعبرانيين فيقلبونها ويبدلونها بحرف ءاخر ، ثم عم لفظ البيعة كل كنيسة للنصارى ، والصلوات جمع صلاة ، وهي معبد اليهود ويسمى في اللغة العبرانية المستعملة الى اليوم (بيت تفلا) اي بيت الصلاة ، والمساجد معابد المسلمين وقد جاء الاسلام باحترام هذه المعابد وسلط على كل ظالم مقاوما يردعه ويرده عن غيه وما احسن قول الشاعر :

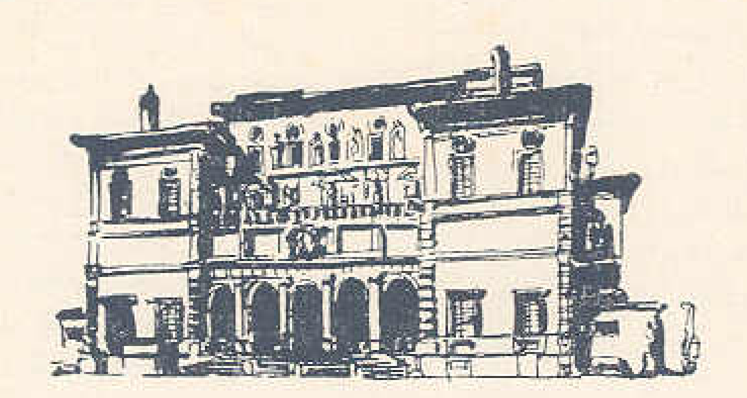
وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

هذا فيما بين البشر وكذلك انواع الحيوان يأكل بعضها بعضا ، ولا ينقرض اي نوع من الانواع المفيدة الصالحة للبقاء واذا انقرض يخلفه نوع اجود منه وقد يقع التصاول بين النبات والحيوان فيكون احدهما غذاء للاخر ، والاكثر ان يكون النبات هو المأكول .

2) قوله : لكن الانسان وحده قلب هذه الموازين الطبيعية) ولقد كرمنا بني ءادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وانما ساد الانسان وتحكم في نواصي غيره من الحيوان وان بلغ الغاية في القوة وضخامة الجسم بالعقل والتفكير والنطق الذي فضله الله به .

3) في قصة شجر التين الشوكي ويسمى عند بعض المغاربة (بالهندي) وعند بعضهم (بكرموس النصارى) والكرموس بالمغربية هو التين ، ويسمى في بلاد الشام (بالصبير) ، ويسمى في الحجاز (بالبرشوم وبابي برشوم) وله اسماء اخرى عند شعوب اخرى ، ومن العجيب ان المغاربة ينسبونه الى الهند، مع انه لا يوجد في بلاد الهند ولا يعرف ، في هذه القصة عبرة تدل على تسليط بعض المخلوقات على بعض حفظا لبقاء كل نوع منها، وكنت اتحدث مع احد العلماء المفكرين فقال لي : ان الاستهلاك لا ينقص النوع المستهلك ، بل يزيده ويوفره ، اذ على قدر الاستهلاك تكون العناية والعمل على تكثير ما يستهلك من حيوان ومزروعات وغيرها ، ففي كل يوم تذبح الاف من الغنم والبقر في كل بلاد يستحل اهلها اكل اللحم ولا ينقص ذلك الغنم والبقر بل يزيدها اقول وهذا نظر صحيح لان بلاد الهند واسعة الارجاء يعد اهلها بمئات الملايين ومساحتها واسعة جدا ، واهلها لا يأكلون اللحم الا المسلمين والنصارى ، وعددهم قليل خصوصا بعد انفصال الباكستان عن الهند ، فلم يبق في الهند من المسلمين الا اربعون مليونا وعدد النصارى بضعة ملايين فلو كان الاستهلاك ينقص الغنم والبقر لكانت بلاد الهند اكثر البلاد غنما وبقرا والواقع ان الغنم قليلة ، ونوع الضان منها لحمه رديء حتى ان الاغنياء هناك لا يضحون الا بالمعز او بالبقر ان امكنهم ، لان ذبح البقرة في البلاد التي يكون سكانها خليطا من المسلمين والهنادك يكلف ثمنا غاليا تزهق فيه ارواح وتقع حروب اهلية لاجل ذبح بقرة واحدة والمقصود هنا الاستدلال على ان الاستهلاك لا ينقص الجنس المستهلك .

4) قوله : على انا لو اعتمدنا على هذه الضوابط والموازنات وحدها ..الخ ، يريد المصنف ان يوضح انه مع استحالة بقاء الانسان والحيوان والنبات بدون تلك الضوابط وذلك التوازن فهي غير كافية وحدها لحياته وبقائه على ما هو عليه ، بل لابد من وجود العناية الربانية التي تتكفل بوجوده واستمراره الى ما شاء الله ، ويحتاج القائلون بان العالم وجد بالمصادفة وهو يسير بالمصادفة الى الجواب عن مشاكل حسابية عسيرة لاقبل لهم بها ، وقد تقدم في هذه المقالات السبع عشرة من قيام الحجج عليهم واقامة البراهين الخانقة شيء كثير فله يقنع المنصف فضلا عن جله وبالله التوفيق .



القرآن واصول اللغة

للدكتور ابراهيم السامرائي

لقد بهرت لغة التنزيل المسلمين فى عصورهم الاولى ، فاقبلوا عليها يتدارسونها فيجدون فيها كل جديد . ومن اجل ذلك فالقرءان بداية لنهضة فكرية للعرب تعكس مستوى عاليا للتفكير والحضارة ذلك انه لم يكن للعرب قبل الاسلام ، فى ظلال الوثنية الاولى، شيء حضاري كالذي جاء به الاسلام مفصحا به الكتاب المنير : فالعلوم الاسلامية اعتمدت اصولها فى كتاب الله، وظل الباحثون فى مختلف العصور يجدون فيه المادة الجديدة والالوان المبتكرة فيقيمون عليها بحثهم ، ولم ينصرف المسلمون عنه فى اي عصر من العصور الماضية، فقد تمسكوا به حين بهرتهم الفلسفة الاغريقية فاقبلوا عليها واردين ، وظل الفلاسفة المسلمون متعلقين بآية الكريم واجدين فيه معينا لا ينضب ، مفيدين منه اعظم الفائدة مسترشدين به فيما اخذوا من سبل المعرفة الجديدة القائمة على الفلسفة الاغريقية وهكذا تم لهم شيء موحد منسجم اقيم على الاسلام واتخذ له اطارا فلسفيا ، وبقيت الفرق المختلفة والتيارات الفكرية المتضاربة تجد فى كتاب الله اساس دعوتها ومادة ءارائها ، فلقد اعتمده اهل السنة كما عول عليه الشيعة ، واستند اليه الخوارج فى ءارائهم الجريئة كما اعتمده المعتزلة وتمسك به المتصوفة .

وقد نشأت علوم العربية نتيجة لاقبال المسلمين على كتاب الله يدرسونه ويتبينون اختلاف الصحف فيه بين اقليم وءاخر ، وقد الف فى هذا الباب المصنفات فكان من ذلك ــ « اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر » وكتاب « اختلاف مصاحف اهل المدينة واهل الكوفة واهل البصرة للكسائي » وكتاب « اختلاف المصاحف » لخلف بن هشام وكتاب « اختلاف المصاحف وجامع القراءات » للمدائني ، وكتاب « اختلاف المصاحف » لابي حاتم ، وغير هذا كثير نجد ذكره فى المجاميع الضخمة من كتب التراجم والطبقات ، وفى مادة « قراءات » فى كثير من المصادر ولكننا لم نحظ من هذه الوفرة الكبيرة الا بكتاب ابي داود السجستاني ابن الامام ابي داود المحدث المشهور وصاحب السنن .

وباب القراءات من الابواب التي كثر التأليف فيها لما شاع بين المسلمين من وجوهها بحيث اضطر عثمان الى ان يجمع مصحفه المشهور ويوزعه فى الامصار ليكون المسلمون على بينة من نصوص الكتاب الكريم ، وندب لذلك زيد بن ثابت ، واستعان بالصحف التي احتفظت بها حفصة بنت عمر زوج النبي (ص) وبهذا سلم للقرآن وجه لغوي واضح تأثر اكثر ما تأثر به بلغة قريش ، وندب عثمان لزيد بن ثابت من كتاب الوحي لهذا الفرض الجليل امر مهم ، ذلك انه اغفل غيره كابن مسعود الذي كان متأثرا بلهجته الهذلية ، ففي الاخبار ان عمر قد بعث اليه ان يقرىء الناس بلغة قريش ولا يقرئهم بلغة هذيل ، وذلك حين سمع احدهم يقرأ « ليسجننه عتى، حين » ويريد بها « حتى حين » وكان عمر يقول « انا لنرغب عن كثير من لحن ابي » والمراد باللحن هو اللغة او ما نسميه اليوم باللهجة ، ولم يسلم مصحف عثمان من هذه « الالحان » بالرغم من الطريقة التي تم بها ، وبالرغم من ابطال كثير من الصحف لما اشتملت عليه من وجوه القراءات الضعيفة او الشاذة ، التي رغب عنها عثمان ، فقد روي عن عامر القرشي انه قال « لما فرغ من المصحف اتي به عثمان فنظر فيه فقال قد احسنتم واجملتم ولكني أرى فيه شيئا من « لحن » ستقيمه العرب بألسنتها » . على ان مصحف عثمان هذا قد خلا من النقط والشكل وكان ذلك دافعا للقراء على الاختيار فى قراءاتهم وهكذا نشأ لكل مصر من الامصار قراءة خاصة به معتمدين فى ذلك على نصوص المصحف العثماني وعلى المصاحف الاخرى التي منع عثمان ان يؤخذ بها الى ان جاء ابو بكر بن مجاهد (سنة 322 للهجرة) فاختار من هذه القراءات الكثيرة ما صح عنده فكانت القراءات السبع المشهورة اخذا بالحديث الشريف « انزل القرءان على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منه » ، على ان ءاخرين لم يستحسنوا اختيار ابن مجاهد ورجحوا قراءات اخرى فكان من ذلك القراءات العشر وربما زادت هذا العدد بكثير .

ولم يجد هذا الاختيار وهذه الجهود النافعة شيئا ، بل ظلت اللهجات الخاصة تؤثر في القراءات ، وهذا ما اصطلح عليه الاوائل بالقراءات الشاذة ، وقد الف في هذا الموضوع التصانيف الكثيرة كما تعرف ذلك من تاريخ القرءان مما تحدثنا به كتب التراجم والمجامع الاخرى ، فقد كتب فيه كثير من النحويين الاقدمين كالفراء وابن خالويه والعكبري ، والداني ، ولم يصل الينا من هذه التصانيف الكثيرة الا الشيء اليسير مثل كتاب البديع لابن خالويه وكتب التفسير حافلة بهذه الوجوه من القراءات .

ومادة « القراءات » في مجموعها مصدر مهم من مصادر التاريخ اللغوي ، ذلك اننا لا نعلم كثيرا عن مراحل تطور العربية من اقدم عصورها ، وذلك لقلة المكتشف المكتوب من صحف ونقوش وغير ذلك من نصوص هذه اللغة القديمة على عكس ما حصل في كثير من اللغات السامية الاخرى التي دل التنقيب الحديث على تاريخها القديم ومراحلها المتعاقبة ، غير ان شيئا من هذا لم يتم في العربية ، فالذي نعرفه من نصوصها القديمة هو الشعر الجاهلي ولا نستطيع ان نعد ، النصوص الجاهلية مرحلة اولى او قريبة من الاولى في التاريخ اللغوي ، فهي نصوص تكشف عن مستوى عال من تاريخ اللغة وليس صحيحا ان تبدا لغة ما بمثل هذه النصوص الفصيحة البليغة ، ومن هنا فلا بد ان نسأل انفسنا اين نجد معالم وءاثار ذلك التاريخ اللغوي القديم ، والجواب اننا لابد لنا ان نتوجه الى كتاب الله الكريم لنتبين ذلك في لغة التنزيل، ومعلوم ان القراءات على اختلافها تقدم مادة للباحث ، ثم ان لغة القرءان بخصائصها الخاصة مفيدة في هذا الباب ، ذلك ان القرءان حدث من اهم الاحداث في تاريخ العربية ، فهو انطلاقة بهذه اللغة لتعبر عن حضارة جديدة ذات مثل وافكار جديدة عالية ، وهكذا دفع الاسلام هذه اللغة خطوات الى الامام .

وقد بهرت لغة التنزيل جموع العرب وسيطرت على افكارهم وكانوا يقفون منها موقف السائل المتحير والمعجب المأخوذ ، فقد اثر عن عبد الله بن عباس انه قال : « والله ما ادري ما الحنان » وذلك من قوله تعالى « وحنانا من لدنا » ومثل هذا الخبر كثير تكشف عنه مصادر القرءان من كتب التفسير والقراءات . ومن اجل ذلك زخرت المكتبة العربية بالدراسات القرآنية منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا ، وربما لم يقيض لكتاب من الكتب ان تدرس نصوصه وتفسر وتحلل في طرائق مختلفة مثلما تهيأ للقرءان الكريم ، وما زالت البحوث والدراسات تجد في ايامنا هذه وتقوم على ناحية من نواحي القرءان المتعددة .

وكتب القراءات والتفسير تعكس نماذج من هذه اللغة المتطورة كما هي تعكس لونا من الوان العربية التي ضاعت وعفى عليها الزمان ولم يهتم بها علماء اللغة انفسهم وذلك لاهتمامهم بالفصيح والافصح ، ولان لغة الشعر الجاهلي ولغة القرءان قد فرضتا عليهم حدودا لا يستطيعون مبارحتها الا تراهم قالوا بالمولد والفصيح ، وان الاصمعي من علماء اللغة الاقدمين انكر استعمال « زوجة » بدلا من « زوج » محتجا بقوله تعالى « امسك عليك زوجك » فقيل له ان الشاعر ذا الرمة يقول :

اذو زوجة بالمصر ام ذو خصومة
اراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال : ذو الرمة ليس بحجة اذ طالما اكل البقل والمالح في حوانيت البقالين ، وهكذا قد حصروا الفصيح في حقبة معينة لم يتجاوزوها الى غيرها ، الا ترى ان بعضهم قد اعتبر جريرا والفرزدق بداية لهؤلاء المولدين ، وانه لم ياخذ بشعر نفر من الشعراء الاقدمين لان هذا وذلك ممن نسب الى هذيل مثلا ، او انه اتصل بمواطن لم تسلم لها عروبتها .

وطبيعي ان هذا المنهج لا يعني بموضوع اللهجات بل قل ان كثيرا من معالم اللهجات اعتبر من الصفات المذمومة الحقيرة الا ترى ان ابن فارس من علماء اللغة الاقدمين يعقد فصلا عن اللغات في كتابه « الصاحبي » . ولكننا لا نعدم ان نجد شيئا من ذلك في كتب القراءات ولا سيما ما كان منه في القراءات الشاذة ، فقد جاء في مختصر ابن خالويه في شواذ القراءات ان يحيى بن وثاب قرأ في سورة البقرة قوله تعالى « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر الشين وبابدال الياء بالجيم ومعلوم ان هذا الابدال علامة مميزة للجهة من اللهجات الدارجة وهي ما زالت موجودة حتى يومنا هذا في كثير من الاقاليم القروية في جنوبي العراق مثلا واذا اضفنا الى ذلك كسر الشين اتضح الشكل الدارج الذي سرى في قراءة يحيى بن وثاب .

وقرا مسلمة بن محارب « بعولتهن » من قوله تعالى « وبعولتهن احق بردهن » بجزم التاء من « البعولة » ، ومعلوم ان « البعولة » جمع « بعل » كالسهولة جمع سهل والفحولة جمع فحل ، وعندي ان اختلاف القوم في صيغ الجموع ولا سيما جموع

التكسير راجع الى اللهجات الاقليمية ، ومعنى ذلك ان جماعة ما الفت صيغة من صيغ الجمع لاسم معين، في حين ان الجماعة الاخرى جرى استعمالها لصيغة اخرى ، وربما وجدنا صدق هذا في استعمالنا الحديث، الا ترى ان عربية المغرب الفصيحة قد تستعمل صيغا في الجموع لم يؤلف استعمالها في عربية المشرق مثلا فانت لا تجد من يجمع « الحمار » على « احمرة » في المشرق في ايامنا هذه ، ولكنك تجده على السنة التونسيين في كتاباتهم ، والمألوف في استعمال المشارقة هو « الحمير » اما جمع « الحمار » على « حمر » فلم يعرف في لغتنا الحديثة وهو فصيح جاء في لغة التنزيل في قوله تعالى « حمر مستنفرة » ومثل هذا كثير .

وجاء في شواذ سورة الاعراف « الجمل » في قوله تعالى « حتى يلج الجمل في سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها ، وهي قراءة ابن عباس، ومعلوم ان صيغة « فعل » من صيغ جموع التكسير بضم الفاء وفتح العين وتشديدها ، لا يكون مفرده الا « فاعل » مثل « راكع » وجمعها « ركع » في حين ان مفرد « جمل » هو « جمل » بضم فاسكان ومعناه الحبل ، وقد قرأ ابو السمال بفتح الجيم واسكان الميم .

ومن شواذ سورة طه قراءة عكرمة « اهس » بالسين في قوله تعالى : « اهش بها على غنمي » .

ومن شواذ سورة الانبياء قراءة ابن عباس « حضب » بالضاد في قوله تعالى « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » وقرىء « حضب » باسكان الضاد ، وقرىء « حطب » بالطاء .

ومن شواذ سورة الحج ما جاء في قراءة « صلوات » من قوله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات » فكلمة صلوات قرئت في احدى عشرة صورة وهي « صلوات » بفتحتين و « صلوات » بضمتين وهي قراءة ابي العالية والكلبي والضحاك و « صلوات » بضم واسكان وهي قراءة جعفر بن محمد و « صلون » بضم الصاد فلام وواو ونون ، و « صلوب » بالباء ، و « وصلوات » بفتح فاسكان ، و « صلواث » بضم الصاد واسكان اللام وثاء مثلثة في الاخر و « صلوتا » بتاء في الاخر من الف للاطلاق ، والكلمة جمع صلاة وهي تعني الكنيسة في السريانية بخلاف ما ذهب اليه الزمخشري من انها عبرانية في « الكشاف » وغير ذلك من الصور .

والذي يثبت هذا الذي نذهب اليه من دلالة هذه الصيغ على اختلاف استعمال الجماعات المختلفة، او قل على لهجات الاقاليم ما يوجد في اللغة الحبشية من صيغ جموع التكسير وانصرافها الى الموضوع نفسه .

والقراء يختلفون حتى في موضوع الاعراب الذي التزم به جميعهم فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا . وقد حمل هذا على انه خطأ من كتاب الوحي ، فقد روى ابو معاوية محمد بن خازم التميمي السعدي عن هشام بن عروة بن الزبير المتوفى سنة 146 للهجرة عن ابيه عن عائشة انها قالت « ثلاث احرف في كتاب الله هن من خطأ الكاتب وهي قوله تعالى : « ان هذان لساحران » ، وفي قوله تعالى « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » ، وفي قوله تعالى « ان الذين ءامنوا والذين هادوا والصائبون » ، وقد حقق النحويون في حديث عائشة حول غلط الكاتب ، وحديث عثمان في قوله « ارى فيه لحنا » فاعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا بالشعر فقالوا في « ان هذان لساحران » هي لغة بلحارث بن كعب ، واشارة النحويين الى هذه اللغة نكتة لطيفة ذلك ان النحويين واللغويين كانوا كثيرا ما يصدقون عن موضوع اللغات الخاصة التي هي في اصطلاح اليوم اللهجات السائرة ، فقد وسموا العنعنة والجمجمة والفحفحة وغير ذلك باللغات المذمومة وهي اشكال للمألوف الدارج من الاستعمال نطقا وتركيبا .

وقد اكثر هؤلاء من الاستشهادبالشعر وربما كان ذلك اكثر من استشهادهم بالقرءان والحديث ، ولعل الاصمعي اشدهؤلاء فيإجتناب الخوض في مجاز القرءان قال ابو حاتم سألت الاصمعي عن « الصرف » و « العدل » فلم يتكلم فيه ، وقلت له هل معنى « الربة » الجماعة من الناس فلم يقل شيئا لان في القرءان (ربيون) .

وهكذا فلغة القرءان تقدم نماذج لغوية جديدة ربما جهل اسرارها المسلمون الاولون كما اسلفنا في قوله تعالى « وحنانا من لدنا » فقد جهل ابن عباس ما المراد بالحنان » ومثل هذا « التسنيم » في قوله تعالى: « ومزاجه من تسنيم » وحار المفسرون في رد هذه الكلمة الى اصولها فقالوا فيها اشياء كثيرة ، وهذه الاستعمالات هي التي حفزت الاقدمين على الكتابة في موضوع المجاز القرءاني والالفاظ الاسلامية .

وهكذا يتبين للباحث الصابر ان القرءان من مصادر اللغة الاولى التي تكشف صورة عن التاريخ اللغوي الذي انقطعت عنا حلقاته الاولى .



للاستاذ عبد السلام الهراس

الظاهرة التي اصبح يشعر بها كل واحد منا في هذه البلاد هي اننا نعيش في فراغ روحي خطيـــر ، واننا نمر ازمة روحية وفكرية غامضة لا ندري نتائجها العمياء ، وان مستوى الاخلاق يتداعى شيئا فشيئا ، والناس يساقون في حياتهم سوقا لاهداف لايتبينون فيها معالم واضحة ، ولا يحسون لها نتائج سارة ، ولهذا اصبح الشعور ينتشر ويقوى بالحاجة الـــى استعادة الفكرة التي ستعزز السلوك الاخلاقي الذي يستطيع وحده ان يجدد العلاقات الفردية والاجتماعية على نحو امتن واجمل ، وان تذكي في النفوس الشعور بالقيم والمثل العليا ، وتربط الوجدان بمعنى الواجب نحو هذه الامة التائهة .

ولا اكاد اجتمع بفرد او جماعة الا والمس ذلك لمسا ، واجد الحديث يدور حول انتقاد الهيكل الثقافي الذي بناه الاستعمار واصبح يغذيه بمراكزه الثقافية، والوسائل القوية التي يمتلكها والاجهزة الفعالة التي يتوفر عليها ، وذلك من اجل الابقاء على القيادة الفكرية والثقافية والروحية التي تتجاوب واغراضه وتسير بنا وفق رغباته ومراده ، وهذه القيادة هي التي تعمل على اعاقة النمو الطبيعي لشعب يؤمن بالاسلام ويعمل على تحسين صلته بالله وبالرجوع الى منابع الديـن الحقة والتزود منها لخلق مجتمع متحضر كفيـــل بالقضاء على اسباب المرض وبالتالي على القضـــاء على الاستعمار بجميع اشكاله والوانه ، وقطع دابره ، واجتثات عروقه ، وقتل عناصر وشروط حياته .

ولهذا كان تدمير هذا الجهاز وسحق كل معوق لنمو الشخصية المغربية ونضجها من الاهداف التـي تستدعي الاسراع بالتنفيذ ، ثم ان الضرورة تقتضي تخطيطا ثقافيا اسلاميا من اجل بناء اجتماعي متين ، وان يضعه ابناء البلاد الذين يشعرون اكثر من غيرهـــم بطبيعة المرض ، ومكامن الداء ووسائل العلاج وتلك رسالة القيادة الجديدة التي ابتدات ملامحها تبدو في الافق المغربي ، واصبحت عناصرها تتلاقى صدفة او تدبيرا لتتحمل المسؤولية الثقافية والاجتماعية عـن وعي وتبصر وايمان .

ومما يساعد مهمة تلك القيادة ان بلادنا غنية بمنابع الخير والقوة والانتاج وتتوفر على سواعد قوية، وكواهل متينة ، ونفوس صابرة ومصابرة ، وعزائـم صامدة ، وعناصر بشرية لا ينال منها الكلل ، ولايفت في عضدها ونشاطها جسامة العمل ، وضخامة الواجب ... وهنا استعداد للتطور بشكل سريع ومتقن ، وهنا نيات طيبة ، تحسن الظن بالمخلصين ، وتثق بكلمـة (الرجال) ، وهنا مزاج عقلي يؤمن بالفكرة ويعمل لها ، ويضحي في سبيلها ، ويكره الصنمية ويقاومها ، وهنا حب للوطن واعتزاز بالتاريخ ، وتمجيد للسلف الصالح، وتطلع للمستقبل الباسم ، ورغبة جامعة في القيام بدور جديد في المحيط العالمي ، يتيح لهم ان يتمموا رسالـة اجدادهم ، وان يستانفوا مهمة دينهم المعطلة في الداخل والخارج .

وهذه الظاهرة استيقظت في النفوس نتيجـة عوامل مختلفة منها افلاس تجارب سابقة حاولت ان تتنكر للماضي ، وان تزور المستقبل ، ولهذا فاني اكاد اعتقد ان هنا شبه اجماع شعبي على ان خير ما يؤلف القلوب ويوحد الاهداف ، ويلم الشعث ، ويبعث على الجد ، هو الاسلام ، تلك حقيقة اقتنع بها حتى اولئك الذين لم تتح لهم ارادتهم الضعيفة ان يطبقوا اخلاق الاسلام فــي حياتهـم ، وان كـانـوا يتظاهـرون بـه كلمـا دعـت الضـرورة لذلك ، وكان من الممكن ان يقتنعوا بغير ذلك لولا ان

تلك الحقيقة واجهتهم عند ممارسة العمل والاتصال بالاوساط الشعبية المختلفة ، ومن شعورهم بنفور المغاربة من كل دعوة لا تمت الى الدين ، ولولا (رد فعل الظهير البربري ما كانت الوطنية بتلك القوة ولعل التفسخ الذي نشاهده فى الحياة السياسية هو نتيجة لغياب (العامل الديني) .

ولكن المشكلة القائمة الان هي : كيف ستكون القيادة الجديدة التي ستقود هذا الشعب الذي اصبح اكثر ايمانا من ذي قبل بان الاسلام هو الخلاص الوحيد من قبضة الازمات الاجتماعية والانحرافات الخلقية التي ترجع اليها المسؤولية الكبرى عن الامراض المتزايدة فى مجتمعنا وعن كثير من المظاهر المؤلمة والسلوك المخجل .

اننا فى اشد الحاجة الى قيادة عقائدية ثقافية تتوفر فيها شروط الايمان والاخلاص والعفة والنزاهة والتدبير والصرامة ، والزهد والايثار ونكران الذات ، والوعي الصادق والعقل العلمي المنهجي ، واذا كانت الصين قد استطاعت أن تخلق من شعب دوخه الافيون ، وانهكه الفقر ، واعترته عوامل الانحطاط ، وتسلط عليه الاستعمار والاقطاع والظلم – اذا استطاعت ان تخلق منه قيادة مكونة من امثال سن يات سن ، وماوتسي تونج وامثالهما ، فان الشعب المغربي المسلم لمتوفر على امكانيات وخامات تستطيع ان تمدنا – لو توفرت بعض الشروط – بقيادة من طراز رفيع لا توفر اسباب السعادة لشعبها فحسب ، وانما تساهم فى اسعاد البشرية بحظ كبير .

وقد حاولت مثل هذه القيادة ان تظهر بالشرق الا أن عوامل ذاتية واخرى خارجية تعاونت على اخمادها وعرقلة دورها ، غير ان الفكرة الاسلامية التي لها الفضل فى ابراز تلك القيادات فى فترات مختلفة من التاريخ ما تزال حية ، نابضة بالقوة ، خالدة خلود الانسان ، لا تعرف الوقوف ولا الجمود ، فهي فى حركة دائبة ، تتطاير انوارها من هنا الى هنا ، ولن تعرف الرجوع الى الوراء ابدا ... لانها فكرة متجسمة مع نفسها ، منطقية مع عناصرها ، لا تحتوي على تناقض ذاتي ، او تخلف عن تزويد البشر بما يحتاجون من المبادىء الانسانية الثابتة ، والتنظيم الرائع للمجتمعات على اسس من الاستقرار والثقة والفضيلة .

واذا كان معظم تلك القيادات التي ظهرت فى الشرق قد منيت بالفشل فى بعض الميادين الرئيسية ، فان القيادة الاسلامية فى المغرب يجب ان تتجنب عوامل الفشل ، واسباب الانحراف او الاضطراب ومع ذلك يجب ان تستفيد من التجارب الناجحة لتلك القيادات التي كان لبعضها اكبر الاثر فى تحويل تاريخ المسلمين فيما بعد الحرب العالمية الثانية تحويلا افضى بهم الى كثير من التحرر والاستقلال .

وقيادتنا الجديدة يجب ان تقدر رسالتها حق قدرها ، وان تعي الدور الخطير الذي ستقوم به فى مغرب يعيش فى عصر الذرة والصاروخ ، عصر التخطيطات الاقتصادية والانظمة العلمية، والتصميمات الثقافية ، والاتجاهات الاشتراكية ، وفى قارة عذراء تتطلع لمستقبل يضمن لها الحياة الحرة الكريمة ، ولمبادىء تستلهمها فى سيرها ، وتستمد منها العون على تحقيق آمالها ، وهي تبحث عن تلك المبادىء ، وان اصحاب التيارات العقائدية فى العالم – ما عدا اصحاب الاسلام – ليحاولون ان يظفروا بتلك القارة وسلوكها فى افكارهم وثقافتهم ، وان صراعا دينيا وثقافيا يشتد يوما فيوما فى افريقيا السوداء ولعل الاوضاع المريضة والفراغ الروحي فى بعض المناطق ، وعدم وجود دعوة للفكرة الاسلامية ، يعمل كل ذلك على تهييئها لاعتناق نزعات خطيرة تهدد الفكرة الاسلامية فى القارة كلها ، ولهذا كانت القيادة الاسلامية الثقافية ليست ضرورية لانقاذ المغرب المسلم فحسب ، وانما لانقاذ افريقيا المتخلفة والمهددة باستعمار من نوع جديد واقوى .

ومن اهم ما يحقق للقيادة الجديدة النجاح – زيادة على التقوى والفطنة والكياسة والحزم – ان تتجنب الاساليب السياسية البالية التي تسرف فى الوعود ، وتمني بالحقوق ، وتخاطب الشهوات ، وتشتري الضمائر ، وتتعلق بالمظاهر ، وتكتفي بالكم دون الكيف ، وبالتكديس دون البناء ، ولهذا يجب ان تربي نفسها على الصراحة فى الحق ولو على نفسها ، وعلى العمل الجدي المتواصل الذي لا تصرفه عن اهدافه كراسي ، او تزعزع نشاطه اماني ، ويجب ان تربي المجتمع تربية جديدة اساسها القيام بالواجب وبذل الجهود ، والشعور بالمسؤولية ، وتقدير عظمة الرسالة ، تلك التربية التي كان يسلكها الرسل مع اصحابهم ، ويطبقها قادة الشعوب التي تلمع فى

الدياجي الحالكة لتخرج امميا من انحطاط الى رقي ، ونحن نشاهد ذلك فى التجربة الصينية الخارقة ، وفى الاصلاح الياباني الجبار ، لان التربية التي تقوم على التمني والتهريج ، والتبشير بالحقوق الكثيرة ، والاستزادة منها ، ومخاطبة الاغراض الخاصة هي اعظم الوسائل لتخريب كيان الهيئة القائمة ، وتدمير وجودها وتحويلها من اداة اجتماعية بناءة الى اداة هدامة مخربة ، ويتبع تلك التربية – تربية التهريج – من يريد تحقيق اغراض شخصية بحتة ، والوصول الى الحكم من اسهل طريق ، يحقق اهدافه البسيطة تلك ، وقد يصل الى غايته التي يسعى اليها ويجمد ، ولكن المشاكل الاجتماعية تظل كما هي بل تستفحل دون ان يمسها احد بسوء ، لان الامراض الاجتماعية ليست من السهولة كما يتصور اصحاب نزعة (الحكم) و (القلة) ، بل ان وجود مثل هذه النزعات فى مجتمع ما ليكون مضاعفة مرضية خطيرة اذ ان هذه النزعة غالبا ما تكون مكونة من اقزام الثقافة ، ومشوهي الضمائر ، ومتعفني الباطن ، ومستهترين بالقيم الاخلاقية ، وهكذا تتضاعف – بهم – الامراض الاجتماعية ويصبح من شروط العلاج استئصال هذا الميكروب الخطير ، وبما ان المرض قد استشرى فعملية الاستئصال فى اعظم مظاهرها يجب ان تكون تغييرا جذريا فى التركيب النفسي والثقافي ، واعادة التربية عن طريق التخلية ، ومن لم تنفع فيه تلك الطريقة فيجب ان يعالج بطريقة العزل الاجتماعي ، حتى لا يؤذي المجتمع بجذام خلقه ، وسرطان كيانه

والقيادة الاسلامية الجديدة – بما انها تنتسب الى الله يجب ان تدرك حق الادراك قيمة المصدر الذي تعتمد عليه ، واي قوة تتحدث باسمها ، فقد يستطيع الشخص ان يخدع الحاكم او الشعب – ولو الى حين – ويبدي له انه يتفانى فى حبه ويعمل من اجله ، ويسير فى طاعته ، ويستطيع ان يستغل ضعفه وغروره وغباوته فيقوم باسمه بادوار انتفاعية انتهازية ، ولكن هذا الشخص كائنا من كان لن يستطيع ان يخادع الذي يعلم السر واخفى ، فان حاول ذلك فان ربك لبالمرصاد .

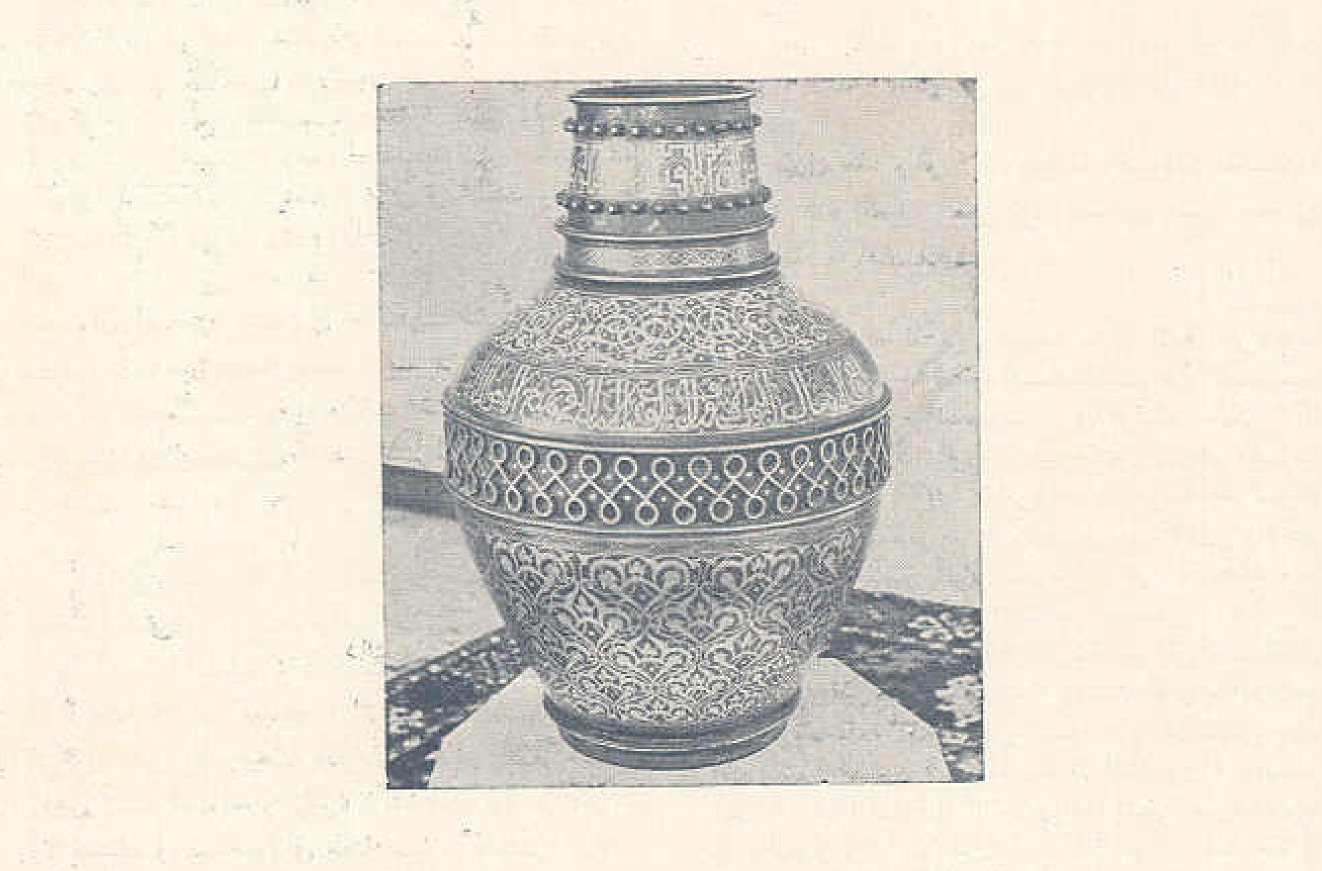
ثم ان اي اعوجاج يصيب القيادة الاسلامية فانما هو طامة كبرى ، وعرقلة خطيرة للفكرة الاسلامية ذاتها ، من ذلك ان اعداء الاسلام الذين يتربصون به شرا سيقعون على الحجة الدامغة لاعلان فشل الاسلام فى حل المشاكل الاجتماعية ، وسيهتبلونها فرصة لاذاعة الامرين بين الشاكين والمذبذبين ، مع ان الذنب فى الفشل ليس ذنب الاسلام وانما الامر يتعلق بجريمة المتنفعين به ، والمجترين باسمه . زيادة على الاثار السيئة التي سيتركه فى نفس الراجين ، والضعفاء من المؤمنين ، وسيؤخر الدعوة الاسلامية فى البلاد الافريقية مثل ما قرانا من ان بعض المسؤولين فى تركيا عرضوا الاسلام على قادة يابانيين فرد عليهم هؤلاء بانه لو كان فى الاسلام خير لانقذ المسلمين الذين يعتنقونه .

ولهذا كانت مسؤولية انصراف الناس عن الاسلام وعن مجرد التعرف عليه ليست واقعة على عاتق الاسلام بل على اولئك الذين يزعمون انهم اصحابه ، اولئك الذين اهانوا الاسلام فاهانهم الله ، وحاولوا استغلاله فاذلهم الله ، ونسوا الله فانساهم انفسهم ، اولئك الذين يقيمون الدليل تلو الآخر بسلوكهم الذي يصادم اخلاق الاسلام وعقيدة التوحيد بان الاسلام دين قد انقضى دوره فى الحياة ، وانه لا يليق بانسان متحضر ناضج قد تجاوز طور العقل الديني والعواطف الميتافزيقية ، وان كان الاسلام – فى الحق – اسمى من ان يكون ذلك الذي يشاهده السطحيون فى سلوك المجتمعات (الاسلامية) الحاضرة، واعظم من ان يكون وسيلة للطامعين ، ومطية للجبابرة المتسلطين .

ولهذا كانت رسالة القيادة الاجتماعية الجديدة لا تنحصر فقط فى الترويج للفكرة الاسلامية بوسائل المحاضرات والاذاعة ، والتمثيل والمقالة وانما اكثر من ذلك يجب ان تقيم من سلوكها القويم اعظم داعية ، للخير ، واعظم طريقة تربوية عملية ، اما الكلام والشعر والخطب ، والموعظة فقد اصبح كل ذلك عديم الجدوى ، ميت الاثر ، مسلوب النتائج .

ان مجتمعنا يجب ان يصاغ صياغة جديدة على اساس من الروح الدينية المتنورة الواعية لينقذ من التفسخ والتردي الذي يعيش فيه ، والانحلال الخلقي الذي اخذ يستشري بشكل يبعث على التشاؤم واليأس، وان هذه الصياغة لهي رسالة القيادة الجديدة ، فهل يا ترى حان الوقت لتنبثق هذه القيادة في المغرب ؟ هل ستبزغ شمس المثالية من جديد ؟ ان الارهاصات لتشير الى ذلك ، وان الشروط لتتداعى لتلتئم على ايجاد الحق وازهاق الباطل ، ولتبرز للوجود طائفة الموحدين التي على الحق ولا يضرها من خالفها ، وان النفسية المغربية الاصيلة لتتعطش لتلك القيادة لتسير بهذه الامة نحو غزوات وفتوحات ثقافية واجتماعية في افريقيا ، ولتحقق انتصارات جديدة في عالم اصبح يمقت (القوة) لانها تدفعه دفعا نحو الخراب الشامل ، وءامن او هو يحاول ان يؤمن بان خلاصه لن يكون الا بالفكرة الشاملة والقيم الاخلاقية السامية و (ان هذا القرءان يهدي للتي هي اقوم) .

فان كانت تلك الارهاصات صادقة فبشرى نزفها للمنتظرين لعهد الفضيلة ، والا فقد اقترب للناس هلاكهم بفتن تدع الحليم حيران .





للأستاذ
حسن بغدادي القادري

- 2 -

عـودا على بدء لانهاء بحثنا المنشـور بالعـدد السالف ، تحت العنوان اعلاه حول الآيات الثلاث مـن سورة الواقعة ـ وذلك قول الله عـز وجل : (انـه لقرءان كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهـرون تنزيل من رب العالمين) ـ وكيف فهمها بعض المفسرين وطائفة من الفقهاء المقلدين ، فهما لا يتفق وما عناه الله فى كتابه المبين ، وهو الساطع نوره ، تكشف اضواؤه المنبثقة من الآيات الاخرى فى اللفظ والموضوع فتزيد المعنى وضوحا واشراقا .

ان القرءان لا يتجزأ فى معانيه بتناقض او اختلاف وكثيرا ما يفسر بعضه بعضا ، فما تجد منه مجملا فى ءاية فهو مفصل فى ءاية او ءايات اخر ، وما اسهل ذلك على من يستقرىء ءايات التنزيل ويتتبعها بتدبر وامعان .

ولكن ، كيف غاب كل ذلك عن هؤلاء واولئك ؟ فذهبوا يتخبطون ويشطون عن الصواب ، مبتعدين عن الفهم القريب السليم ، بل أخذوا يتكلفون ما لا لزوم له ، فجاء تأويلهم مجحفا ، وتفسيرهم مخلا بالمعنى المراد ، اخلالا يتنزه عنه القرءان ـ وهو اعظم سفر واجل كتاب فصاحة وبلاغة ، لا يتضارب ولا يتناقض ، ولا يختلف فى مبناه ولا فى معناه ، يؤيد ءاخره اوله ، ويوافق لاحقه سابقه ، من غير انتقاض ولا اختلاف ، قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا) .

نعم ، كانت تأويلاتهم بعيدة عن فهم كتاب الله الذي (لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

نقول هذا ونكرره ، وحجتنا القرءان نفسه ، ودليلنا كلام العرب الذين نزل بلسانهم المبين وكفى بالله حجة ودليلا .

ومما يزيد المعنى وضوحا ـ فى الآية الكريمة ـ من ان المراد غير ما ذهب اليه بعضهم من الفهم والتأويل : هو عود الضمير ـ فى قوله تعالى : (لا يمسه الا المطهرون) الى (كتاب مكنون) وهو اقرب مذكور ، حسب (القاعدة المعروفة) ولا قرينة هنا تصرفه الى البعيد ، فيكون من الأسبق بل من الاولى والاحق ان يعود الضمير الى القريب وكفى . وذلك ما يتبادر الى الفهم ، فان البـاط يخصص ، والقرينة حاكمة : ان المراد من الاية الكريمة هو نفي وصول الشياطين الى هذا « الكتاب » ومسه يكون بالتلقي عن الله ، وبالاخذ والانزلاق من السماء ، وهذا الكتاب عند الله مكنون مصون « لا يمسه الا المطهرون » وهم الملائكة ، اما الشياطين الانجاس فما ينبغي لهم ذلك وما يستطيعون ، (انهم عن السمع لمعزولون) كما جاء فى ءاخر سورة الشعراء .

وعلى هذا يكون عود الضمير ــ المتقدم في الذكر ــ على (كتاب مكنون) بعيدا كل البعد لتقرير حكم من احكام الطهارة من الاحداث ــ كما ذهب اليه بعضهم ــ في مقام يقتضي الرد بالتوكيد البليغ ، والقسم العظيم المعظم من الله ، وذلك ما يتعثر به الفهم ، ولا يكاد يسيغه الذوق السليم الا بتأويل بعيد ، وتكلف شديد وهيهات .

ايها المفسرون .. ايها الفقهاء .. ان ءايات سورة الواقعة قد نزلت لتقرير امر عظيم ، ورد زعم باطل افتراه المشركون وتقولوه على الرسول الامين ، الذي هو تنزيل من رب العالمين ، وذلك من شان القرءان المكي في تقرير اثباته من عند الله ، وبيان حقيقة من حقائق النبوة ، وصدق الرسالة ، ورد مزاعم المشركين ومفترىات الملحدين ، على ان الامر لو كان المراد به في هذه الآيات نهي المحدث من الناس عن مس القرءان لكان الاسلوب غير هذا كما هو الشان في القرءان المدني لدى تقرير الاحكام ، وهي على كثرتها ما عهد فيها يمين ولا اقسام من الله كما جاء في ءايات الواقعة التي لا علاقة لها بتاتا بنهي المحدثين ــ سواء اكانوا مؤمنين ام غير مؤمنين ــ عن مس المصحف المعهود ، وهو يومئذ لم يكن تاما ولا مجموعا في كتاب ، وان يكن هناك نهي عن مسه ولو جزءا منه ــ كما يقول الفقهاء ــ فبنص الحديث الشريف ، لا بنص القرءان الكريم ، كما ياتي ذلك قريبا في هذا البحث .

وعلى هذا جرى مفسرو السلف من الائمة الهداة الثقات ، وفي طليعتهم الامام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى ، فقد اتى في تفسيره الكبير (جامع البيان) بعدة روايات لهذه الآيات الثلاث : (انه لقرءان كريم في كتاب مكنون، لا يمسه الا المطهرون) عن الصحابة والتابعين المعتمدين من اصحاب ابن عباس وغيره ، كمجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير ، وعكرمة، وجابر بن زيد ، وابي نهيك ، وابي العالية الرياحي . وعندما ختم ابن جرير هذه الروايات المتفقة كلها على ان المراد بالكتاب المكنون : هو الذي في السماء ، و (المطهرون) هم الملائكة وامثالهم من عباد الله المكرمين ــ عقب على ذلك بقوله ــ كعادته ــ مما يصح عنده ويرجحه ويختاره من الروايات ، فقال :

والصواب من القول في ذلك عندنا : ان الله جل ثناؤه اخبرنا انه لا يمس الكتاب المكنون الا المطهرون ولم يخصص بعضا دون بعض ، فالملائكة من المطهرين، والرسل والانبياء من المطهرين ، وكل من كان مطهرا من الذنوب فهو ممن استثنى .

هذا ما قاله الامام ابن جرير الطبري ، وما اتى به من الروايات من دون ان ياتي برواية واحدة ــ ولو ضعيفة ــ تقول بنهي المحدثين عن مس المصحف القرءاني ، فما السر في ذلك يا ترى ؟

اما المفسرون الآخرون ــ قديما وحديثا ــ فالكثير منهم ياتي « بالوجهين » وبعضهم ينتصر لهذا والبعض الآخر ينتصر لذاك ، حسب الاطلاع والتعمق ، او تبعا للميول الخاصة ، والتاثر بالمذاهب.

على انه قليل ــ وقليل جدا ــ من اقتصر منهم على ان النهي في الآية يراد به الخبر ، وان « الكتاب المكنون » هو القرءان نفسه ، « والمطهرون » هم المتطهرون من الاحداث ، كما قاله جلال الدين المحلى في التفسير المشهور بالجلالين ، وهو التفسير المتداول بين عموم القاصرين ، ويكاد يكون عند هؤلاء هو الحجة القاطعة ، والقول الفصل .

وماذا عسانا ان نقول في اقتصار هؤلاء على هذا الوجه القاصر ، فهل كان ذلك اختصارا ؟ وتبعا للمذهب الخاص ؟ ــ كما ذهب اليه بعض من الف في احكام القرءان ــ قد يكون هذا او ذاك ، مجتمعين او منفردين .

ولك ــ ايها القارىء الكريم ــ ان تراجع ذلك بامعان وانصاف ــ متجردا من كل تاثر ــ وقابله بما اتى به الامام ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير ، وما ساقه الامام ابن حزم من الادلة والشواهد والردود في كتابه القيم « المحلى » فانك تقف على فوائد جليلة وعلم غزير .

وانظر ــ كذلك ــ فيما روي عن قتادة في ءاية « لا يمسه الا المطهرون » انه قال : ذاكم عند رب العالمين « لا يمسه الا المطهرون » من الملائكة ، فاما عندكم فيمسه المشرك النجس ، والمنافق الرجس .

وقد روي عن الامام مالك رحمه الله ، انه قال احسن ما سمعت في الآية « لا يمسه الا المطهرون » انها

بمنزلة الآية ـ فى سورة عبس ـ (فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدي سفرة كرام بررة)

وهذا النوع من تفسير القرءان بالقرءان هو اجل تفسير ، وابلغ بيان ، باتفاق جميع العلماء .

وكذلك هذه الآية من سورة الواقعة (انه لقرءان كريم ، فى كتاب مكنون) هي بالضبط نظير قوله تعالى فى سورة البروج (بل هو قرءان مجيد فى لوح محفوظ)

فالآيتان متشابهتان فى اللفظ والمعنى ف (قرءان كريم) هنا ، مثل قوله (قرءان مجيد) هنا و (فى كتاب مكنون) مثيله : فى لوح محفوظ ، سواء بسواء ، فكل واحدة من الآيتين تفسير للاخرى تماما وكمالا من غير تناقض ولا اختلاف .

وخلاصة القول : ان (سورة الواقعة) هي فى الواقع نزلت لامر هام اهم من تقرير حكم يطلب شيء او تركه، وقد ساقها الله تنزيها للقرءان ان تتنزل به الشياطين ، وردا لافتراء المبطلين من اهل الشرك والالحاد ، فجاء سبحانه وتعالى بالقسم العظيم : ان هذا القرءان لكريم ، وان محله لفي اعلى عليين ، لا يصل اليه ولا يمسه الا المطهرون من عباد الله المكرمين . فيستحيل على اخابث خلق الله وانجسهم ان يصلوا اليه فضلا عن انيمسوه او يتنزلوا به (ومايتبغيلهموما يستطيعون) كما جاء فى ءاخر سورة الشعراء وما ورد فى اول سورة الزخرف من قوله تعالى : (انا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه فى ام الكتاب لدينا لعلي حكيم) وكذلك فى سورة عبس : (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدي سفرة كرام بررة) فوصفه تعالى ومحله بهذه الصفات بيانا ، ان الشيطان لا يمكنه ان يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى اهم واجل وانفع من بيان كون المصحف لا يمسه الا طاهر ، وانه ابلغ فى الرد على المكذبين ، وابلغ فى تعظيم القرءان من كون المصحف لا يمسه الا طاهر .

وزيادة على ذلك : فان قوله تعالى : (لا يمسه) (برفع السين) هو خبر لفظا ومعنى ، ولو كان نهيا لكان منصوبا (شان المضارع المضاعف) ومن حمل الآية على النهي ، احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره الى معنى النهي ، والاصل فى الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته ، وليس هنا ما يوجب صرف الكلام عن الخبر الى النهي .

وهناك نظرة اخرى فى المستثنى حيث قال تعالى: (الا المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء المفتوحة (اسم مفعول) ـ ولو اراد به منع المحدث من مس المصحف لقال (الا المتطهرون) ـ (اسم فاعل) ـ كما قال ـ فى سورة البقرة ـ : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وفى الحديث (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) فالمتطهر فاعل التطهير والمطهر الذي طهره غيره ، فالمتوضيء متطهر والملائكة مطهرون .

وهناك ـ ايضا ـ وجه ءاخر من الوجوه المرجحة فيما ذهب اليه المحققون ، وذلك انه لو اريد به المصحف الذي بايدينا لم يكن فى الاخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة ، اذ مجرد كون الكلام مكنونا فى كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرءان بكونه مكنونا فى كتاب ، وهذا امر مشترك ، والآية انما سيقت لبيان مدحه وتشريفه وما اختص به من الخصائص التي تدل على انه منزل من عند الله ، وانه محفوظ مصون لا يصل اليه شيطان بوجه ما ولا يمس محله الا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة .

وعليه ، فبحسب هذه الوجوه المقررة ، وما اتينا به من الدلائل قبل ، يتضح المعنى لمن يتدبره بادراك حر ، وفهم نزيه ـ بعيد عن التقليد والتعصب الذي يحجب الفهم ويغلق باب الادراك ـ انه لا دليل من الآية الكريمة على مس المصحف كما هو السائد الشائع عند اكثر الناس ، فان الآية فى ناحية ، وفهم المقلدين فى ناحية اخرى ، وان ما يذهب اليه بعضهم من كتابة قوله تعالى ـ على جلدة المصحف الشريف ـ بارزة او مزخرفة ـ هم فى ذلك مخطئون كل الخطا ، ولا دليل لهم من الآية الا التقليد .

على انهم لو رجعوا الى السنة لوجدوا بها الذي يطلبون ، فقد روى اصحاب السنن من حديث الزهري عن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن ابيه عن جده ان فى الكتاب الذي كتبه النبي (ص) الى اهل اليمن فى السنن والفرائض والديانات) الا يمس القرءان الا طاهر) وقد رجح العلماء صحة ما رواه ابن حبان فى صحيحه ومالك فى الموطا ، ثم الآثار بعد ذلك كثيرة .

وقد يعجبني ما قرره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ان الاستدلال بالآية على ان المصحف لا يمسه المحدث بوجه ءاخر ، فقال : هذا باب من التنزيه والاشارة ، اذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها الا المطهرون ، فكذلك الصحف التي بايدينا من القرءان لا ينبغي ان يمسها الا طاهر ، والحديث مشتق من الآية .

هذا ، وقد يقول قائل : ما قولك في الرواية التي تحكي عن اسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين دخل على اخته وزوجها مقتحما عليهما الباب وهو في غضب وهيجان لاسلامهما ـ او صبئهما كما يقول المشركون ، ومنهم عمر قبل اسلامه وقد وجدهما يقرءان في صحيفة (سورة طه) فقال لاخته ناوليني الصحيفة ، فاجابته : انك مشرك نجس ، والقرءان لا يمسه الا المطهرون ، فامتثل عمر وتوضا .

اقول : الله اعلم بثبوت هذه الرواية ـ او بصحة بعض ما جاء فيها ـ وفي نفسي منها شيء ، منها امتثال عمر ولينه لقول اخته ـ بهذه السهولة ـ واستجابته لامرها فيغتسل فورا ليقرا هذه الصحيفة وهو لا يزال باقيا على شركه وعناده ، وفي ذلك ما يخالف المعهود من طبع عمر ، وشدة بأسه ومراسه ، واذا سلمنا ان الله عندما اراد هدايته ، الان قلبه واسلس قياده .

فما قول سادتنا الفقهاء في صحة طهارة الكافر المشرك ؟ هل تصح منه الطهارة ؟ او هي مشروطة بالايمان والدخول في الاسلام او لا ؟ ليصح منه الغسل او غيره من انواع العبادات .

وعلى تقدير ثبوت هذه الرواية ـ بكل ما جاء فيها ـ وبصحة هذا الحكم ـ فهناك شيء يتعارض معها . وهو مكتوب النبي (ص) الذي بعث به مع دحية الى هرقل عظيم الروم ، وفيه شيء من القرءان ، والمبعوث اليهم نصارى ، والنبي (ص) يتيقن انهم يمسونه من غير طهارة .

وشيء ءاخر ان هناك رواية ـ لم اتمكن من صحتها بعد ـ تقول : ان الآية (لا يمسه الا المطهرون) وهي من سورة الواقعة ـ قد نزلت بعد سورة طه في رواية جابر بن زيد التابعي المشهور ـ وهو ثقة جليل ، وقد جاء ذلك في تحقيق الامام ابراهيم البقاعي في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » مخطوط .

وكذلك قول اخت عمر له : (انك مشرك نجس) وهذا ما عرف ـ بين المسلمين ـ الا بعد الهجرة وفي ءاخر ما نزل من القرءان في سورة براءة : (انما المشركون نجس) فليتأمل المتأملون .

وعليه ، فاذا تحقق لديك هذا ادركت الصواب من القول ، والراجح من الوجوه المذكورة ، وما بعد البيان الالهي من بيان (ان في ذلك لذكرى لاولى الالباب) ومن يتدبر كلام الله ويعتصم به (فقد هدى الى صراط مستقيم) نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء .

وختاما ـ نضع هذا ـ وكل ما ذكر قبله ـ في هذا البحث من اوله ـ تحت اضواء الكتاب والسنة وبلاغة العرب ـ امام اخواننا العلماء المتضلعين من علوم القرءان والحديث ، متشوقين الى زيادة ما عندهم من تحقيق او مراجعة في الموضوع بكل ما له او عليه مع كامل القبول ومزيد الترحيب ، تنويرا للاذهان ، وخدمة للحقيقة المنشودة التي هي ضالة الجميع ، وفق الله واعان .

والى اللقاء في بحث ءاخر ان شاء الله .

يتبع

التلقائية في انتشار الاسلام

للاستاذ رشيد نجار

- 2 -

فـي الحديث السابق عالجنا باجمال بعض المظاهر والمراحل الهامة فى تطور انتشار الاسلام تلقائيا، وعرفنا بشكل مجمل ايضا كيف ان هذه التلقائية قد توقفت نسبيا فى الاعصر الاخيرة ، بعد ان كانت حركة واسعة النطاق ، ادت الى نتائج باهرة ستظل خالدة فى تاريخ التطور الانساني .

لقد تبت لي من خلال ملاحظة تعداد السكان فى جزر الهند الشرقية مثلا او جنوب ءاسيا بشكل عام ، ان حركة التلقائية فى الاسلام قد كسبت كثيرا من الكتل البشرية ، بعد ان توقف سيل الاسلام ، ولا شك ان لهذه الظاهرة علاقة بالروح السلمية التي جاء بها الاسلام من جهة ، وروح المسالمة التي تمتاز بالتشبث بها شعوب ءاسيا الهادئة من جهة اخرى ، وبودي ان اتعرض لبعض الظواهر التي اعتقد انها ستفسر ولو بعض الشيء الاضطراب والتوقف احيانا فى انتشار الاسلام ، بالاضافة الى ركود هذا الاشراق والاشعاع الروحي فى الدعوة الاسلامية داخل الاقطار العربية على الخصوص : هذا الركود الذي يجب ان نحاربه باعصاب هادئة وقلوب مؤمنة ، لان الحقيقة الساطعة هي ان فاقد الشيء لا يعطيه كما يقال .

والعالم العربي هو الذي كان المركز الاول لاشعاع الاسلام بلا مراء لا لانه يحتكر الدعوة الاسلامية التي جاءت هديا للعالمين ، بل لان هناك عاملا اساسيا لا يمكن التغاضي عنه فى امور الديانات والدعوات او فى نشاة الامم بصفة اعم ، ذلك هو عامل اللغة ، واللغة العربية هي التي تلقت احكام الاسلام فى نصوص بلغة واضحة يعجز عن مثلها حتى العرب الفصحاء انفسهم ، وهو مضرب المثل فى الفصحاء ، وهذا يعني ان طالب القوة والوضوح فى الدعوة الاسلامية لابد له من تعمق العربية ، او الاخذ منها بنصيب وافر .

وفى اعتقادي ان اهم الظواهر فى توقف حركة التلقائية ، او روح الاشعاع الاسلامية ترجع فى اساسها الى حالة المسلمين من جهة ، ثم الى تقهقر اللغة العربية من جهة ثانية ، وعجزها عن متابعة الدعوة الاسلامية ومصاحبتها الى الاقطار النائية ، واخيرا الى طغيان الحركات الاروبية الاستعمارية وما صاحبها من مذاهب وحركات وافكار منحرفة ، وفى مقدمة تلك المذاهب او الحركات نجد المذاهب المسيحية او حركات التبشير ، وهي التي وطدت للقوات الاستعمارية المادية والفكرية بجميع مظاهرها ، وهنا ايضا نلاحظ الاساس الاول فى نجاح تلك الحركات ، فاللغات الاروبية التي انتشرت بين الشعوب المستعمرة وانشات بينها وبين الدول المستعمرة نوعا من الرابطة الضرورية او الاجبارية ، منحتها اسلحة حادة ستظل الشعوب المستعمرة تعاني من سمومها اجيالا طويلة .

حالة المسلمين : كانت اهم نقط الارتكاز للاستعمار الاروبي الحديث بالنسبة للشعوب الاسلامية ثلاثة : اولها السيطرة على جزر الهند الشرقية منذ بداية القرن السابع عشر من قبل هولاندا ، وذلك بعد السيطرة الاقتصادية التي قامت بها شركة الهند الشرقية الهولاندية منذ سنة 1609 ، اما نقطة الارتكاز الثانية فكانت بلاد الهند حيث تاسست بها ايضا شركة الهند الشرقية البريطانية سنة 1600 ، وعملت على السيطرة على جميع مقدرات وامكانيات البلاد اقتصاديا ، ثم انتهت العملية باحتلال الهند سياسيا ، وتم ذلك رسميا فى سنة 1857 ، وكانت نقطة الارتكاز الثالثة للاستعمار هي محاولة النزول فى افريقيا : ولما فشلت حركة السيطرة على مصر فى حملة نابليون اتجهت انظار الاستعماريين فى فرنسا الى الجزائر التي تم لهم النزول فيها منذ سنة 1380 ، وبعد مقاومة عنيفة من طرف الشعب

الجزائري دامت نحو العقدين من السنين استطاع المستعمرون احتلال البلاد الجزائرية حتى اعماق الصحراء وذلك سنة 1857 .

وهكذا ظلت حركات التسرب الاستعمارية مستمرة طيلة القرن التاسع عشر في افريقيا وءاسيا وعلى الرغم من محاولات البرتغاليين احتلال الشواطىء المغربية فقد وقف الشعب المغربي ، وكان وحده في المعركة ، ان يرد كيد الغزاة ، لكن الضربات المتوالية من قبل الاسبان ثم الفرنسيين ادت الى انهاك قوى البلاد والزج بها في حالة مزرية من الفوضى والاضطراب انتهت باحتلالها واقتسامها من طرف الدول الكبيرة المستعمرة .

وكذلك مرت بالتجربة كل الاقطار الاسلامية في الربع الاخير من القرن الماضي حسب التسلسل المعروف لدى الجميع ، وكانت الظاهرة الهامة في هذا الاحتلال هي التجزئة لتلك الغنائم ، واخذ الاقاليم او المناطق الاسلامية كل على انفراد مما سهل مهمة المستعمرين المقامرين .

لكن هذا التدهور السياسي للعالم الاسلامي لم يكن نتيجة بلا سبب ، فقد حلت بهم الكارثة حين تفرقوا في المذاهب ، وحين انقسموا شيعا في النواحي الفكرية والفلسفية ، ثم حين عجز الفكر الاسلامي عن مسايرة التطور في البحث فجمدت القرائح واغلق باب الاجتهاد واقفلت ابوابه حيث لم يعد هناك من هو في استطاعته ان يبحث ويحقق في الدين ويأتي بجديد ، هذا الجمود في التفكير ، صاحبته ايضا روح التواكل والقدرية مما ادى الى التشبث بالقشور وترك اللباب وهو الذي عمت به البلوى حيث سمح للجهل ان يتفشى في جميع اقطار الاسلام بلااستثناء . الامر الذي ادى بدوره الى انتشار الخرافة والفوضى الدينية التي لا تزال الدعوة الاسلامية تعاني منه في كثير ن اجزاء الوطن الاسلامي .

وهكذا وقع الاختلال في الحياة الاجتماعية للبلاد
الاسلام ة التي كانت مصدر الاشعاع ، لقد اختل
التوازن بـ ن هدف الدعوة الاسلامية وبين الوضعية
الاجتماعية ، ذلك ان الاسلام دين القوة بكل مظاهرها دين النظر في الكون دين البحث والقلم ، دين الثقافة والوعي الانساني ، لا دين الخرافة والسطحية .

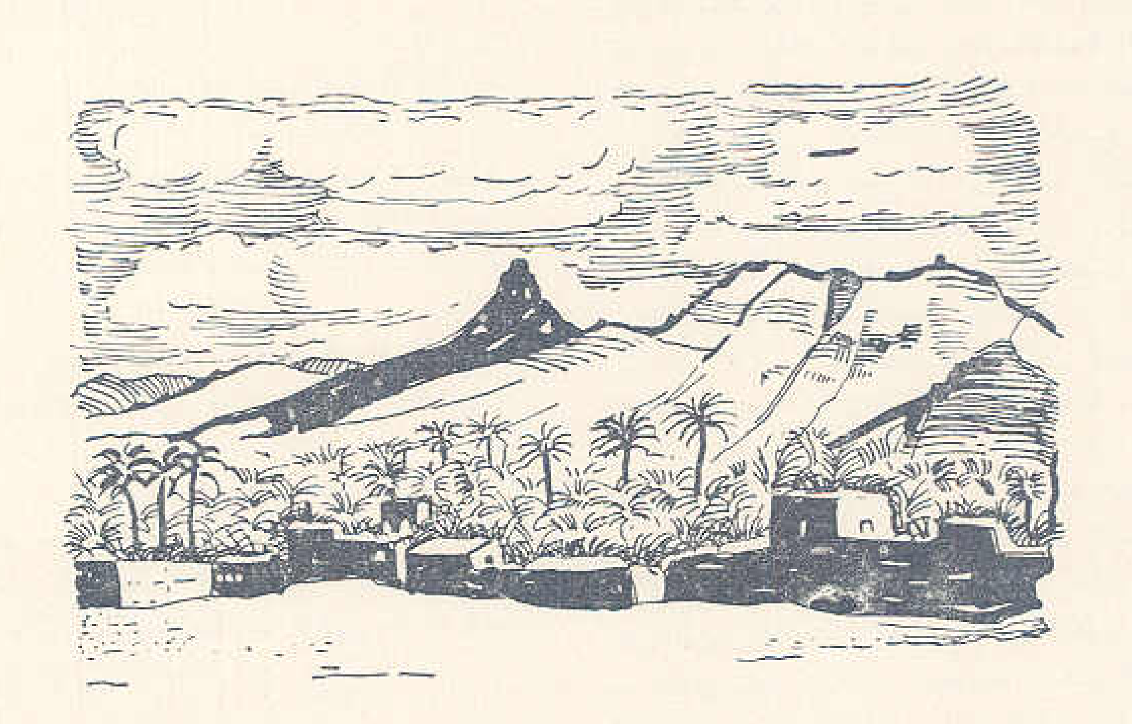
لقد كانت الدعوة الاسلامية في العصور الاسلامية الزاهرة تنتمي ، لمدة قرون ، الى دولة قوية ذات فعالية بمجتمعها الحي اليقظ ، وذات تاثير هام في حركة التقدم الانساني ، وقد اتضح ذلك على الخصوص في عهد الامبراطوريةالعربية ، ثم العباسية ، ثم بعد قيام الدويلات الاسلامية في الشرق والمغرب حتى منتصف القرن الثامن الهجري .

ومهما كان تاثير الانقسامات السياسية التي فتتت وحدة الامبراطورية الاسلامية بعد العباسيين فان تلك الدويلات كانت في الواقع تتنافس على الحكم وعلى العمل الجدي من اجل التقدم الحضاري ، كان تنافسها في صالح خدمة العلوم المعروفة ءانذاك واستجلاب العلماء الافذاذ والادباء الفطاحل واكرامهم والافتخار بهم ، وكان ذلك عاملا من العوامل المشجعة لروح النشاط والوعي ولقوة العالم الاسلامي لكن الخلافات المذهبيةقد ادت الى نوعمن القطيعة والتنافر الشديد بين الطوائف الاسلامية وطالت تلك الخلافات وتشعبت منذ القرن السابع والثامن ، فاصبح هناك فقهاء ، وفلاسفة ، ومتصوفة ، الى جانب الشيعة واصحاب السنة ، واهل الراي والمحدثين ، وكل طائفة عن هذه انقسمت على نفسها فذهب المسلمون شيعا متناحرة ، وكان لهذه الانقسامات الفكرية والعقائدية الى جانب الانقسامات السياسية ، كان لذلك كله ءاثار سيئة بعيدة المدى في الرابطة الاسلامية فحل الضعف والانحلال في معاقل الاسلام وفي تلك الاثناء خلال القرن السابع قام بعض علماء الاسلام يدعون الى الوحدة والتسامح والبعد عن التناحر ثم الرجوع الى الدين الصحيح الصافي في اصوله ومنابعه الاولى وهي القرءان والسنة ، كان زعيم هذه الحركة هو ابن تيمية ومن بعده ابن القيم الجوزية صاحب الارجوزة المشهورة ، لكن الواقع هو ان الكارثة حلت ولا محيص عنها ، فقد توجه ابن تيمية الى جميع الطوائف المتناحرة فلم يجد منها طائفةتريد ان تسير على صواب،

بل كل يسفه الاخر وينتقده ويصمه حتى بالكفر ، وهكذا اتهم المصلح الكبير ابن تيمية بالخروج عن الجادة ، لانه لم يترك احدا لم يهاجمه ، فكاد له الجميع ، وانتهى امره الى السجن حتى مات .

هذه هي الحال المزرية التي حلت بالمسلمين وادت الى طمس معالم الدعوة الاسلامية : انقسامات في الميدان السياسي ، وانشقاق في الناحية الفكرية ، وجمود بعد ذلك في التفكير فكان لابد من ان تتوقف تلك الاشعاعات الروحية الخالدة التي عرفتها الدعوة الاسلامية فيما قبل ، لكن هناك عامل اهم من كل ذلك قد ادى الى سيطرة العجمة والجهل في الاقطار الاسلامية ولاسيما العالم العربي، وذلك هو التاخر المخزي الذي حل بلغة القرءان على عهد الخلفاء العثمانيين ، فما هي اسباب ذلك ؟ وما هي نتائجه المباشرة على الدعوة الاسلامية ؟

ذلك ما سنراه في البحث القادم عن اللغة العربية وتخلفها عن مصاحبة الدعوة الاسلامية ، ثم ضغط اللغات المسيحية الاوروبية واثره في الصراع بين المسيحية والاسلام .





كــان سقراط يدعو معاصريه الى التأمل الصحيح ، في ذاتهم ، لكي يشعروا ، في اعماقهم ، بما هو انساني توعي عند كل شخص . ومنذ ذاك ، اصبحت ، ولا زالت ، مشكلة معرفة الذات ، المشكلة الرئيسية في الفلسفة المدرسية ، وصار ، ولا زال ، المنهج التأملي اداة هذه المعرفة . بيد ان الفلسفة اكتسبت ، عقب ذلك ، غنى ، بسبب ظهور مشاكل جديدة ، فكان لزاما ، اذن ، تجديد منهج البحث الفلسفي . نتجت هذه الانقلابات ، بطريقة مباشرة ، وحتمية ، عن الكثافة الجديدة التي يكتسبها مدلول « شخص » دونما انقطاع ، في الحقل التشريعي (قانونيا وسياسيا) وفي الحقل الفلسفي الانساني العام .

ان الشخص لا يعرف ، كما حاول ءاخرون ان يعرفوه ؛ بالتيار الحيوي ، ولكن الحركة الهدفية التي تجعله دائما مقدما عليها ، هي المحددة له . فالبنية الوظيفية ، لكل شخصية ، تخضع لقابلياتها وامكانياتها ، كما تخضع للمواقف والحاجات ، واخيرا للبيئة . ان احصاء مجموع هذه العوامل ينحصر في التحديدات الحالية ، في فترة معينة من الحركة المشخصة . فمن وجهة السيكولوجيا المجتمعية ، لا توجد تحديدات اخرى غير السابقة . يقول جيوم : « لا يمكن القيام باية دراسة واقعية ، لنمو الشخصية ، الا اذا اعتبرنا الوسط الذي يجب على الطفل ان ينسجم فيه . لكن الوسط المجتمعي على الخصوص ، هو الذي غالبا ما يجعل الانسان امام المشاكل الاكثر تعقيدا وصعوبة » (*) . فالفيلسوف الميتافيزيقي لا يقف عند حدود المشكل السهل ، الحاضر وعند حدود المظاهر البسيطة القابلة للتغيرات ، الا ليجاوزها . انه لا يقف عند الاشياء المقنعة الا ليثب من مستواها الى مستوى ما لم يلبس القناع بعد . هكذا يفعل بالنسبة للكائن البشري . يرتفع من الشخص المحرر من العوائد ، وضغط رقابة المجتمع ليصل الى الانسان . لا يجوز لنا ان نقول ، بان الشخص ليس الا شخصية ازيل عنها القناع ، ما دام الشخص صيرورة تطغى على كل تحديد ، لما لها من غنى وامكانيات ، انها ترمي الى تحقيق الانسان ، كما يرمي جهاز ما الى تحقيق حالة توازنه ، الشخص هو الممكن في توتر نحو اللانهائية . فمحاولة تعريف الشخص ، بالنسبة الى الشخصية ، محاولة تحدد من ديناميته ومن امكانياته ، وتجمده في مراحله الاولى . لقد وصف (لاورانس) الصعوبات التي نلاقيها حينما نريد أن نتخلى عن شخصية لنتظاهر بشخصية اخرى . فلننصت اليه يحدثنا عن تجربته في هذا الموضوع : « حينما صرت اعيش بزي العرب ، واتكيف في قالب ذهنيتهم ، شعرت بان شخصيتي الانجليزية انتزعت مني : هكذا استطعت ان اشاهد الغرب وعاداته بعيون جديدة ، كأني صرت منفصلا عن الغرب كامل الانفصال . لكن ، كيف السبيل الى اكتساب ما يجعلني عربيا ؟ لم تكن محاولاتي الا تصنعا محضا . انه من السهل ان يضيع لشخص ايمانه ، ولكنه من العسير ، بعد ذلك ، ان يصل الى ايمان جديد . فكوني تخليت عن شكل دون أن اكتسب شكلا جديدا افقدني كل استقرار . . » (*)

* * *

الشخصية هي المنتهى المشترك لظاهرات تتعلق بالسيكولوجيا الفردية ، وبالسيكولوجيا المجتمعية

---

* L. Guillaume, La psychologie de l'enfant, p. 52

* T. E. Lawrence, **Les sept piliers de la sagesse,** p. 43.

داخـــل مجمـوعـــة مـن الشـروط اللازمـــة للسلوك ، ازاء المواقف الحاليـة .

ينطبق هذا التعريف على الناحية من الانا التي لها من بعض الوجوه وحدة واستقرار يشبهان الوحدة والاستقرار اللذين نطلقهما على الموضوعات . ويصبح هذا التعريف غير صالح بمجرد ما يريد ان يدخل فيه ما ليس **هنا ــ الآن** ، ويجاوز «الحاضر» ، اي كل ما لا يمكن ان يتصف بـ « الحضـور » حـالا او استقبالا) لانه دائما يحيا ، **سابقا** على حاضـره اي يحيا في المستقبل . فللطالب ، مثلا ، شخصية حالية ، هي الشخصية المحددة في ورقة هويته ، والتي تملأ حقل وعيه في **« الآن »** . بيد ان الطالب يشعر بتوتر داخلي ، اي بقوة تدفعه الى « الشخصية » التـي يرمي لان يصبحهـا ، وهـذه **الشخصية ــ النزوع** ليست حدا نهائيا ، فمن الممكن تجاوزها ، لان امكانيات الطالب لا تعطى ، برمتها ، دفعـة واحدة ، انها تبـرز حسب تتابع تصاعدي ، كسلسلة من الشخصيـات يمكن تصورها . من الجائز ان تنضب امكانيات الطالب، فيبقى دون ما كان يصبو اليـه ، على أن الشخصيـة التي يرمي اليها غاية ، بالنسبة للوضع الحالي ، ولـو استحال تحقيقها في المستقبل .

اذا صح ما تقدم ، جاز ان نقـول بان الشخـص ليس بشخصية واحدة ، ولكنه عدة شخصيات ، فهو في كل فترة من حياته ، **ما لم يكن من قبل** ، وسيصير **ما لم يكن ابدا** . ذلك أن الامكانيات تستطيع ان تذهب الى ابعد مما يتوقع منها ، كما ان التشخيص يمكـن ان يتخذ سرعة تتعدى نزوع البداية . ولنضرب لذلك مثلا : (باستور) حينما كان طالبا ، عوضا من ان ينغلق على ذاته ، فينحصر تشخصنه في النزوع الى شخصية استاذ ، دفعته امكانياته الى مرحلة اصبـح معهـا ، يشعر انه ملك لمجموع البشريـة ، لا لذاته فحسب. ويقال مثل هذا عن اعلام الانسانيـة ، مثـل طاليـس وابن سينا .. فقوة التفتح التي اكدت شخصيتهـم وفرضتها ، جعلتهم ملتزميـن بالعمل على تحقيـق اهداف تتعدى نطاق اشخاصهم ونزوعاتهم الاولية . فالفعل الذي يؤكد وجود الشخص ويفرضه ، هونفس الفعل الذي يفتح له مجال التعالي . كـل نشـاط نقوم به ، يحدث تغيرا فينا . كانت (مـاري كوري) ، وهي ما تزال طالبة ، تصبو الـى أن تصير استاذة ، ولكن تشخصنها ذهب بها الى ابعد مما كان يخطـر ببالها ، فقامت ببحوث خطيرة لتقـدم العلم ، ولصالح الانسـانية . فاحترقت اصابعها وتعرضت لاخطـار اخرى ، ولكن ذلك لم يحـدث اي فتور في عزيمتهـا : فالتفاني ، في خدمة العلم ، يحدث حماسا لايضاهى ، ينسى معه العالم ذاته ، كالفناء الذي يدعيه الصوفية، فيصبح الباحث او الفنان في عالم يتعدى حدود الاسرة والوطن وتمتزج نزوعاته في الحياة باهداف الانسانيـة جمعاء : اسرته هي البشرية ، ووطنـه هو المخبر ، لقد جاوز مستوى الشخص ، وحقق الانسان .

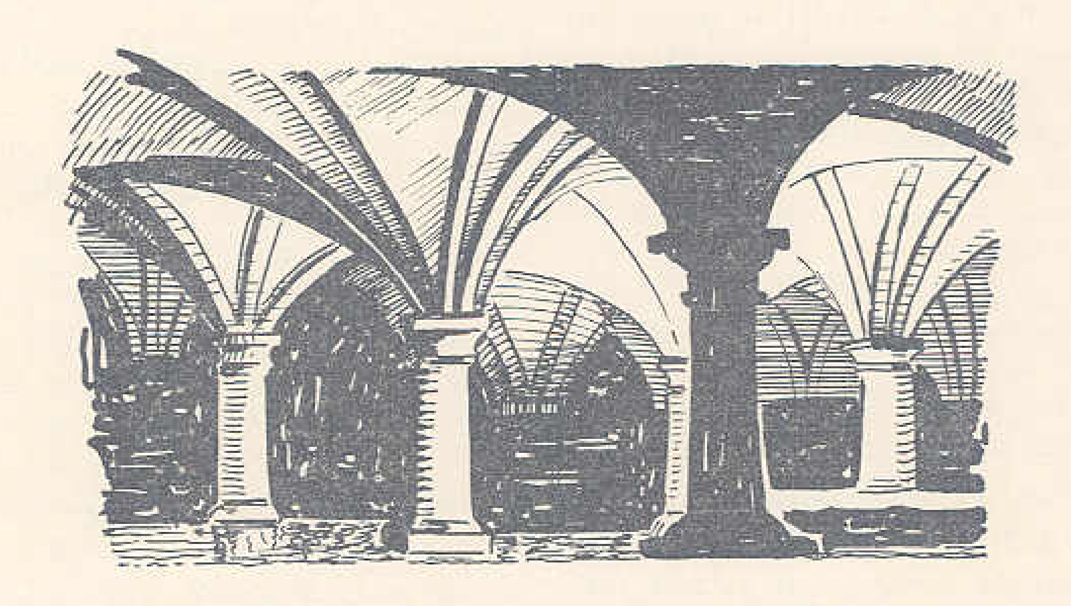
في هذه المرحلة ، ينفصل الانـا عـن الانانية ، فيندمج مصيره في مصير النوع البشري ، مما يكسبه ثروة وحرية لا حـد لهما . فالشخـص لا يكتمـل في الانسان ، الا بقدر ما يشعر انه هو مجموع الآخرين ؛ يتكون الشخص ابتداء من شخصيات ، وكل شخصية لا تتاكد الا باستنادها على الارادة والنشاط : النشاط يظهر الارادة ، والارادة تخلق في الوعي الاثارات الاولية التي تطبعه بطابع الحيوية ، فلقد كان الرواقيون على صواب بحصرهم كل الشخصية في الفعل الارادي .

فالشخص ، على هذا ، سلسلة مـن الافعـال الاداريـة ، اختلط بعضهـا ببعض ورممها مجهـود وحد بين مراحل الحياة المتابعة ، كما وحد بين الاهواء المديدة ، والاشارات والفعاليات الماضية ، وبيـن الوانها العاطفية ، وتجارب النجاح والفشل ، والاهداف المختلفة التي يرمي اليها الانا . كل هذا يتضامن مـع نزوعات حالية ، يلتزم فيهـا «الآن» و « البعـد » . فالتشخصـن ، اذن ، « حاضر » في **مجموع** الميادين ، وليس في اي ميدان .

هكذا ، ليست **الشخصية** الا فترة من التشخصن، تزمن في الحال ، الكائن البشري . وعلى عكس ذلك ، ان **الشخص** ، قبل كل شيء ، هو كل الشخصيـة الحالية ، بما فيها من ماض ونزوعـات للمستقبـل : انه مجموعة شخصيـات . لكن كل شخصية حالية شيء مستغرب ، اي مشكلة . ذلك ان كل شخصيـة ، مـن حيث انها فتـرة مـن فتـرات الشخـص ، ليست مسلكا تمر به الحركة المشخصنة ، وليست بالحـد الاخير ، ان كل لحظة من حياتنا توازي النزوع الذي نعمل على تحقيقه ، اي الطاقـة الحيوية لوجودنا . بيد ان اللحظة ، هي ايضا ، مشكلة كما تفطنت لذلك

الفلسفة المدرسية : فاللحظة موجودة ، وغير موجودة في ءان واحد ، فهي من هذه الوجهة ، تماثل النقطة في الهندسة ، توجد النقطة ، ما دمنا نتحدث عنها ، وما دمنا نرسمها على الورقة وعلى السبورة ، ولا وجود لها ، اذ انها لا تخضع لاي وضع من الاوضاع ، اللحظة تنطبق تماما مع الشخصية ، نقول « هذه اللحظة » كأننا نتكلم عن موجود ، ولكننا لما ننتهي من الكلام عنها حتى تكون قد انعدمت . فالفاصل بين الوجود والعدم ، غير ثابت ، ولا محسوس ، ولا دقيق. فالماضي **ما لم يبق** ، انه **ما** قد كان . لقد اصطدم (برجسون) بمشكل اللحظة ، وعبر عنها معتمدا على ما كان له من نظريات حول الماضي . اللحظة في نظره ، هي في نفس الوقت ، ما يقوم ، حاليا ، بنشاط ، وما تجرد ، نهائيا ، عن النشاط ، انها تحيا ، وعند الاونة التي تحيا فيها ، تكون قد جاوزت حياتها وبما ان فلسفة برجسون ، فلسفة التطور والحركة ، فالديمومة لا تقبل الا استرسال المطلق . فالكائن ملقى ، في تتابع لحظات ، يجاوز بعضها البعض ، دون انقطاع. من هنا انقلبت مشكلة اللحظة الى مشاكل التتابع ، ففي داخل الشخص ، تمتد الشخصيات وتسترسل ما دام كل شخص يحمل ، في صميمه ، كل الشخصيات الممكنة ، ويحتفظ بمجموع الشخصيات الماضية ، فلنفرض اننا نستطيع ان نرجع القهقهرى في تاريخ شخص لنكشف عما انتجته صيرورته من شخصيات ، فشخصيته الحالية ستكون الحلقة الاولى في سلسلة مراحل التشخيص ، تنقلنا من شخصية لاخرى ، حتى نصل الى نقطة البداية ، اي اللحظة التي ليس وراءها شيء ، اللحظة التي ظهر فيها الكائن الخام ، لقد صدق (وليام جيمس) في قوله ، ان الذي يملك الانا الاخير : يملك كذلك الانا الذي قبل الاخير ، اذ ان الذي يملك المالك يملك المملوك » (*)

* W. James, **Précis de psychologie,** p. 265 (2e édition de la trad. fr., Paris, 1910).



الالتزام الفكري بين الواقعيين والمثاليين

بقلم الاستاذ المهدي البرجالي

كانت سنة 1956 بداية القصة المثيرة التي استأثرت باهتمام الاوساط السياسية والادبية في العالم ردحا طويلا من الدهر ، وربما لا تزال لها فصول لم تفض الى نهايتها بعد ، كان ذلك يوم ان استطاع الكاتب الروسي الكبير (بوريس باستيرناك) ان (يهرب) روايته الشهيرة (الدكتور جيفاكو) خارج الاتحاد السوفياتي بواسطة احد الصحفيين الايطاليين، ويضعها بين يدي احد كبار الناشرين (السيد فلترينيللي) في ايطاليا ، البلد الغربي العريق ، والعضو الهام المرموق في منظمة حلف الشمال الاطلسي .

وبلغت الازمة التي احدثها « باسترناك » اوجها سنة 1958 وذلك حينما « تطوعت » الاكاديمية السويدية بمنح جائزة « نوبل » للكاتب الكبير كتقدير عالمي رائع لروايته التي كان قد رفض نشرها من قبل اتحاد الكتاب السوفياتيين ، والتي تشكل في جوهرها ــ بحق ــ شبه ادانة غير مباشرة لطبيعة الظروف التي اكتنفت الثورة الشيوعية الكبرى في روسيا ، والملابسات التي رافقتها من قريب او بعيد.

وفي شهر مايو من سنة 1960 ختمت انفاس الكاتب الثائر الصامت ، والاديب اللائذ بحمى العزلة والانفراد ، ذلك الذي استطاع ان يحدث في العالم ضجة ادبية وسياسية مدوية ، على الرغم من انه لم يكن يتحول عن ملاذه الهادىء الوديع ، ولم يتنكر يوما ما لاسلوب حياته اليومية الرتيبة ومنهاج سلوكه البسيط المتواضع وافضى باسترناك الى نهايته بعد ان عاش تجربة فكرية ووجدانية عميقة اصيلة ، وبعد ان عانى من خطورة البادرة الانتاجية التي قادته اليها هذه التجربة ، وبعد ان شاهد اقصاءه من حظيرة الكتاب السوفياتيين ، وتعرضه لحملات نقدية شديدة ذات طابع ادبي تارة ، وسياسي تارة اخرى ، وذلك كله كنتيجة حتمية للتجربة التي ساقته طبيعة تفكيره الادبي الانساني الى خوضها .

وهناك من يمكن ان يجد بعض عناصر المقارنة والموازنة بين القضية التي تكونت فصولها حول باسترناك وبين القضية الادبية والسياسية الكبرى التي لمع فيها اسم الكاتب الروسي المضاد للشيوعية « كرافشنكو » صاحب كتاب « ءاثرت الحرية » تلك القضية التي اثارت بالفعل ومنذ سنين عديدة ضجة كبرى في الاوساط الغربية والشيوعية على السواء .

وقد يكون ثمت بعض اوجه المقارنة بين القضيتين المتماثلتين في بعض الجوانب المعينة ، الا ان هناك ــ مع ذلك ــ اساسا لملاحظة الفروق الجوهرية التي توجد بينهما ، والتي لا تبيح الاعتماد على نتائج هذه المقارنة اعتمادا صحيحا ، ومن بين هذه الفروق ملاحظة نسبة الارتباط بين كل من القضيتين وبين العوامل الادبية والسياسية التي توجد كامنة وراءها ، فقد كانت بادرة « كرافشنكو » ذات صبغة سياسية مذهبية اكثر بروزا واشد وضوحا ، على الرغم مما يمكن ان يقال عن دواعيها الفكرية والادبية المحتملة ، اما قضية « باستيرناك » فقد كانت اهم العوامل التي اسهمت في حبك خيوطها ــ كما يبدو ــ لا تلتصق بالاغراض السياسية الصرفة التصاقا قويا ملموسا، وشخصية « باسترناك » وظروف حياته وعيشه وطريقته في السلوك والتصرف ثم الاسلوب البسيط الذي احتذاه في الزج بروايته الى عالم النشر خارج الاتحاد السوفياتي ، هذا الى طبيعة الموقف الذي

التزمه حيال التعقيدات السياسية والدولية التي نجمت عن الافكار والآراء المنطوية عليها هذه الرواية ، كل ذلك يمكن ان يحمل على الزعم بان المقاصد السياسية البحتة كان لها دور ثانوي في البادرة الفكرية التي اقدم عليها الكاتب الروسي الكبير ، بل انه من الجائز ايضا الا يكون لهذه المقاصد وجود على الاطلاق ، لكن ماذا يجوز ان تعني في هذه الحالة رواية ذات مضمون سياسي انتقادي كالدكتور جيفاكو ؟ ما هو المفهوم الذي يمكن ان ينتحل في هذه الحالة للرواية التي غدت شهرتها ذات صبغة عالمية بعد ان غدت — لفترة ما — عنصرا ملحوظا من عناصر الحرب الباردة بين الشرق والغرب ؟ ان المضمون الفكري لرواية الدكتور جيفاكو بالرغم عن المظاهر ، لا يعكس — كما يبدو — روحا ثورية نضالية حقيقية ، ولا يعبر عن ارادة الكفاح السياسي المنظم المستند الى قوة الاصرار والتصميم والتنسيق ، فالواقع ان المفاهيم التي يمكن استخلاصها من ظروف وضع الرواية قد لا توحي باشياء جوهرية من هذا القبيل ، ومع ذلك فان الدكتور جيفاكو يجب ان تعتبر روايته هادفة تنطوي فعلا على مغاز عميقة لها مدلول واسع بعيد المدى ، وهي — وان لم تكن تعكس ارادة الكفاح السياسي المنظم فانها — مع ذلك — تدل على اتجاه حتمي نحو الانطلاق العقلي غير المقيد ، وتنم في جوهرها عن وجود ميل شديد كان يحتمل في نفسية باسترناك ويحدوه الى مقارنة التمسك الشديد بمقتضيات الالتزام الفكري المتسق بحرفية المذاهب اكثر من ارتباطه ببواعث نموها واستمرارها، هذا النوع من الالتزام الذي يمكن ان يرادف « الدوكماتية » « Dogmatisme » او المذهبية في بعض الجوانب المعينة ، ولا حاجة للتأكيد بان هذه الدوكماتية قد اصبحت تلقى كل صدود واعراض من كافة الاوساط العقائدية الماركسية سواء داخل الاتحاد او خارجه وتوجد في اساس النزاعات الجديدة الناشبة بين الاتحاد السوفياتي ونزعة انور خوجة في البانيا ، وسواء اكان علينا ان نفسر تفكير باسترناك على انه تعبير عن الميل الى مجانبة المذهبية — وليس هناك ما يؤكد ذلك تأكيدا مطلقا ، فقد تكون هناك عوامل دقيقة اخرى اقل جلاء وبروزا — او كان من اللازم ان يفسر هذا التفكير باعتباره مظهرا لاتجاه انحرافي Deviationiste او نزعة تراجعية Revisioniste سواء كان علينا ان نراه بهذا المنظار او ذاك فان هذا التفكير — مهما كانت الحال — نوعا من الاتجاه الى عدم الالتزام الفكري الناشىء عن خطا او استقامة في الراي وذاك جانب من القضية يعسر على المرء ان يستبين وجه الصواب فيه بكل وضوح عن طريق الاعتماد على بعض التحليلات المقتضبة ، والركون الى جملة من الاستنتاجات السريعة المبتسرة .

وعلى كل ، وبالاغضاء عن قيمة المدلول الحقيقي لتفكير باسترناك وحقيقة المشكلة التي اثارها ، وموقفه من الاحداث التي انتهت اليها هذه المشكلة ، بغض الطرف عن كل ذلك ، فان هناك — على وجه العموم — مجالا لملاحظة بعض الظواهر الهامة التي بدات جوانبها تتضح اكثر فاكثر ، وتاخذ سبيلها الى التبلور داخل المعسكر الاشتراكي ، وتتجلى هذه الظاهرة في تطور موقف بعض الاوساط الادبية والثقافية من قضية الالتزام الفكري المطلق ، وجنوح البعض من الكتاب فعلا داخل بلاد اشتراكية معينة الى التخفف من شدة الاستمساك بمبدا هذا الالتزام ومقتضياته .

لقد تتراءى في افق الادب الاشتراكي المعاصر ارهاصات نزوع حقيقي نحو احتضان بعض الاتجاهات الليبرالية في التفكير والتحليل والانتاج ، وهذا الاتجاه — وان كان يبدو فرديا محدودا — فانه — مع ذلك — يؤذن بانفتاح بعض الامكانيات التطورية في مناهج واساليب التفكير الادبي الاشتراكي قد تبيح له — في بعض الحدود المعينة — ارتياد آفاق اكثر رحابة وسعة مما كان عليه الامر في ظلال العهد الستاليني المدبر ، والذي يبدو واضحا ان اللاستالينية « Déstalinisation » التي تكاد تصبح من بين المميزات الاساسية لاوضاع الحكم والاتجاه في اغلبية اقطار اوربا الشرقية الشيوعية — توجد متلائمة — الى حد ما — مع ممكنات هذا التحول الاتجاهي على صعيد الادب والفكر ان لم تكن هي نفسها من بين عوامل هذا التحول وفي اساس التيارات الحتمية الحاسمة التي قد تكون عجلت بحدوثه .

وقد شهدت الاسابيع الاخيرة في الجمهورية الشعبية البولونية مظهرا جديدا ومثيرا من مظاهر الاتجاه «الفردي» نحو التحلل من موجبات الالتزام العقائدي في نطاق الاشتراكية ، كان ذلك يوم ان بوغتت الاوساط الادبية في « وارسو » (10 اكتوبر الماضي) بظهور آخر كتب الناقد الادبي الشيوعي البولندي « اندري سطافار » الذي كان قد توفي خلال الربيع الماضي بباريس ، والذي احتفت السلطات البولندية بوفاته احتفاء رسميا ومهيبا باعتباره احد الرواد الاشتراكيين البارزين في شرقي اوربا ، واحد رجال الطليعة في عالم النقدالاشتراكي الحديث .

لقد كان لسطافار سجل حافل في مضمار الكفاح الادبي ـ السياسي من اجل الاشتراكية ، وقد عانى طويلا من النظام الستاليني الذي كان يعم بلاده مثل ما كان يعم غيرها من الجمهوريات الشعبية الاوربية ، ولكنه استطاع ـ بعد ذلك ـ ان يسترد مكانته الطلائعية المرموقة غداة نجاح الثورة اللاستالينية في وارسو وانتقال ازمة الحكم الى الزعيم الشيوعي المعتدل « كومولكا » وشيعته سنة 1956 .

والى الايام الاخيرة من حياة سطافار ـ تلك الحياة التي افضت الى نهايتها في جو عادي وظروف طبيعية ـ فقد كان هذا الكاتب يعتبر ـ كما كان من قبل ـ كابرز النقاد الاشتراكيين المعاصرين في بولندة، واحد الكتاب العقائديين المرموقين ، ولا شك ان اتجاهاته الفكرية العامة ، وطبيعة المقاصد الايديولوجية ذات الطابع الاشتراكي التي كانت تنضح بها كتاباته المختلفة ، لا شك ان كل ذلك كان من شانه ان يضمن لانتاجه كل هذه المنزلة التي ينعم بها في مضمار الادب الاشتراكي الحديث ، ويضفي على ءاثاره الفكرية بصورة عامة قدرا من الاعتبار بعيد المدى وعميق الحدود . وعلى الرغم من ان نهاية حياة « سطافار » كانت نهاية طبيعية عادية ، الا ان المصير الذي ءالت اليه افكاره الادبية والانتقادية كان مصيرا غريبا حقا ينطوي بالفعل على كثير من العناصر المثيرة للاهتمام ، اما صورة الغرابة في هذا المصير فتتمثل فيما خلفه هذا الكاتب الماركسي من ءاراء ونظريات تدور كلها حول هذا الواقع الاشتراكي الدولي الذي كان يتبناه ويتولى المنافحة عنه وتتناول هذا الواقع وحتى بعض المبادىء التي يقوم عليها ـ بعبارات النقد والتفنيد ، التي يذهب بعضها الى مدى بعيد جدا ، وقد عبر عن هذه الآراء والنظريات التي كانت مفاجاة مذهلة لكثير من المراقبين والملاحظين ـ عبر عنها في كتاب جديد صدر له حديثا في فرنسا ، وكان من ابرز الاحداث الفكرية التي شاهدتها اقطار اوربا الشرقية وبولندة بالاخص خلال الشهور الاخيرة .

وضع الكاتب تاليفه بين (وارسو) و(باريس) وفي عاصمة بلاده اتم القسم الاول من الكتاب حيث ضمنه كثيرا من الانتقادات الصارمة (للستالينية) كسياسة ومنهاج ، والحق ان جملة هذه الانتقادات تبدو كظاهرة عادية مالوفة بعد ان اصبح النهج الستاليني موضوع عديد من المؤاخذات الجوهرية سواء داخل الاتحاد السوفياتي او في غيره من الاقطار الاوربية التي تسودها انظمة الجمهوريات الشعبية باستثناء الباتيا والصين ، بل ان مناواة الستالينية قد غدت بالفعل في مجموع هذه الاقطار قاعدة انطلاق لكثير من المواقف السياسية والعقائدية التي يكتسي بعضها طابعا رسميا ودوليا بارزا : اما القسم الثاني من الكتاب فقد سوده (سطافار) في (باريس) العاصمة التي ءاثر الحياة فيها فترة من الوقت قبيل نهاية حياته ، والنظريات التي يحويها هذا القسم هي ـ بحق ـ مثار المفاجاة في الكتاب بمجوعه اذ ان هذه النظريات تنطوي ـ كما يبدو ـ على مدلولات عقائدية مختلفة فيها من الغرابة ـ كما قدمنا ـ قدر غير قليل فالى جانب انتقاد الكاتب لنتائج المؤتمر العشريني الشهير للحزب الشيوعي الروسي الذي ساعد على تعديل ملامح الوضع السياسي والعقائدي سواء في الاتحاد السوفياتي او في كثير غيره من اقطار الجمهوريات الاشتراكية الشعبية وخاصة بولندة ـ الى جانب انتقاد نتائج هذا المؤتمر فقد انطلق الكاتب الاشتراكي البولوني ايضا الى تعييب بعض مظاهر الحكم وصور الحياة في اقطار العالم الاشتراكي ، بل انه عدا ذلك الى حد ابداء ءاراء تشاؤمية مفرقة ، وذلك فيما يتصل بمستقبل الماركسية كفلسفة ومنهاج ، ومدى فاعليتها في التاثير على وجدان الانسان المعاصر ، وتوجيه افكاره وعقائده ، وتنظيم سلوكه وتصرفاته في الحياة .

والواقع ان القضايا التي يثيرها (سطافار) في كتابه المثير هذا لا تعنينا كثيرا من حيث المضمون السياسي والمذهبي الذي تعبر عنه ، فالاعتبارات السياسية والعقائدية ـ في هذا المضمار ـ هي من التعقد والالتواء بدرجة كبيرة جدا ، والنظر في هذا التعقيد ومحاولة معالجته على الصعيد النظري امر لا يثير عنايتنا كثيرا ، لانه لا يمس اي جانب هام من جوانب اهتماماتنا القومية ـ الانسانية الملحة ، هذا بالاضافة الى ان الحالة الماثلة في قضية « سطافار » لا تدل ـ بالضرورة على وجود انقلاب جوهري في الخط السياسي الذي كان يتبناه الكاتب البولندي الكبير ويحتضنه بمزيد من الايمان والحماس ، فالاراء (المتمردة) التي عبر عنها في كتابه قد لا تكون ـ في الواقع الا انعكاسا بسيطا لحالة من عدم الالتزام المذهبي كما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات من هذا النوع ، ولكل ذلك فالذي يبدو واضحا ان هذه الآراء لا تشكل بالفعل موقفا سياسيا معينا بقدر ما تدل على واقع فكري متحول يصعب تحديد اهميته ومدلوله ، وهذا الواقع الفكري ذي الصبغة (المباغتة)

هو الذي كان داعيا لاستغراب المراقبين واندهاشهم ، وتساؤلات الكثير من الاوساط الادبية والفكرية سواء داخل البلاد الغربية او غيرها وخاصة في بولندة ، وطن الكاتب ومستقرة الاصيل .

وعلى الرغم من بروز كتاب سطافار في ظروف مثيرة حقا ، انطبعت بها الحياة الفكرية في بولندة خلال الشهور الاخيرة ويتمثل البعض من هذه الظروف في قضية الكاتب البولندي جيرزي كونارکي Zersi Konarcki الذي داب اخيرا على تحرير بعض الكتابات الانتقادية المستغربة ، وترويجها بصورة رومانتيكية مثيرة ، وقضية الادبية السيدة هيلينا راسزينسكا Héléna Rassynska امينة سر الجمعية الادبية البولندية « الدائرة الموترة » وقد ارتبط اسم هذه الكاتبة اخيرا بجملة قضايا ادبية ذات طابع سياسي بارز على الرغم من ظهور كتاب سطافار في مثل هذه الظروف المثيرة فانه ــ مع ذلك ــ لم يؤد الى نشوء حالات من رد الفعل الحاد شبيهة بتلك الحالة التي افضى اليها كتاب باسترناك « الدكتور جيفاكو » ولعل منشأ ذلك ان كتاب سطافار كان يعكس ــ كما قدمنا ــ مجرد حالة عابرة من حالات عدم الالتزام الفكري اكثر مما يدل على حقيقة اتجاه سياسي متناسق الناصر ، وواضح الاهداف ، هذا بالاضافة الى ان تأثيراته في العالم لم تكن في اهميتها وسعة مداها من نوع تلك التأثيرات التي احدثتها رواية الاديب الروسي الكبير ، ويجدر بنا ــ بعد كل هذا ــ ان نتساءل : ماذا يعنينا من كل هذا اذن ؟ وما هو المفهوم الحقيقي الذي يجب ان نقيم على اساسه مثل هذه القضايا الفكرية المتمثلة في حالة باسترناك وسطافار وغيرهما ؟

اننا اذا كنا قد استبعدنا العنصر السياسي من هذه القضايا لان مدلولاته لا تعنينا عمليا في شيء ــ فان ذلك لا يصدنا عن اعتبار الجوانب الاخرى من نفس هذه القضايا . . تلك الجوانب التي تتصل بقضية الفكر على العموم ، والتي هي اقرب ما تكون الى طبيعة الاهداف والمقاصد الحافزة لنا في الحياة نحن ابناء الشعوب المنحازة ، ان الفكر يكتسي ــ بالنسبة الى وجودنا الدولي والعالمي اهمية بالغة وعميقة المدلول لاننا نستند الى هذا الفكر كاداة ــ . . كاقوى اداة نعتمدها ــ بعد الله ــ في تأكيد وجودنا الحيوي امام عوامل القوى المادية التي تستأثر بمقاليد كثير من الامور في عالمنا المعاصر ، وبالتالي فان هذا الفكر يزداد ارتباطا ــ مع مرور الايام ــ بطبيعة مصايرنا ومستقبلنا وكذا مستقبل الاوضاع الحياتية التي تكتنف وجودنا من قريب او بعيد .

ومن هنا كان مصدر هذا الاهتمام الذي يجب ان يحدونا الى مراقبة وقع الفكر وتطوراته في عالم اليوم ، هذا الفكر الذي لابد ان تتوافر له الشروط الضرورية والكفيلة بتحريره وتوسيع نطاق تأثيره على ما جريات الامور في حياتنا العالمية المعاصرة ، ومن البديهي ان هذا التأثير الذي يفترض للفكر على حياة الانسان المعاصر لا يمكن ان يكون فعالا وذا جدوى الا اذا تمكن هذا الفكر والمصادر التي ينبثق عنها من التلاؤم مع مدلول المبادىء التي تحدد رسالته في الحياة . ان القضايا الناشئة عن حالة باسترناك وسطافار ربما لا تكون ــ كما اسلفنا ــ ذات اساس فكري « تمردي » بعيد المدى وعميق الدلالة ، الا ان الذي يجب ان يستأثر بنظرنا ــ في الاساس ــ هو اعتبار مجموع الحالات الفكرية على العموم التي قد تكون متقاربة مع حالة الكاتبين الشيوعيين البولندي والسوفياتي ، وقد تكون متباعدة عنهما بشكل او بآخر ؛ هذه الحالات لابد ان تثير اهتمامنا جميعا ــ وبصورة جدية ــ وذلك لما يتمثل فيها احيانا من مظاهر الاصطدام بين مثالية الفكر السوي وواقع الحياة المنحرف تارة نحو « اليمين » وطورا نحو « اليسار » هذا الاصطدام بين مثالية الفكر المجرد وانحراف الواقع القائم يعكس ــ في الواقع ــ مظهرا اساسيا من اشد مظاهر الخطورة التي تكتنف سلامة الفكرة الانسانية العامة في عالمنا الحاضر . وقد يفضي هذا النوع من التصادم الى تفوق الواقع السياسي او الاجتماعي القائم ، وبكل ما ينطوي عليه من عناصر الزيغ والانحراف ، وحينذاك ينزع هذا الواقع ــ بالقوة او بالفعل ــ الى الاستكمال من مصادر الفكر الانساني المتحرر ، وترويضها على التلاؤم معه ، واستدراجها بالتالي الى مصانعته وممالأته ، وتعبيد الطريق امامه بشكل او بآخر .

ان السبل التي يتم سلوكها لتحقيق حالات السيطرة المباشرة او غير المباشرة على مصادر الفكر والنظر ، هذه السبل هي من التعدد والكثرة بدرجة كبيرة وتختلف صفاتها باختلاف الاتجاهات التي يتبناها الواقع المسيطر ، ودرجة تلاؤمه فعليا مع مثالية الفكر او تميزه عنها ، ومن بين هذه السبل :

1) التحكم تحكما مباشرا في نفسية رجل الفكر ، والتأثير على منابع وعيه وادراكه وذلك عن طريق العمل على احاطة حياته باجواء نفسانية ذات مفعول سلبي عميق المدى .

2) مصادرة ضمير المفكر ، والاستيلاء على مواطن احساسه بالمثل والقيم وغيرها ، وتحويل هذا الاحساس نحو سبيل التكيف مع اتجاهات الواقع القائم ، ولو كان ذلك على نقيض هذه المثل والقيم ، وكل هذا عن طريق اللجوء الى وسائل من الاغراء الرخيص ، والاسترضاء المبتذل ، المستند احيانا الى دغدغة الغرائز واشباع النزوات .

3) اضطرار الفكر — بحكم بعض الضرورات القومية والانسانية الملحة — الى النزوع للتلاؤم مع كثير من الحالات الواقعية التي ربما يكون بعضها على درجة من المناقضة للمبادىء ذاتها التي يجب ان يقوم عليها وجود هذا الفكر .

وهذه الحالة الاخيرة هي اكثر حالات التبعية الفكرية واعظمها اعتبارا ، ذلك ان مظاهر السيطرة على الفكر عن طريق التاثير السلبي (كالترهيب) او الايجابي (كالاغراء) لا يجب ان تلفت الانتباه كثيرا ، لان مثل هذه المظاهر تعتبر — بالفعل شيئا عاديا بسيطا يسهل الحكم عليه في الغالب ،وكثيرا ما ينتهي الى ثورة الفكر ضده حالما يتم ارتفاع الظروف المجبرة القاهرة والوسائل المغرية الجاذبة ، انما الذي يستلفت النظر اكثر من ذلك هو الحالة المتمثلة في وقوع الفكر بصورة او باخرى تحت تاثير بعض الضرورات القومية والانسانية الخاصة ، واضطراره الى مسايرة كثير من المقتضيات الناشئة عن هذه الضرورات — مع ما قد يكون في هذه المسايرة من محاذير عقائدية ومبدئية ربما تكون عظيمة الاهمية والخطر احيانا .

وهذا ما يمكن ان ندعوه في بعض الحالات بالالتزام الفكري او المذهبي الذي يتمثل — كما تمكن ملاحظته — في هذا النوع من الترابط الجزئي او المطلق بين الفكر وواقع الحياة السياسية او الاجتماعية التي تسود بلدا ما ، وتتحكم في توجيه امكانياته ومقدراته ، وهذا الترابط الذي يتسم احيانا عن طريق القسر ويحصل احيانا اخرى عن طريق الاقتناع ، هذا الترابط يستقطب — كما راينا — كثيرا من الصور التي تتراءى من خلالها بعض مشاكل الفكر المتحرر في عالمنا الحديث ، وخاصة بالنسبة لبعض البلاد التي تجتاز الحياة العامة فيها مراحل محرجة واستثنائية

والالتزام الفكري — كالتخطيط الاقتصادي قد يكون — مبدئيا — وفي كثير من الحالات — ضرورة اكيدة من بين الضروريات التي تستوجبها مراحل التطور الجذري الحاسم في مختلف البيئات والمجتمعات النامية ، الا ان التركيز على هذا الالتزام واعتبار المقدرات الفكرية والادبية — على اساسه — كمجرد قيم عادية تندمج في مجموع قطاعات التخطيط العام بمختلف فروعه وامتداداته — ان ذلك — وان كان له محاسنه وموجباته في بعض الحالات ، غير انه يؤدي — حتميا — في حالا تاخرى — الى مجرد تعرية التجارب الفكرية والاختلاجات الوجدانية من مضامينها العبقرية الخلاقة ، واحالتها فقط الى مطلق ايحاءات وايعازات موجهة وعاطلة — في جوهرها — عن كل مفهوم انساني جدير بالاعتبار ، ان هذه الحالات من الالتزام الفكري المتجمد توجد لها مظاهر مختلفة وصور عديدة في كثير من انحاء العالم سواء بالنسبة لبعض الدول التي تتبنى قيما عقائدية ذات طابع عالمي او بالنسبة لبعض الدول الاخرى التي تحتضن مبادىء التفكير القومي المحلي او التفكير القومي الترابطي او بالقياس ايضا لبعض الاقطار التي تعتنق — واقعيا او نظريا — مبادىء النظام الديمقراطي البرلماني ، وسواء في هذه الحالة او تلك فان الفكر الملتزم قد يكون موجها احيانا الى خدمة بعض العقائد والمبادىء التي تمتزج بجملة من الاهداف الانسانية النبيلة ، ويفضي تطبيقها الى اقرار اوضاع صحيحة ومشروعة ، ولكن هذا الفكر الملتزم ايضا قد يوجد احيانا اخرى — مسوقا — بالقوة او بالفعل — الى مظاهرة مبادىء وعقائد معينة لا تنسجم — كما قدمنا — في جوهرها ونتائجها مع ما يجب ان يستهدفه الفكر الانساني — في نسقه الاعلى — من خدمة مثل الخير والصدق والجمال ، وتجسيم هذه القيم الخالدة في اشكال حية وواقعية .

ان قضية الالتزام الفكري الادبي هي اذن قضية — وان كانت بسيطة واضحة من حيث المبدا ، الا انها باعتبار النتائج المنبثقة عنها تبدو على درجة ما من التشابك والتعقيد ، ومنشأ التعقيد في هذه القضية يعود — في الاساس — الى مشكلة الاختيار بين الالتزام الخير الهادف وبين الالتزام السلبي المتجمد المرادف

لمدلول التبعية البليدة ، والناجم احيانا عن حالات وضيعة من الارتشاء فى شكل مادي او معنوي وعلى اساس هذا الاختيار يتوقف الحكم على ما قد يكون هناك من حالات التزام فكري عديدة تختلف صورها ونتائجها باختلاف الظروف والملابسات التي تتصل بها والنتائج المستهدفة منها بوجه او بآخر .

ان من المعقول جدا ان يلتزم الفكر الادبي او الفلسفي – فى كثير من الحالات – بالدفاع عن نهج معين من السلوك فى مجال السياسة او الاقتصاد او الاجتماع او غير ذلك ويتقيد به الى اقصى حدود التقيد ، بل ويتجرد فى سبيل ذلك عن ضروريات حريته وانطلاقه وتلقائيته ، وان من المقبول كذلك ان يتقيد الشعور الفني الجمالي فى ميادين الموسيقى والنحت والرسم بمثل هذه الانواع من القيود والالتزامات ، ويخضع لمقتضياتها وموجباتها بوجه او بآخر ، ان التقيد والالتزام الادبي والفني قد يكون – اذن – وفى كثير من الحالات معقولا وضروريا الى حد بعيد ، الا ان التجربة الفكرية او الشعورية التي تتطور فى حدود هذا الالتزام المتقيد يجب ان تكون منبثقة عن وعي انساني حقيقي ومتحررة من قيود المصانعة والارتشاء وعلاوة على التصاقها بالمعطيات المثالية النبيلة ، فانها يجب ان تكون متاثرة دائما بواقع الانسان كانسان يحس ويتالم ، يسعد ويكره ، ينفعل لما فى الحياة ويتفاعل مع حقائقها وظواهرها .

ان الواقع الانساني سيبقى باستمرار اساس الحكم على قيمة التجربة الفكرية والفنية الملتزمة، ومن الضروري ان يكون علاج هذا الواقع واصلاحه من بين المحاور الرئيسية التي يجب ان تدور حولها مثل هذه التجربة وذلك على اساس ان يكون هذا الاصلاح اكثر انطباقا على صالح الفرد والمجموع ، واقل تعرضا لاسباب التناقض والاصطدام بين المصالح المعقولة ، والمصالح الجماعية المقدسة .

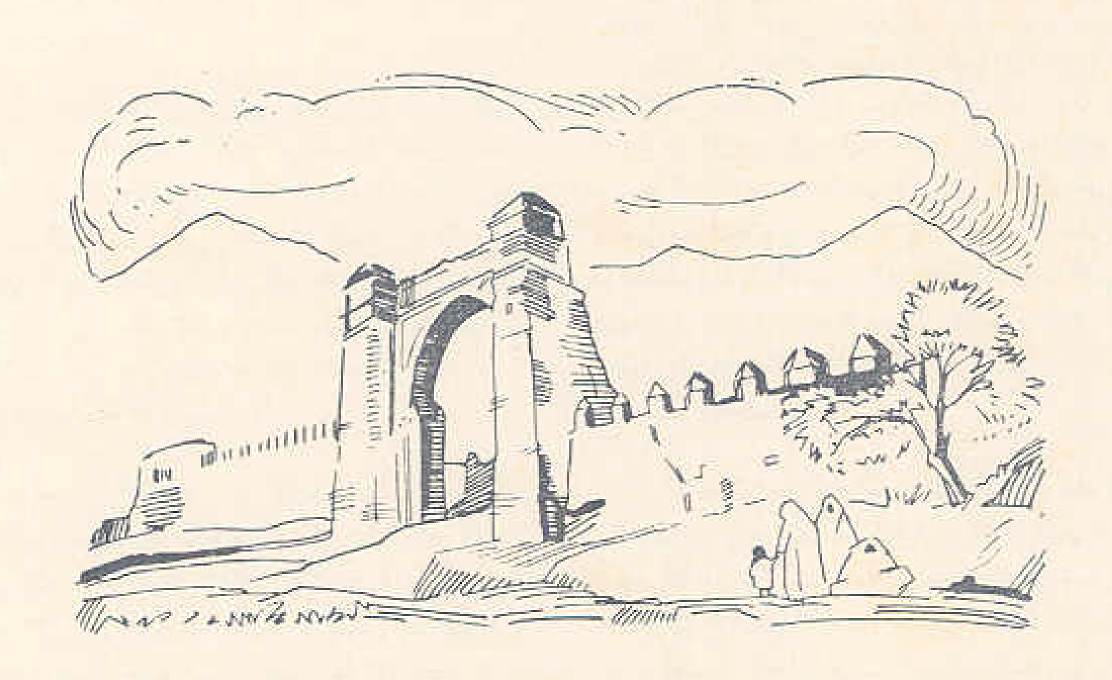
والواقع ان الحرص على التخفيف من هذه التناقضات الاجتماعية والاجتهاد فى ذلك قد يؤدي احيانا – كما تم فى بعض البلاد الطامحة لسرعة التطور – الى اتباع بعض المناهج والسبل المتشددة ، كما يقتضي اتخاذ عدد غير محدود من المواقف قد تبدو قاسية غير انسانية من حيث الظاهر ، ولكنها ذات مضمون اصلاحي حقيقي لا تظهر نتائجه الا فى الامد البعيد ، وفى احوال من هذا النوع يكون من المقبول ان يساير الادب الملتزم بعض اساليب التشدد والقسوة ، ويتقيد احيانا بتبريرها وابراز مشروعيتها الى مدى بعيد وذلك وان كان يشكل مظهرا ما من مظاهر التحدي لبعض الاعتبارات الانسانية الفردية الا انه – وهذا هو الاهم – يلتقي فى صعيد واحد مع كثير من المعطيات المبدئية الاخلاقية التي تقر مصلحة الجماعة اذا كانت تتناقض ومصالح الافراد – ولو انه من الضروري بذل العناية بالتخفيف من هذا التناقض – كما قدمنا – طالما كان ذلك ممكنا وميسورا اما اذا كان الامر يتصل بمواقف لا يستطاع تصور اي مفهوم انساني لها سواء اكان قائما على اعتبار واقعي او كان مرتكزا على مبدا اخلاقي مثالي وذلك كمشاهد التقتيل الجماعي بالجزائر او الاجتراء على تفجير اجهزة حرارية نووية من صنف الخمسين ميكاتون فى غير ما مقصد سلمي او شبه سلمي ، والتطويح بقيم مالية ضخمة فى ميادين سلبية غير انسانية كالاستعداد لحرب عالمية محتملة ، والتهيؤ لصراع ذري وهيدروجيني متوقع ، اذا كان الامر يتصل بمواقف وحالات كهذه ؛ فان التزام الفكر بها يفقد حينذاك مدلوله المبدئي ، وصفته المبررة ، ويصبح مجرد ظاهرة ناشزة تتراءى من خلالها صور من التبعية الرخيصة ، والذنبية المرتشية والتهافت الذبابي الوضيع ، وحينذاك يغدو من العسير جدا ان يحافظ الفكر الادبي والفلسفي على قداسة رسالته التوجيهية ، ونجاعة مهمته القيادية الطلائعية ، وليس من الممكن – فى احوال مثل هذه – ان نجد للكلمة او اللحن او الرسم كل ذلك المظهر الناصع الذي تكتسيه حينما تكون مجرد انعكاس لما ينفعل به الضمير الواعي، وليس من الجائز فى هذه الاحوال ايضا ان نلمح فى الفكر او الشعور تلك الصورة البهيجة المشرقة التي يتجلى فيها عند ما يغدو مجرد سبيل للانطلاق نحو الحق ، ومجال استكشاف لمواطن الخير ونقطة ارتياد لآفاق البهجة والجمال .

ان هناك مجالا واسعا لتبادل الاسداء الفكرية والشعورية بين الكتاب والفنانين الانسانيين فى مختلف انحاء العالم ، وليس يعنينا من امر الاوضاع الفكرية فى العالم الاشتراكي والراسمالي او غيره ، الا بقدر ما يساهم به ذلك فى توفير اسباب التجاوب والتصادي بين هؤلاء الكتاب والفنانين وتواطؤهم على استبعاد

عوامل التدمير الذاتي التلقائي التي باتت تزلزل ضمير الانسان ووجدانه في كل مكان، فليس من الحتمي مطلقا ان ينهزم الفكر الانساني الواعي امام عوامل الصناعة الضخمة التي انطلقت من عقالها عن طريق هذا الفكر ذاته ، وليس من اللازم ايضا ان تتضاءل العقلية الانسانية المفكرة وتتصاغر تجاه الحقائق المادية الرهيبة التي يزخر بها عالم اليوم ، والتي ينبثق بعضها عن اجتهاد هذه العقلية واتساع ءافاق نشاطها.

على انه لكي يمكن بالفعل تلافي هذا الانهزام والتصاغر فلابد — لذلك — من ازدياد الشعور بالمسؤولية التاريخية عند هؤلاء المتصدرين لشؤون الفكر والابداع الفكري في مختلف انحاء العالم ، ولابد ايضا من اقتناعهم جميعا بضرورة الحفاظ على قدر من الالتزام الانساني في صور انتاجهم ، ومظاهر تفكيرهم وشعورهم لانه — وان كان من الواجب ان يتقيدوا — في حدود معينة — بما يتفق وحاجيات البلاد التي ينتسبون اليها ، والشعوب التي يلتحمون بها فانه يبدو معقولا كذلك ان يتقيدوا — من جانب ءاخر ببعض المعطيات التي تنصب — في جوهرها — على خدمة اهداف الفكر ذاته ، خدمة اهداف الانسان ، والالتزام للانسان كانسان يهفو للخبز ولكن مع توافر الحب ، ويصبو للعزة على ان تسودها روح الاستقرار والطمانينة ، ويطمح للعدالة ولكن في ظلال السلام .

ذلك هو الالتزام الفكري الحق : تفتح على ما في المثاليات الاخلاقية من سمو ونبالة ، وتقيد الواقع الانساني الماثل ، وبكل ما يعبر عنه هذا الواقع من حقائق اساسية ، وما يعكسه من ظواهر وصور مختلفة ، وفي ذلك جماع المقاصد الرفيعة التي يجب ان تعطى للالتزام الفكري العقائدي مدلوله المبدئي المقبول .



رحلة العبدري الحاحي

للاستاذ عبد القادر زمامة

- 2 -

* تعرف الرحلة العبدرية باسم الرحلة المغربية ، ولكن هذا الاسم لا يطابق المسمى ، فليس فيها من اخبار المغرب ، وما كانت عليه حواضره وبواديه ، الا النزر اليسير ، نجده فى صدرها عندما حدثنا فى ذهابه عن بلاد سوس وماحل بها من خطوب مجتاحة . . وبلاد ــ القبلة ــ ويعني بها ما كان شرق سوس ، من الجنوب المغربي ، فى درعة وتافيلالت . . فيقول عنها : « وهي بلاد مات فيها العلم » ، ويصف حصونها وانهارها وعوائد اهلها فى الحرب والسلم ، ويثني على اخلاقهم . . كما نجده فى خاتمتها وقد وصل الى تلمسان ، فاختار الرجوع الى حاحة عن طريق وجدة وتازة وفاس ومكناسة وءازمور وءاسفي . . وكان المنتظر ان يجرد قلمه لوصف هذه الحواضر ولكنه ءاثر السكوت ومر عليها مر الكرام كما يقولون . . ولم يفته ان يصف خراب وجدة واطلالها . . كما لم يفته ان ينشد هذه الابيات وقد ادركه عيد الفطر بمدينة فاس :

قالوا نعيد فى فاس فطب فرحا
فقلت ما لي بها دار ولا عطن

فاس ومكناسة وطنجة وسلا
عندي كزديك (*) لا اهل ولا وطن

بغداد قفر اذا لم تحولي سكنا
والقفر بغداد ان اهلي بها قطن

ثم يمر على مكناسة ويأخذ عن بعض شيوخها . .

واذا تذكرنا ان العبدري خرج من بلاده فى ذي القعدة من سنة 688 اي بعد قيام المرينيين بنحو العشرين سنة . . واذا تذكرنا تلك الاهوال والفواجع التي حلت بالبلاد المغربية وهي تعاني حروبها الداخلية والخارجية . . واذا تذكرنا الصراع بين الموحدين والمرينيين من جهة . . والصراع بين المرينيين وبني عبد الواد وبني الاحمر من جهة اخرى . . واذا تذكرنا انهيار الامبراطورية الموحدية وقيام دويلة بني الاحمر فى غرناطة . . وبني عبد الواد فى تلمسان . . وبني مرين فى فاس . . وبني حفص فى تونس وبجاية ــ علمنا اي ظروف كانت تحيط بالمغرب واي عصر كان يعيش فيه صاحب الرحلة .

فالتشاؤم والانقباض وسوء الظن بالحياة والاحياء كانت مسيطرة على صاحبنا الى ابعد حد حيث يقول : « وقد تعطل فى هذا العصر موسم الافاضل وتبدد فى كل قطر نظام الفضائل . . وقد صار الملك الذي هو نظام الامور وصلاح الخاصة والجمهور فى اكثر الارض منقوص الدعائم ، مهدم القوائم ، يدعيه كل غوي كالملكيشي (*) وعبد القوي (*) . . او ليس من الامر الخارج عن كل قياس ان المسافر عندما يخرج عن اقطار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء ، لا يامن على ماله وعلى نفسه ، ولا يؤمل راحة فى غده ، اذا لم يرها فى يومه وامسه » .

---

* راجع البحث الاول فى العدد الثاني من دعوة الحق لهذه السنة
* هدمها يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 670 هـ
* من المفازات التي مر بها العبدري فى طرابلس .
** كلاهما من رجال القبائل المتمردة ايام حروب المرينيين مع بني عبد الواد .

ولا يسعه الا ان يستنجد بملك البربر يوسف بن يعقوب المريني ملك المغرب اذ ذاك لينشر الامن ، ويرفع الظلم ، ويرفع اليه قصيدة ميمية طويلة يضمنها شكواه مما شاهده من تعسف وانتهاك للحرمات وتطاول الاقوياء على الضعفاء .

في تلمسان : « ثم وصلنا مدينة تلمسان فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان ، واحلت به حوادث الحدثان فلم تبق به علالة ، ولا تبض في ارجائه للظمآن بلالة »

ويستمر صاحبنا في هذه السجعات الخاقانية فيصف البلاد عمرانيا وعلميا وصفا لا يخلو من نقد جارح واسف شديد على انحطاط المستوى العلمي بين طبقة القضاة والمدرسين هناك ، ولا يرى من اهل العلم بها الا الشاعر ابن خميس فيركن اليه ويذاكره في اللغة والادب والعروض ويسجل بعض شعره في الرحلة مع التعليق عليه .

ويغادر تلمسان بعد ان مكث بها طويلا الى مليانة ثم الجزائر ثم بجاية التي يقول عنها (بقية قواعد الاسلام ومحل جلة من العلماء الاعلام) ، والحقيقة ان بجاية كانت مدينة لامعة الشهرة في الشمال الافريقي وكانت ماوى كثير من عباقرة العلم والادب وكتب المعاجم طافحة باعلامها .. وكتاب الغبريني – عنوان الدراية – شهير مطبوع .. وكانت تابعة لتونس ايام وحدة الدولة الحفصية ثم انفصلت عنها ايام انقسام الدولة ..

ويغتنم العبدري ايام مقامه القصير في بجاية فياخذ عن شيخها محمد بن صالح الكناني الشاطبي(*) .. ثم يتابع السير الى قسنطينة فيصف معالمها وءاثارها العمرانية ويذاكر شيخها ابن باديس ويساله عن قصيدة ابن الفكون اليائية وصاحبها .. ثم ياخذ طريقه الى عنابة ثم باجة .. وهو لا يفتأ باحثا عن الشيوخ والرواة ليروي حديثا .. او يستفيد خبرا .. او يسمع اثرا .

في تونس : « ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمع الآمال ومصب كل برق ومحط الرجال من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك » ، والعبدري معجب بتونس وبجمالها الطبيعي وازدهارها العمراني وتقدمها العلمي .. وكثرة شيوخها واعلامها فشمر عن ساعده لاقتناص الشوارد واغتنام الفوائد ، ولم يترك شيخا الا اخذ عنه واستجازه لنفسه ولابنه محمد ، ويطول بنا الحديث لو سطرنا قائمة هؤلاء الشيوخ الذين اخذ عنهم العبدري في ذهابه الى الديار المقدسة ثم في اوبته منها ، وكانه لم يرو ظماه في المرة الاولى ، فاردفها بثانية .. والحق ان تونس كانت اذ ذاك عاصمة الحفصيين وقد ورثوا مجد الموحدين ولجا اليهم كثير من اعلام الاندلس وازدهرت الحركة العلمية بسببهم ازدهارا تلمس اثره واضحا في مؤلفات ذلك العصر ، وكانت عناية العبدري متجهة الى مزيد من رواية الحديث والشعر واللغة والفقه والنحو فوجد ضالته هناك .

ومن تونس توجه الى القيروان وهناك راى مدينة ذهب الدهر بجمالها ، وخلف مزيدا من ذكرياتها وءاثارها فاتصل بالشيخ عبد الرحمن الدباغ صاحب معالم الايمان كما قدمنا في القسم الاول من هذا البحث ومن القيروان بعث بقصيدة الى ابنه محمد ينصحه فيها ويتشوق اليه ، وتظهر في القصيدة روح العبدري المتصوفة المتزهدة المتبرمة بالحياة والاحياء .

ويودع القيروان ويودع معها لهجته المعتدلة المتزنة ويصل قابس – ذات الخبر الخبيث والمحيا العابس – ومنها الى طرابلس ومسراته وبرقة وقد اطنب في وصف اعرابها وعوائدهم ولغتهم وقاسى الامرين في اجتياز تلك الصحراء الشاسعة الى مدينة الاسكندرية .

في الاسكندرية : « مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة كل عنها ظفر الزمان ونابه ، ومل منها جيش الحدثان واحزابه » .

وكان وصف العبدري للاسكندرية رائعا جامعا فلم يترك شاذة ولا فاذة الا سجلها وابدى رايه فيها بصراحته المعهودة التي تبلغ احيانا حد الانتقادات المرة والسب الصريح الذي تشمئز منه النفس . ولكن العبدري هكذا خلق .. ولا تبديل لخلق الله .

والشيء الذي اثار حفيظته في الاسكندرية هو نظام الجمارك في تفتيش الصادر والوارد واستخلاص

(*) انظر ترجمته في عنوان الدراية ص 48 .

الواجبات الجمركية ، فقد انفجر هناك انفجار البركان ورفع عقيرته بالنهي عن هذا المنكر .. كما انفجر سلفه الرحالة الاندلسي ابن جبير الذي رفع قصيدة في الموضوع للسلطان صلاح الدين الايوبي ..

بعد هذا الانفجار اخذ في البحث عن الاشياخ والاخذ عنهم فاتصل بالشيخ ابي الحسن بن المنير وغيره من اشياخ الاسكندرية وملأوا صابه عن الروايات والاسانيد والاخبار والاشعار وسطر جميع ذلك بقلمه في الرحلة ..

في القاهرة : للقاهرة وسكانها صورة قائمة في ذهن العبدري وقلمه لا نناقشها لانها اقرب من المسائل الشعورية التي لا تخضع للمنطق .. ولانها ثانيا سجلت باسلوب صبياني سخيف ..

ورغم ذلك فقد اقبل العبدري على اشياخها ليستفيد منهم ولكنه نعى عليهم اشتغالهم بعلم المنطق فقال اولا : « ومن الامر المنكر عليهم ، والنكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول » .

ومكث العبدري في القاهرة في بيت من بيوت مدارس الطلبة كانه طالب من الطلاب .. لا عالم من العلماء يستحق الاكرام وحسن الضيافة .. ومزيد الاهتمام .. ولعل في ذلك ما يفسر لنا بعض اسباب ثورته النفسية بالقاهرة ..

واخذ عن ابن دقيق العيد المحدث الشهيد صاحب المدرسة الكاملية .. كما اخذ عن الدمياطي ولقي منهما برا وعطفا واهتماما .. كما اخذ عن غيرهما من اعلام ذلك العصر وحشر مروياته في الحديث والفقه والشعر واللغة كلها في الرحلة ..

ثم وصف مصر وصفا جغرافيا وعمرانيا وتاريخيا يدل على اطلاع واسع ودقة في الملاحظة .. واثنى مرارا على السلاطين الايوبيين الذين يسميهم ، الاتراك .

ويخرج في شوال من سنة 689 من القاهرة صحبة الركب المصري ويقطع صحراء سيناء الى العقبة وهناك يسطر معلوماته الجغرافية فينقل عن الجغرافي الاندلسي ابي عبيد البكري بعض المعلومات وينتقدها ، وقد قدمنا نموذجا لذلك في القسم الاول.

ومن العقبة يتابع طريقه صحبة الركب فيصف الطريق وصفا جامعا مفيدا يتعرض فيه لضبط الاعلام وتقدير المسافات ووصف البيئة وغيرها .. ويدخل مكة يوم التروية وهناك يطلق لعاطفته الدينية العنان فيسطر قلمه ما شاء من ابتهاج وسرور بالوصول الى هذا البلد الامين مهبط الوحي .. وكعبة الدين .. وقبلة المسلمين ويصف المعالم والمآثر والاضرحة والمناسك .. ولا يفوته انتقاد بعض اعمال الجاهلين باقامة المناسك .. ويتاسف لكثير من مظاهر الفوضى عند زمزم .. والمقام .. والحجر الاسود .. وكان عازما على « المجاورة » بمكة والاقامة بها فاكترى دارا للسكنى وصرف بعض ما كان معه من الاسباب ليتفرغ للعبادة .. ولكن حال دون ذلك نزاع شب بين الركب وامير مكة ادى الى اصطدام وقتال وفوضى.. فخرج العبدري مع الركب يذرف دموع الحسرة واملى علينا فصلا فقهيا طويل الذيل في الحج والمناسك يدلنا على باعه الطويل في هذا الفن .

ويعرج على المدينة المنورة فيزور قبر المصطفى عليه السلام ولا يقيم الركب فيها الا يوما وبعض يوم ولكن رغم ذلك فقد راى العبدري كثيرا من المعالم والبقاع ، ووصف المسجد والروضة الشريفين وتاسف على خلو مدينة الرسول من العلم والعلماء .. وانشد قصيدة دالية يمدح فيها سيد الكائنات .

وكان رجوعه الى مصر عن طريق فلسطين فزار حرم الخليل وبيت المقدس وشاهد مقابر الانبياء وسطر كل ما يعلمه من تاريخ هذه البلاد .. وما شاهد من ءاثار الحروب الصليبية هناك وقد كان وصفه لمشاهدته طريفا مفيدا مركزا حول اهم الاخبار والآثار .. وبالمقارنة التاريخية يظهر انه استفاد كثيرا من رحلات من قبله ولا سيما ابن جبير .. وبعد زيارة قصيرة لعسقلان وغزة وذكره للعلاج في بيت من بيوت المدرسة الظاهرية عند شيخه شرف الدين الدمياطي .

ومنها يقصد الاسكندرية فيمكث بها سبعة ايام عند شيخه ابن المنير ومنها يقطع تلك المفازة التي عرفها في صحراء برقة وطرابلس ولكنه هذه المرة لا يسخط ولا يغضب لان ثورته النفسية قد انطفأت جمرتها وسكنت حدتها ..

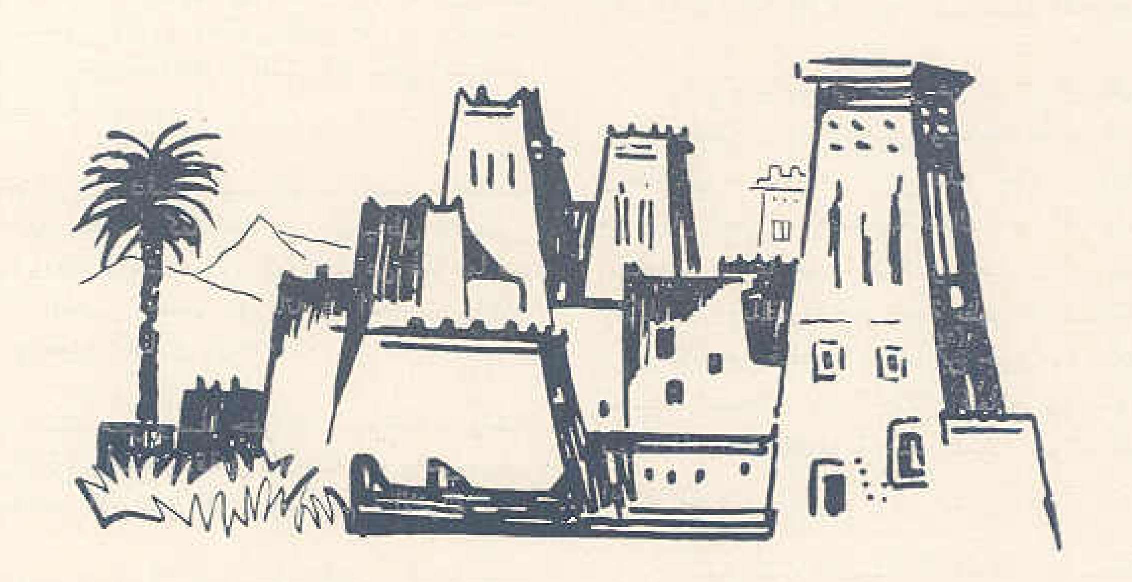
وفي تونس تنشرح نفسه من جديد للمدينة التي احبها واحبته فجلس الى شيوخها من جديد، وجدد العهد باسانيدهم ومروياتهم .. كما اتصل بشيوخ ءاخرين عرفهم في اوبته كابي العباس الغماز الخزرجي البلنسي (*)، وابي الحسن بن ابراهيم التجاني(*) وهو ابن عم التجاني صاحب الرحلة التونسية الشهيرة .. وقد استفاد العبدري من ابي الحسن التجاني كثيرا وروى عنه بعض قصائد ابن الابار وحازم القرطاجني وغيرهما واثنى على ادبه وعلمه واطلاعه .. كما استفاد من ءاخرين ..

وعلى طريق بجاية وتلمسان ووجدة يرجع الى وطنه بعد ما فارقه نحو السنتين ..

ورغم ان اسلوب العبدري يبدو فيه كثير من التكلف والاهتمام بالمحسنات.. فقد استطاع ان يكتب رحلة نفيسة خلدت صاحبها وشرفت عصره .. واحتلت مكانتها كتراث مغربي جدير بالدراسة والبحث والنشر .

---

* انظر ترجمته في عنوان الدراية ص 70
* انظر ترجمته في الرحلة التجانية ط تونس ص 11





- 3 -

تطور الموشحات ونشأة الزجل :

راينا فى تطور الموشحات فى القرن الخامس على يد ابن ماء السماء وابن بقي والطليطلي الذين عملوا على اكتمالها ورفع مستواها الى مكان القصيدة العربية التقليدية ، ويذهب كثير من الباحثين الى ان تطورا ءاخر حدث لهذا الفن بظهور الزجل الذي اعتبروه فرعا منه . يقول ابن خلدون : (ولما شاع فن التوشيح فى اهل الاندلس واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع اجزائه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ، ونظموا طريقه بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل) (*) ، فى حين يرى غير هؤلاء ان الاصل واحد فى نشأة الموشحات والازجال ، فقد ذهب الدكتور الاهواني الى (وجود أصل مشترك ظهر فى البيئة الاندلسية منذ عهودها القديمة كان له الفضل فى ظهور التوشيح وكان له اثر فى استقلال الزجل وتطوره ، ذلك الاصل هو الاغنية الشعبية) (*) وقد سبق الى هذا الراي المستشرق الاسباني بالنثيا الذي يرى ان (الزجل والموشحة فى واقع الامر فن شعري واحد ولكن الزجل يطلق على السوق الدارج منهما اذ لابد ان يكون فى اللغة الدارجة فقد كان يتغنى بها فى الطرقات ، اما الموشحة فلا تكون الا فى العربي الفصيح واسمها كذلك عربي كما هو واضح) (*) وعلى هذا القول يوافق الدكتور شوقي ضيف الذي كاد ان يظن باسبقية الزجل حين قال (فالمعقول ان يكون الزجل قد نشأ معه (اي مع الموشح) مباشرة ، وربما سبقه ويمكن ان نقول انهما جميعا فن واحد ذو شعبتين شعبة تغلب عليها الفصاحة وشعبة تغلب عليها العجمة) (*) .

ولكنا اذا عرفنا ان نصوص الازجال الاولى لم تصل الينا كما لم تصل الينا توشيحات الفترة الاولى من نشأة هذا الفن ، واذا عرفنا ان اول زجال وصلتنا نماذج صحيحة النسبة اليه هو ابن قزمان المتوفى سنة 554 ه وان اول وشاح هو عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة 419 ه انتهينا الى ان الموشحات سبقت الازجال وبالتالي الى ان الازجال تفرعت عن الموشحات، وان ذلك كان فى القرن السادس ايام حكم المرابطين الذين كانوا قليلي المحافظة على التقاليد العربية ، اذ كان مستبعدا جدا ان ينشأ هذا الفن فى ظل ملوك الطوائف الذين كانوا يقدسون كل ما هو شرقي ، ويحاولون تقليد الخلفاء العباسيين فى ممارسة كثير من الوان الحياة وفى تهيىء بلاط ادبي يجتمع فيه الشعراء لمدحهم ، ولو لم يلتزم الوشاحون فى نظمهم لغة عربية فصيحة لا يتجاوزونها الى العامية الا فى الخرجات لما تسنى لفن التوشيح ان يسير فى طريقه منذ هذا العصر قبل ان يصل الى عهد المرابطين حيث اكتمل وازدهر فى ظله وربما كان هذا الالتزام الذي عمل فى نطاقه الوشاحون سببا فى استقلال فنهم عن اصله الغنائي الشعبي .

(*) المقدمة ص 548
(*) الزجل فى الاندلس ص 2
(*) تاريخ الفكر الاندلسي ص 143
(*) الفن ومذاهبه فى الشعر العربي ص 356

وإذن فإننا نذهب الى ان الزجل تفرع من الموشحات وان ظهورهم كان نتيجة لاستقلالها عن الاصل العامي بل هو رجوع اليه .

اما بعد هذا فالزجل كبير الشبه بالموشح فى تنويع الوزن والقافية وفى اعتنائه بالخرجة التي هي فى الزجل ابسط واقل اجزاء ، وربما اتخذت مطلعا له او لزجل ءاخر غيره .

مثال هذا زجل ابن قزمان الذي يبداه بقوله :

ماع معشوقا مليح ووفى
جيد يكون ان لم تجيه طزع

حتى قال اذا بلغ الفصن الاخير قال :
معي زجيل معلم الطرفين

كالدنار الشقر من جهتين
والخرج دو متن عطين

ماع معشوقا ....

وواضح بعد هذا ان الفارق الاكبر بين الفنين هو اللغة التي تستعمل فى كل منهما فالموشح يلتزم اللغة العربية الفصيحة ، فى حين ان الزجال ينظم باللغة العامية التي يتحدث الناس بها فى الشوارع والاسواق .

ولا ينبغي ان يبالغ فى الظن بان جمهور هذا الفن كان محصورا فى طبقات العامة من الناس ، فقد كان الى جانب حياته فى بيئة يعيش فى بيئات خاصة وعند طبقات بعيدة عن السوقية والعوام كطبقة الصوفية الذين كانوا ينشدون الازجال فى حلقاتهم يرقصون على الحانها، وطبقة شباب المدن الارستقراطي العاطل الذي لم يكن يشغل باله بغير ما يمس لهوه ولذته وما يكون فى مجالسهما من شراب ورقص وغناء وقد وجد الزجل فى كل هذا بيئة صالحة اكتسب منها كثيرا من خصائصه ومميزاته لا بالنسبة لروحه الخفيف فحسب ، وانما كذلك بالنسبة لموضوعاته وخاصة المدح حيث تراه يمتزج بغزل مكشوف لا يتحرج فيه المادح من رسم كثير من الصور المادية للممدوح .

ويعتبر ابو بكر بن قزمان القرطبي اول زجال يتقن فنه وينظم فيه ديوانا كاملا ، يقول فى زجل له معبرا عن فلسفته فى الحياة :

دنيا هي كما تراها فاجتهد واربح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلى مهرجانك
واشتفي عليه من قبل ان يجيء الموت فى شانك
لس ذي عندك مصيبة ان تموت والدنيا حي
ساع دون شريب عندي لا شكل ولا ملامة
لس نعد اللذ لذة ولا يد الراح راحة
حتى تدخل شفة الكاس بالشراب بين شفتيا

ولعل اهم زجال بعد ابن قزمان هو ابو عبد الله احمد بن الحاج المعروف بمدغليس فقد كانت له عناية خاصة بتنقيح اسلوب ازجاله التي حاول ان يصلها بالقصيدة العربية رغبة فى الوصول الى بلاط الخليفة ، اذ ان الموحدين على عكس المرابطين الذين عاصرهم ابن قزمان كانوا متشبثين بتقاليد الشرق العربي يحاولون التشبه بالخلفاء العباسيين ، فلا غرابة ان نرى الزجال فى هذا العصر يقتني الاساليب البلاغية ومعاني القصيدة العربية يدخلها في ازجاله مبتعدا عن البيئة الشعبية والبيئات الخاصة التي ازدهر فيها الزجل على عهد المرابطين الذي يعد بحق ازهى عصور الزجل .

وهذه مقدمة غزلية لزجل مدح به احد الوزراء جعلها حوارا بينه وبين النسيم يقول فيها :

لقد اقبلت يا نسيم السحر
بروائح قد بورت للمسوك
توقد انفاسك الذكية شمع
فى قلوبنا متى ما نستنشقوك
انما حقا لش وصلت ضعيف ؟
قال لي دراما دار لك اذ ودعوك
لما جالي الفراق وودعتهم
لبسوني النحول كالبسوك
ذكر الله من قد ذكرت بخير
كذا يصنا سمعتهم يذكروك
قلت من حق يذكروني الملاح
قل لي كيف لا نعم وينتظروك
قلت ان كان نرجع لهم عن قريب
قل لهم عني يصنا ان يسالوك

* الزجل فى الاندلس ص 40

غزر شوقي لهم ووفي وزيد
في ضماني اش ما تقول صدقوك

انا لس يتهموني في حبهم
ولا ات في الرسالة يتهموك

ولا يرموني في الهوى بالملل
ولا ات يصنا بالكذب يرموك

اي زمان بعد قل هو قد كان يجي
انما هو في قرطبة مملوك

لابو يحيى سيد الامرا
وفريد الزمان وزير الملوك (*)

وواضح في هذه القطعة ان صاحبها نسج على منوال القصيدة العربية في التزامه الوزن والقافية لا لا يميزها غير الفاظها العامية الملحونة .

واذا تركنا ابن قزمان ومدغليس وجدنا اسماء عدد كبير من الزجالين والزجالات نذكر من بينهم ابن الزاهد الاشبيلي ، وام الكرام بنت المعتصم بن صمادح، ونزهون بنت القلاعي الغرناطية ، وعلي بن جحدر ، وابن حبيب الجزري ، لم يحفظ لنا من انتاجهم غير نصوص قليلة متفرقة في بطون الكتب تحتاج قراءتها وفهمها الى معرفة اللهجة التي نظمت بها وما كانت تمتاز به من صفات صوتية وخصائص في النطق .

وانتشر الزجل في مختلف البلاد العربية التي اخذت تنظم بلهجاتها الى ان اصبح اليوم يطلق على الوان من النظم العامي لا حصر لها ، لا تحدها موضوعات الغناء والمدح التي ازدهرت في الاندلس وانما تتسع لكل فنون القول من سياسة واجتماع وقصة وتمثيلية .

قيمة الموشحات واثرها في الادب العربي :

يبدو واضحا مما سبق ان الموشحات بتغييرها في الوزن وتنويعها في القافية تحررت من المنهج التقليدي الذي سارت عليه القصيدة العربية في شكلها ، دون ان تحاول التحرر من الموضوع الذي لم تكن ظروف نشأتها ولا ظروف ازدهارها تسمح بالخروج عليه ، وربما كان التزام الوشاحين للموضوعات السائدة في الشعر العربي وخاصة الغناء والمدح سببا في اقبال الملوك والامراء عليها ، وقد سبق ان قلنا انه لولا هذا الاقبال لما تسنى لهذا الفن الجديد ان يقف على قدميه . وكان اصحابه كانوا يهدفون من وراء طرق الموضوعات التقليدية الى اظهار قدرته ومرونته، ولعلهم حاولوا تجاوزها الى موضوعات اساسها الحوار كان يمكن ان تكون بداية للشعر التمثيلي والقصصي في الادب العربي ولكنه ليس لدينا نصوص على ذلك ، وقد يكون قرن من الزمن وهو مدة الحكم المرابطي الذي ازدهر في ظله فن الموشحات غير كاف بان يطورها ولم تكن قد استقرت بعد .

وربما كان في امكان المشارقة ان يضيفوا شيئا الى هذا الفن الجديد ولكنهم جمدوا عند ما قننه ابن سناء الملك لم يحاولوا غير اظهار قدرتهم على النظم بتنميق وتحسين الاسلوب منصرفين عن اي ابتكار وتجديد فجاءت موشحاتهم متكلفة خالية من اي روح ابداعي ، وربما كذلك كان كتاب ابن سناء الملك سببا في هذا الجمود الذي وقف عنده المشارقة ، فهو ان عرفهم بموشحات الاندلسيين وبطريقة نظمها محددا لذلك تحديدات دقيقة ، فقد حصر افقهم ومنعه عن اي انطلاق .

ومهما يكن فقد استطاع الاندلسيون ان يحدثوا فنا جديدا يضاف الى فنون الشعر العربي وان يظهروا فيه شخصيتهم متميزة عن غيرها ، وقد غالى بعض الباحثين فانكروا ما في التوشيح من جديد وبالغوا في القول بضعف الشخصية الاندلسية فيه ، والدكتور شوقي ضيف ، وقد سبق ان اوردنا قوله في نشأة الموشحات ، من الذين يمثلون هذا الراي ، فهو يقول (والحق ان الموشحات وما تفرع عنها من ازجال لم تحدث ثورة واسعة على الاوضاع القديمة في الصياغة الفنية للشعر الفصيح وخاصة في صياغة التفكير (*)

اما عن صياغة الشكل ففي فصول هذا البحث ما يدل في وضوح وكفاء ، على ان التوشيح ليس فنا مشرقيا طوره الاندلسيون ، وان ظهوره كان ثورة على قيود الشعر العربي لا يصورها غير قول المرحوم كامل كيلاني بانها حطمت (اكبر قيد رزىء به الشعر العربي وهو التقيد باوزان وقواف خاصة لا يتخطاها احد ولا يجسر انسان على الانتقاص عليها بل ولا يؤذن

---

* الزجل في الاندلس ص 109
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 357

له ان يفكر فى ذلك . . وليس يستطيع ان يقدر اهمية هذا التطور الذي نشأ عن اختراع الموشحات او يتبين خطورته الا من تتبع الحركة النقدية عند العرب وعرف أن التقليد الاعمى كان رائدها فى اغلب الاحايين وان شدة تفانيهم فى المحافظة على محاكاة من تقدمهم من العرب وتتبع اساليبهم فى التفكير قد وصلت الى حد يدعو الى الحيرة) (※) .

واما عن صياغة التفكير ففي كلام الدكتور غير قليل من المبالغة والاسراف ، وأول ما نقول ان الشعر حين وفد الى بلاد الاندلس كانت لا تزال صبغته بدوية جافة فيها كثير من سمات الابل والصحراء ، ولكنه لم يلبث انتحرر منها ليستبدلبها صبغة متأثرة بالبيئة الاروبية الجديدة ، حقا ان الشعراء كانت تأخذهم شدة الحنين الى موطن اجدادهم فى الشرق فيلجاون الى ادب يستقون منه بعض اساليبهم وافكارهم ويتخذونه نموذجا لهم ينسجون على منواله، ولكن هذا لم يكن ليبعدهم عن الوطن الجديد الجميل الذي يعيشون فيه فيغفلوا عن طبيعته الخضراء بازهارها المزركشة المتمايلة واشجارها الباسمة المثمرة وجداولها المترقرقة ونوافيرها السالية وحدائقها الغناء ومنتزهاتها الليلية وقد انعكست على شلالاتها اشعة القمر ، او يغفلوا عن سمائه الصافية حينا والمطرة احيانا وما يلجا الناس اليه من مجالس يسودها الانس والغناء والشراب ، او يغفلوا عن ءاثار الفن النصراني المنتشرة فى كل مكان من كنائس وتماثيلوغيرهما مما يسترعيالنظر فى البلاد الاروبية.

جال الشاعر الاندلسي فى كل هذا او كثير سواه فتاثرت به نفسه وانفعلت قريحته فوصف كل ما وقعت عينه عليه ، لم يترك شيئا فى بيئته الا اتخذه موضوعا لفنه واصبح التحدث عن الطبيعة وجمالها عنده مدخلا لكل فنون القول فى الشعر .

وهو اذا وصف لا يحاول انتقاء صوره وانما هو يريد ان يصف كلمشاهداته يحشد لهاالصور المتزاحمة والتشبيهات المتنوعة لا يتردد ان يشبه اي شيء باي شيء ءاخر مهما كانت الرابطة قوية او ضعيفة وهو فى اغلب ذلك يعمد الى الخلق والابتكار وابداع المعاني الرقيقة والصور الجميلة يمزج ذلك كله بموسيقى عذبة خفيفة تجعلنا نحس فى شعره رشاقة تكاد تسيطر عليه فى الفاظه ومعانيه وذوقه وغير هذا مما يميز اغلب الشعر الاندلسي ولم يكن يعرفه المشارقة .

وربما كان هذا الجمال المبسوط فى كل مكان وما يزدحم فى ذهن الشاعر من رسومه وصوره سببا فى صرف الشاعر عن اطالة النظر واعمال التفكير اذ لم تترك له وقتا للتركيز والتعميق .

واذن فللموشحات قيمتها واثرها فى الادب العربي مهما انكر ذلك المنكرون ، ولولا عوادي الزمن التي جارت على فنها وعلى موطنه ، ولولا التقليد الجامد الذي وقف عنده المشارقة لكان لهذا الفن مكانته فى الادب العربي غير ما هي عليه ، وربما صادفت فترة انحدار فن التوشيح ان الادب العربي عامة كان قد بدا يتخذ طريق الانحطاط .

ولعل مما يزيد فى الدلالة على قيمة هذا الفن واثره فى ادبنا العربي تلك المحاولات التي قام بها لاحيائه بعض الشعراء المعاصرين فى البلاد العربية والمهاجر الامريكية الذين يسعون الى التجديد والتحرر من قيود القصيدة التقليدية فقد وجدوا انه يساير اذواقهم العربية وميولهم فى التطوير والتجديد .

الموشحات واثرها فى الادب الاروبي :

ولا نريد ان نختم هذا البحث دون ان نشير الى تاثير فن الموشحات فى الادب الاسباني وغيره من الاداب الاوربية التي اتصلت به منذ اواخر العصر الوسيط .

ففي فرنسا كان التروبدور les troubadours وهم شعراء بروفنس (※) Provence المتجولون يرحلون من منطقة الى اخرى فى فرنسا واروبا عامة يتنقلون من قصر الى ءاخر ويمدحون الملوك والامراء فى اشعار خالية من الوزن والقافية ليس فيها ما يبعث الموسيقى غير اتخاذ الحروف الصوتية Assounance ولكنهم لم يلبثوا بعد انتشار الموشحات ان اسرعوا الى تقليدها فاصبحت اشعارهم اكثر ايقاعا واعذب لحنا

※ نظرات فى تاريخ الادب الاندلسي ص 246
※ فى جنوب فرنسا

وربما طوروها عن قصد الى ما نجد فى قصائدهم اليوم من تشابك فى القوافي لم يكن يعرفه الشعراء فى الاندلس. وفى شعر لوكنت دي بواتيي le Comte de Poitiers وراهب مونتندون Le moine de Montandon ومجريت Magret منظومات الحان الروندي Rondet التي كانت شائعة فى القرن السابع عشر دليل على هذا التأثر الذي كاد ان يختفي بعد عصر النهضة حيث كانت الغلبة للغة الشمال التي كان شعراؤها يعرفون بالتروفير .

وفى ايطاليا كان التأثر ظاهرا الى ابعد الحدود بسبب اتصالها عن قرب بالمسلمين فى صقلية وقد اهتدى المستشرق الاسباني ميلاس فليكروزا (*) Millas Villiorosa الى الشبه الكبير بين موضوعات التوشيح وموضوعات شعر الفجريات ، وبين قالب الكنترستو Contrasto والبلاتا M. Ballata وقالب الموشحات .

ولعل التروبادور البروفانسيين هم الذين نقلوا هذا الفن الاندلسي الى ايطالية ، ففي كتب التاريخ ان الامير برنجر حين ذهب الى مدينة ميلان الايطالية ليقابل الامبراطور فريدريك الاول ليتسلم منه ظهير توليته رئاسة عمالة بروفنس ، صحب معه عددا من هؤلاء التروبادور ففتن بهم الامبراطور لما كانوا ينشدون من اشعار يغلب عليها الطابع الاندلسي، وعن هؤلاء مباشرة اخذ الشاعر الايطالي الكبير بطرارك قوالب فن الموشحات .

اما عن اسبانيا فقد بحث الكاتب الاشبيلي ارجوتي دي مولينا(*) Argote de Molina Gensalo مدى تأثير التوشيح والزجل فى الشعر الاسباني واشار الى ان الايام التي سبقت سقوط غرناطة وتلتها كانت بعيدة الاثر فى خيال الادباء الاسبانيين ، وربما كانت القصائد الموريسكية التي تحكي قصص المسلمين، ترجمات لبعض الاغاني العربية التي كان ينشدها الاندلسيون والتي كانت من نظم التوشيح والزجل كما ذهب الباحث الاسباني بيدال Menendez Pidal الى ان منظومات الشاعر الاسباني قسيس هيتا Hita التي كانت تتغنى بها الجماعات الاسلامية التي ظلت تعيش بعد الحكم العربي فى الاندلس كانت على نمط الاغاني العربية .

(*) انظر تاريخ الفكر الاندلسي ص 619

(*) انظر تاريخ الفكر الاندلسي 228 .

ولا شك أن المغنين والمنشدين المسلمين الذين اضطرتهم ظروف الحياة الى البقاء تحت الحكم المسيحي ساعدوا الى حد بعيد على بقاء فن العرب ، فقد حكى المؤرخ راسول بيدال أنه فى بلاط سانشوا الرابع ملك قشتالة كان عدد المنشدين الذين يتقاضون مرتبا من القصر سبعة وعشرين من بينهم ثلاثة عشر مسلما منهم امرأتان .

وربما كان ينظم هؤلاء اغانيهم بلغة عربية قد تكون فصيحة وقد تكون عامية ثم ينقلونها الى اللغة الاسبانية قبل انشادها فى مواسم الاسبان وحفلاتهم ، وقد كانوا فيما بينهم يتناشدون موشحات وازجالا يحنون فيها الى مجد الاندلس العربية يضمنونها ابتهالات الى الله وتوسلات برسوله كقول احدهم :

كن فى عون المسلمين ... يا اله العالمين
انت هو فرد صمد ... لم يكن قبلك احد
لارتضا خير العباد

وكقول اخر :

نزور قبر النبي ... صلى الله عليه
الجبال افتتن ... من جمال ان اعطاه
رب انعم عليه ... وتنزل اله طيبوا
يا عارفين به ... وصلوا عليه

وقد ضاعت كل هذه المنظومات كما ضاعت نفائس التراث العربي فى الاندلس ولعل اصحابها هم الذين دمروها حتى لا يقعوا فى قبضة محاكم التفتيش التي انتشرت فى مختلف انحاء البلاد تبحث عن مبطني الاسلام لتنكل بهم وتعذبهم .

وسرعان ما ضعفت عربية هذه الجالية الاسلامية فلجأ شعراؤها الى الاسبانية ينظمون بها فى نفس الموضوعات التي كانوا يعالجون من قبل من مدح للنبي وتوسل اليه .

اما بعد هذا فمن شعراء الاسبان الذين ساروا فى نظمهم على طريقة الزجل والتوشيح الفريز جاتو وجيمزدي اوريا Jimmez Diunea وهرنندو دي كاستيو وديجو دي فلنسيا Diego di Valencia وجارسيا فرنندز وغيرهم (*) من الشعراء الذين ظلوا حتى القرن السابع عشر يقلدون فى نظمهم شعر الموشحات والازجال .

فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي

للأستاذ
جمال بغدادي القادري

مفكر انجليزي معاصر اتى بنظريات جريئة فى مجال الدراسات الحضارية واستطاع بذلك رفع الستار عن بعض الحوافز الخفية التي دفعت شعوبا ابتدائية الى الازدهار الحضاري واخرى انحدرت الى التقهقر والعقم — انه لسؤال حير كل من اشتغل فى حقل الحضاريات وهذا السؤال الكبير يدور حول العوامل الاساسية التي خلقت هذه الحضارات الشهيرة ، وهل حدث ذلك عفويا ام بفضل العناية الالهية ام لامتياز عنصر عرقي وهل للظروف الطبيعية الجغرافية دخل فى هذا الاعتبار ام ان الثورة الاقتصادية هي الشرارة الاولى التي حفزت الهمم .

ان تاريخ الفكر الفلسفي اعتنى — فى جملة ما اعتنى — بهذا اللغز وتصدى له بعزم مفرطا فى التحيز متواضعا حينا ءاخر ، وءاخر هذه المحاولات ما كتبه الفيلسوف الانجليزي « ارنولدتويني » فى كتابه « دراسة فى التاريخ » حيث عرض باسهاب نظريته الشهيرة حول العوامل التي جعلت الشعوب البدائية تنشىء الحضارات الخالدة وكيف تنحدر بعضها الى الخمود والموت .

وقد بدا كتابه بانتقاد المفاهيم الشائعة فى هذا الموضوع فهو لا يقبل ربط الحضارة بالامة لان مدلول الحضارة اوسع مجالا واشمل رقعة فانجلترا تدخل فى حقل الحضارة الغربية او الحضارة المسيحية ولم تكن هي بنفسها حضارة خاصة بها — ولهذا امكن تقسيم الحضارات المحلية — ان صح هذا التعبير — الى وحدات اجتماعية ذات سمات حضارية مشتركة مع الحضارة الام — وهو ينتقد بشدة تلك الاسطورة التي تزعم ان الغرب شعب الله المختار ، وان الشرق لا سبيل له الى الابداع الفني او الاختراع العلمي الاصيل مع ان التاريخ الحضاري يثبت ان الشرق لم يكن جامدا مقلدا فى كل حين وان الغرب لم تجد الجهالة سبيلا اليه .

ومن الخطا ايضا الظن بان المخطط البياني لتطور الحضارات يسلك الخط المستقيم بدون انحراف او اعوجاج ، فالواقع ان التطور سلك دوما مسلكا « لولبيا » ، فتارة يرتفع وتارة اخرى ينحدر وينخفض المستوى — وليس صحيحا ايضا ان مصر ، هي ام الحضارات كما نجد هذا الزعم عند اغلب من اهتموا بدراسة الحضارات لان الحفريات تكشف لنا كل حين عما وصلت اليه شعوب ما قبل العهد الفرعوني من تقدم مادي وفكري .

ومفهوم التصنيف الحضاري عند توينى يقوم على اساس ما لهذه الحضارات من قوة حية ديناميكية او مالها من صحة الجمود والانقطاع ، ولهذا نراه يقسم الحضارات البشرية حسب هذا الراي الى احدى وعشرين حضارة منها خمس عشرة حضارة استطاعت ان تنقل من حالة الجمود الى طور ديناميكي خلاق ، وست حضارات بقيت على حالتها البدائية الجامدة .

وبعد هذا التقسيم ندخل مباشرة فى صميم المذهب التويني حينما نتساءل عن الاسباب التي جعلت هذه الشعوب البدائية تنسلخ من حالتها الجامدة الى طور حي فما هو الطور الحضاري الحقيقي وما هي الدوافع الفعالة التي كانت العامل الاساسي فى هذا العبور .

هل كان ذلك بسبب امتياز **العرق** كما يزعم جل علماء الاجناس الذين يعتبرون المميزات الفيزيولوجية النفسية هي المحرك الاول ، فكأن هنالك امتيازا لجنس خاص (هو الابيض) على الاجناس الاخرى ، وجواب توبني ان استقراء بسيطا لتاريخ الحضارات يثبت انها لم تكن منحصرة في عرق واحد بل نرى كل الاجناس لها نصيب واسهام . اذن هل للبيئة الطبيعية والظروف المناخية شان في نشوء الحضارات على اساس ان الاقليم المعتدل والموقع الجغرافي المواتي هما من جملة الحوافز البيئية على الازدهار الحضاري ؟ ان توبني يرفض مرة اخرى هذا الراي لان البيئة وحدها عاجزة عن تفسير هذا الانتقال من طور جامد الى طور حي ، لان وحدات اجتماعية كانت عديدة موجودة في ظروف جغرافية متشابهة ولكنها مختلفة كل الاختلاف من حيث السمة الحضارية المميزة .

ان التفسير الوحيد الذي يشرح لنا تماما فكرة النشوء الحضاري تفسير نفسي النزعة قائم على مفهوم التحدي والاستجابة : تحدي من الطبيعة والظروف البيئية والاجتماعية الصعبة واستجابة ناجحة من طرف الانسان اي رد التحدي الخارجي بالتحدي البشري النفسي على هذه العوارض في طريق الانطلاق الحضاري .

وهنالك ادلة « تاريخية » تؤكد راي توبني في مفهوم التحدي : قبل فجر المدنية كانت البوادي الافريقية الاسيوية – الصحراء الكبرى وبلاد العرب – ملأى بالاعشاب والمياه ثم ان جفاف هذه السهول الخصبة كان عبارة عن تحدي للسكان ، فقابلوه بطرق مختلفة فالبعض ظلوا مقيمين فيها انما بدلوا عاداتهم واصبحوا بدوا رحلا ، والاخرون انتقلوا الى المناطق المدارية في الجنوب حيث الغابات وحافظوا على حياتهم الابتدائية ، واما الآخرون فقد دخلوا مستنقعات وغابات وادي النيل والدلتا وقبلوا التحدي وعملوا على تجفيفها واعدادها للزراعة واتوا بالحضارة المصرية . وكذلك الحضارة السومرية فقد ظهرت بنفس الاسلوب في دلتا الدجلة والفرات ، وكذلك حضارة الصين في وادي النهر الاصفر ، لا ندري من اي نوع كان التحدي ولكن الاحوال كانت صعبة ، والحضارة الايجية المينوسية كان اصلها تحدي البحر للسكان وردهم على تحدي البحر بالتغلب باقامة السدود والحواجز وغير ذلك .

ويمكن حصر هذه التحديات الخارجية والدوافع البيئية في خمسة انواع :

1 – **دافع الاراضي الصعبة** : كما في المانيا ووادي الرين حيث نجد فيها الظروف الطبيعية صعبة ولكن الانسان قهرها وتغلب عليها حينما عبد الجبال واقام السدود وازال الاحراش وجفف المستنقعات .

2 – **دافع الارض البكر** : اي ان الارض الجديدة تثير الهمم والارض البكر تولد رد فعل اقوى من ذلك الذي تولده ارض ذات حضارة سابقة ، وهكذا ازدهرت الحضارة المسيحية والاسلامية خارج مهود نشأتها الاولى .

3 – **دافع النكبات** : ان الهزائم العسكرية والاحتلال الغاشم كثيرا ما يكون حافزا على التغلب على هذه النكبات مثال ذلك هزيمة العثمانيين على يد تيمورلنك استثارت نخوة محمد الفاتح فاستولى على القسطنطينية – وكذلك المانيا بعد الحرب الاولى .

4 – **دافع الضغط** : هذه الحالة كثيرا ما نلاحظها عند الشعوب المتاخمة على حدود دولة دائمة التحفز العدواني فهذا الخطر الداهم على الحدود من شانه ان يخلق عندهم تحديا له واستعدادا متواصلا كما حدث في تاريخ الحضارة المصرية مع هجومات وغارات البدو المتواصلة .

5 – **دافع العقوبات** : ان ما لاقته بعض الاجناس البشرية والطبقات الاجتماعية من الوان الاضطهاد على ايدي الفئات الطاغية المستبدة كان باعثا لطوائف تلك الاجناس على خلق ارقى وازهى الحضارات فالحرمان من المفقود يحفز المحرومين على التعويض عما فقدوه من حق المشاركة في بعض الميادين بالتبريز المبدع في ميادين اخرى .

واذا كانت هذه العوامل من شأنها ان تشرح لنا اسلوب الحضارات فهي غير كافية لتوضيح نمو الحضارات اي ان الحضارة قد تنشأ ولكن قد لا تنمو ، فاذا كان التحدي يشرح لنا سر النشأة الاولى فلابد من شيء اخر لاستمرار التقدم الحضاري فالتحدي يجب أن يستدعي رد فعل ولكن لابد من تحد ثان وثالث ورابع ، ورد فعل ثان وثالث ورابع وهكذا ، اي هناك مرحلة تخلخل فتوازن فتخلخل فتوازن ، وكلما استمرت هذه الدورة نمت الحضارات ، واذا ما توقفت حركات التحديات وردود الفعل توقف النمو ، فهنالك اذن تحقيق غاية وصراع جديد او حل مشكلة ومجابهة اخرى .

والتقدم الحضاري هو تقدم بشري لا مـــادي او تقني ، لان الاعتبار في الحضارة اعتبار كيفي لا كمي ، والحضارة لا تقوم على مجهود افراد منفردين او على جماعات مستقلة عن الافراد ، وانما على التفاعل الجيد بين الفرد والمجتمع ، او بعبارة اوضح الى وجـــود القوة الخلاقة المنحصرة في الاقلية الموجهة التي تدفـع بالمجتمع الى الامام .

والحضارة تسقط وترجع القهقرى اذا ما توقفت الردود الفعلية على التحديات الخارجية او حينمـــا تضعف هذه الفئة الموجهة في القيادة وتعجز عن ايجاد الحلول الناجحة للصعوبات الخارجيـة ، او نراهـا تصبح فئة مسيطرة لا خلاقــة .

ويعلق توينبي على فكرة التحدي فيقول بان التحدي يجب ان نفهمه ضمن الاستطاعة البشرية اي أن تحدي الطبيعة يجب الا يكون فوق ما يتحمله البشر ، اذ ان لهذه التحديات الطبيعيــة والبشرية مدى معينـــا يجب الا تتعداه حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة ــ فهي ليست مما يعجز الجهد البشري ولا مما ينقاد له بسهولة كل الانقياد ، فالرخاء المفرط في البيئة عـدو الحضارات اللدود (كما في المنطقة الاستوائية حيث كل المواد الغذائية متوفرة) ، وكذلك قسوة العوائق قسوة خارقة من شانها ان تشل كذلك النشاط الانساني ، وتسقط الاجنحة الحضارية قبل اوانها (سكان المناطق القطبية والصحراوية) فالتحـدي المقصود اذن هـو التحـدي المستطـاع .

فالحضارة تنمو اذا ماتوفرت هذه الشروط ، وهي تبدأ في الانحدار والضعف متى مازالت هذه الشروط. ورأي توينبي حول الحضارة المعاصرة راي يتارجح بين حلين لا ثالث لهمـا :

اما ان تقوم حرب عالمية ذرية ماحقة لان الفئـة الحاكمة فشلت في ايجاد الانسجام بين حاجيات الناس وبين واقع البيئـة .

واما ان تقـوم حضارة عالمية واحدة تنهض بهـا الديانة الرباعية المنشودة وهـي المسيحية والاسـلام والبوذية والهندوكية ، ولابد من هذا التعاون لان كل دين من هذه الاديان الاربعة يكمل نقص الآخر : فالمسيحية غنية بالمفاهيم الانسانية ولكنها في حاجـة الى واقعية الاسلام ــ والهندوكية والبوذية لابد مـن ان تطعما بالفلسفة الاسلامية والمسيحية ــ والاسلام كما يدعي توينبي في حاجة الى القيم الانسـانية الرفيعة للاديان الثلاث الاخرى ، فخلاص العالم وانقاذ الحضارة المعاصرة سيكون على يد هذه الديانـة الرباعيـة لان توينبي يستبعد النظرة المتشائمة الاولى في قيام حرب طاحنة عالمية ، ولكن الحل الثاني صعب التحقيق ولابد من افراد يتحدون التناقض الحضاري المعاصر باقامة فلسـفة دينية جامعة وبها فقط يكون خلاص العالم .

ان اهمية فلسفة « توينبي » التاريخية راجعة الى تحويل المفاهيم الحضارية من الحقل المادي الاقتصادي البحت الى الاعتبارات النفسية الباطنية التي لـم تكن في حسبان فلسفة القرن التاسع عشر وأوائـل القرن العشرين ، وكذلك تاتي جدة هـذه النظرية في اعادة ارجاع الحق المهضوم للدين كانقاذ البشريـــة وكطريق للخلاص ، فكان توينبي يعكس ميـل العصـر ويلخص الطابع الذي اصبـح هـو السائـد في كتابـة الكتـاب ودراسة الدارسيـن ، وهـو بذلـك اعـار للنفس البشرية وللروح الدينية مكانتهما في حل الغاز الماضي السحيق ، وفي قيادة الحضارة الانسانية الـى هدفها الحقيقي هـذا الهدف النبيل الذي لا ينكره الا جاحد متعصب كافر بالقيم الخالدة .



كنت اشرت فى مقال سابق (*) الى ان من نوادر المخطوطات العربية ، وذخائر المكتبة المغربية (كتاب المترع البديع) فى تجنيس اساليب البديع .. - لابي محمد السجلماسي ، واعطيت صورة مختصرة عنه ، لكنني كنت اجهل كل شيء عن مؤلفه ، والآن - وقد تصفحت الكتاب وقرات كثيرا من مباحثه وفصوله - احببت ان اعود الى الموضوع ، واعرف بالكتاب وبمؤلفه ، سيما والكتاب صفحة مشرقة من تاريخنا الادبي ، والمؤلف من الشخصيات الغامضة التي طواها الاهمال من سجل التاريخ ، وكان الذي دفعني الى هذا امرين :

1) ان ابن خلدون ذهب فى المقدمة ، الى ان المغاربة لم يؤلفوا فى البلاغة والبيان ، لدقة انظارهما ، وغموض معانيهما (*) ، وشايعه على هذا الرأي طائفة من مؤرخي الادب العربي فى العصر الحاضر (*) ، وخير وسيلة - فى نظري - لتصحيح هذا الخطا ان نعرف ببعض الكتب التي الفها المغاربة فى البلاغة والبيان ، قبل عصر ابن اخلدون ، ونعرض نماذج حية منها على انظار القاريء ليشاطرنا الرأي .

2) فتح قوس لترجمة عالم مغربي فذ ، لم تذكر كتب التراجم حتى اسمه ، فضلا عن تاريخ حياته ، شأنها فى ذلك مع كثير من نوابغنا ، وقديما وسم اهل المغرب بالتقصير ، واهمال تاريخهم . وما لنا نذهب بعيدا ! ، فالى عهد قريب كنا لانعرف اي شيء عن المراكشي مؤلف المعجب ، وابن عذاري صاحب البيان المغرب ، واضرابهما ولولا كتابهما الخالدان اللذان عثر عليهما مؤخرا ، وكان الفضل فى نشرهما لبعض المستعربين ، لما كان لذكرهما وجود ، ولظلت آفاق فى تاريخنا من مجاهل التاريخ .

وابو محمد السجلماسي من هذا القبيل ، فقد اخطات عين الزمان - وهو البصير الحاد - نسخة فريدة من كتابه (المترع البديع) فكانت كنافذة يشع منها بصيص من النور على جنبات من حياة المؤلف ، ومن خلال هذا الكتاب يستطيع الباحث ان يضع الخطوط الاولى لترجمته . والمؤلف هو ابو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الانصاري السجلماسي ، وما ذكره بروكلمان فى المجلد الثاني من ملحقه ص 16 - من ان مؤلف المترع البديع ، هو ابو القاسم محمد .. اعتمادا على ما فى فهرس الدحداح - فلعله تصحيف او فيه تقديم وتاخير ، والاصل ابو محمد القاسم .. ويؤيد هذا ماجاء فى ديباجة المخطوطة التي بين ايدينا قال : قال شيخنا الاستاذ الاكمل العالم الاوحد الافضل ، القدوة الصدر المتفنن ، المتقن الاحفل ، ابو محمد القاسم بن محمد .. وجاء فى الخاتمة : قال الامام ابو محمد مؤلفه رضي الله عنه كمل هذا الوضع وفرغ من املائه وتاليفه بحمد الله - فى الحادي والعشرين لصفر (عام) اربع وسبعمائة هـ

ويبدو ان واضع الديباجة والخاتمة هو ناسخ الكتاب ابراهيم بن محمد الغساني ، الذي ذيل المخطوطة - على عادة الناسخين - بقوله : كمل بحمد الله .. على يدنا نسخه ابراهيم بن محمد الغساني الشهير بالوزير وذلك بمدينة فاس - حرسها الله -

---

* نشر هذا البحث فى العدد العاشر (الممتاز) من مجلة دعوة الحق ص 67 السنة الثالثة .
* - ص 1036 - ط دار الكتاب اللبناني .
* وحتى الزيات - على تحريه وتثبته . انظر ص361 : تاريخ الادب العربي .

وكان الفراغ منه سابع رجب عام تسعين واربعمائة هـ ــ «كذا» ولعل الصواب : سبعين وسبعمائة بالباء الموحدة فيهما ، والخطا من الناقل لا من الناسخ الاول (الفساني) ويجوز ان يكون ابو القاسم بن محمد بن ابراهيم الفساني المعروف بالوزير ، الطبيب المغربي المشهور ، صاحب المؤلفات العديدة فى الطب المتوفى 994 هـ ــ من حفائد الفساني المذكور ، ومهما يكن ، فالذي يترجح ان كنية المؤلف هي ابو محمد ، واسمه الخاص القاسم .

وابو محمد من العائلات الانصارية التي وردت على المغرب فى فترات تاريخية ، وهي منتشرة بكثرة فى الاوساط المغربية والاندلسية ، ويوجد مكتوبا على ظهر الورقة الاولى من المخطوطة فى زاوية الى اليسار بخط خفي : (الانصاري النجار ، السجلماسي الدار).

ويبدو مما جاء عرضا ــ فى درة الحجال ــ ج 2 469 ــ : ان النسبة الاصلية لابي محمد تنوسيت وتنوسي معها ان ابا محمد ولد ونشا بسجلماسة ، ورحل الى فاس للاخذ عن علمائها ، وجلس للتدريس بها ، وهناك ، ومن احد كراسي (القرويين) املى على تلاميذه كتابه (المنزع البديع) وفرغ من املائه اواخر صفر عام اربع وسبعمائة هجرية ، وممن تلمذ له ابراهيم بن محمد الفساني الشهير بالوزير ، اما متى ولد ؟ ومتى توفى ؟ واين ؟ فذلك مالانستطيع تحقيقه الآن ، وكل ما نستطيع ان نقول هو ان ابا محمد السجلماسي من مواليد النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وان وفاته ربما كانت فى العقد الثاني او الثالث من المائة الثامنة للهجرة .

وعاش ابو محمد فى العصر المريني ، الذي ازدهرت فيه علوم العربية ، وبلغت ما لم تبلغه فى اي عصر كان ونال علم البيان اعتناء كبيرا ، والمرجح انه فى هذا العصر ابتدا تدوين البلاغة بالمغرب ، وربما كان ابو محمد السجلماسي اول مؤلف فيها بالمعنى الصحيح . وممن اسهم فى هذا الميدان من علماء هذا العصر :

1) **ابن البناء المراكشي** : ابو العباس احمد بن محمد بن عثمان (721 هـ) له كتاب (الروض المريع فى صناعة البديع) وتكلم عن كثير من مسائل البلاغة فى تفسيره لسورة الكوثر ، حتى قال بعضهم : ان ابا عبد الله الضرير المراكشي استقى منه كثيرا فى نظمه لمصباح ابن مالك فى المعاني والبيان (1) .

2) **ابن رشيد** : ابو عبد الله محمد بن عمر السبتي (721 هـ) واكثر مباحث ابن رشيد فى البديع ، وله فى ذلك كتابان : احكام التاسيس فى احكام التجنيس ، ــ وايراح المريع لرائد التسجيع والترصيع .

3) **ابو القاسم الشريف** : محمد بن احمد السبتي (760هـ) له شرح على مقصورة حازم سماه رفع الحجب (المنشورة) ، على محاسن المقصورة ، تناول فى مقدمته دراسة اصناف البديع ، وكثيرا من مسائل البيان كالتشبيه والكناية والاستعارة .

4) **ابو عبد الله المراكشي** : محمد بن عبد ارحمان الضرير (807هـ) له رجز فى علوم البلاغة ، حاذى فيه مصباح ابن مالك ، قيل انه التقطه من الحلية ، والطيبي ، والتجديهي ، والصناعتين للعسكري .. واخذ كثيرا من تفسير سورة الكوثر لابن البناء ــ كما اشرنا الى ذلك سابقا . ولابي عبد الله الضرير شرح على هذا الرجز املاه على تلاميذه فى حلقات دروسه بمراكش

ويجب ان نلاحظ ان هناك ظاهرة تبدو جلية على مؤلفات هذا العصر ، وهي انها اتجهت اكثر الى الصنعة اللفظية ، والمحسنات البديعية ، حتى الذين الفوا فى البلاغة والبيان ، حاولوا ان يكسوها حلة بديعية ، وجعلوا عناوين كتبهم (البديع) ولعل للعصر الذي عاشوه اثرا فى ذلك ، ومعلوم ان العصر المريني كان عصر الزخرف والصنعة ، طغت على رجال الادب فيه (موضة) التفنن والابداع ، وربما كان هذا هو الحامل لابن خلدون ان يقول فيهم ماقال .

وكان ابو محمد السجلماسي على جانب كبير من الثقافة اللغوية والادبية ، وله تضلع فى النحو ومذاهبه ومشاركة فى التفسير والحديث ، والفقه والاصول ، وله المام بعيد فى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وكان متاثرا بفلسفة ارسطو ، وله آراء فى البلاغة والنقد تتجلى فى كثير من مباحث كتابه (المنزع البديع) .

* الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ــ عباس ابن ابراهيم ج 4 ــ ص 127 .

ومن شيوخه — كما قال في نوع الترصيع — ص 143 — قال : قال لي شيخنا ابو عبد الله — قدس الله روحه — ان سورة الواقعة من نوع الترصيع ، وتتبع اجزائها يؤذن بان فيها موازنة قال : ويحتمل كلام الشيخ (ض) وجهين : احدهما ان تكون تسمية السورة بجملتها ترصيعا ، اعتبارا لاحد جزايها ، والثاني ان يكون سماها بجملتها ترصيعا ، الغاء للفصلين بين الترصيع والموازنة كما فعل ابو الفرج قدامة ، فانه جعل الترصيع والموازنة بابا واحدا وترجم عليها باسم الترصيع ، وبالجملة فما لم يكن منها في نوع الترصيع فهو في الموازنة ، وهما متقاربان وكل ذلك مما ورد في التنزيل ، وما ورد منهما فيه ففي اعلى طبقة لتوفر الشروط فيهما .

واوردت هذا النص برمته ليعلم القاريء من خلال هذا النقاش بين الاستاذ وتلميذه — ان مدارسنا في هذا العصر كانت تدرس البلاغة في مستوى عال ، وفي جو قرآني ادبي ، وكان لكتاب ابي محمد السجلماسي صدى في الاوساط الاندلسية ، وتقبل حسن من علمائها ، فهو لم يكد يظهر الى الوجود ويرى النور حتى راينا عالم المرية ابن ليون سعد بن احمد بن ابراهيم التجيبي 750 هـ يقدم له خدمة جليلة وما احراه بها — فيهذبه ويزيل ما به من منطقيات وفلسفيات ، وربما كان هذا الفرع افيد من اصله (*) .

واذا اوضحنا بعض جوانب من حياة المؤلف فلنعد الى الكتاب ، ولنبدا — باديء ذي بدء — بالتعريف بالمخطوطة وهي — فيما اعلم — نسخة فريدة لا اخت لها ، توجد بمكتبة المعهد العالي بتطوان تحت رقم 932 ، والمخطوطة مجلد ضخم يقع في 236 — صفحة من القطع الكبير ، النوع القديم ، في كل صفحة 26 سطرا بخط مغربي جيد ، وتعتبر هذه النسخة على مايبدو — الفرع الثاني للاصل وهو منقول عن الفرع الاول لتلميذ المؤلف : ابراهيم الغساني السالف الذكر

والنسخة كثيرة التصحيف والتحريف ، مما يجعل القاريء يقف طويلا في قراءة كثير من فصول الكتاب ، ويحار احيانا في فحهم بعض عباراته ونصوصه .

والكتاب يبدأ بمقدمة ابان فيها المؤلف ان الغرض من كتابه : (احصاء قوانين اساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان واساليب البديع ، وتجنيسها في التصنيف وترتيب اجزاء الصناعة في التاليف ، وتحرير تلك القوانين الكلية ، وتجريدها من المواد الجزئية) ، ثم بين ان كتابه يشتمل على عشرة اجناس : الايجاز ، التخييل ، الاشارة ، المبالغة ، الرصف ، المظاهرة ، التوضيح ، الاتساع ، الانثناء ، التكرير) .

وقد اوضح المؤلف في هذه المقدمة ، وفي كثير من ابواب الكتاب ان موضوع كتابه ليس علم البديع فقط — كما يوهمه عنوان الكتاب — بل ما يشمل البيان ، على ان اطلاق البديع على ما يشمل علوم البلاغة استعمال قديم منذ عهد الجاحظ الى ما بعد القرن الخامس الهجري ، وربما كان السكاكي اول من قسم البلاغة الى معان ، وبيان ، وبديع ، وجعلها علوما ثلاثة واقام الحواجز الفاصلة بينها ، وهو تقسيم لم يقل به احد قبله ، ولا ينبني على اساس صحيح (*) وقد يكون مؤلفنا السجلماسي استوحى فكرة تقسيم البلاغة الى عشرة اجناس من ابي بكر الباقلاني (430) في كتابه اعجاز القرآن ، فهو بعد ان سرد انواعا من البديع بما فيها التشبيه والاستعارة والمماثلة ، قال ان ذلك باب من ابواب البراعة ، وجنس من اجناس البلاغة ، وذكر ان البلاغة عشر اقسام الايجاز ، التشبيه ... الخ .

والرماني (384) يجعلها في كتابه النكت ثمانية : (الايجاز ، الاستعارة ، التشبيه ، البيان ، النظم ، التصرف ، المشاكلة ، المثل) وابو محمد اعتمد كثيرا على هذين الكتابين ، وان كان نقد ابا بكر في عدة مسائل ، على ان فكرة التجنيس والتنويع ذهبت ببعضهم الى ابعد من هذا ، فهذا ابو القاسم عامر بن هشام القرطبي ، كاتب ابي عبد الله حفيد ابن عبد المومن — المتوفى 623 هـ — الف كتابا في اجناس التجنيس ، وطريقة الاجناس والانواع وان كانت تقوم مقام الابواب والفصول ، وفيها تجديد وضبط لقواعد الفن ومسائله ، فهي طريقة فلسفية عميقة ، تخضع لحدود ورسوم منطقية ، لاعلاقة لها بجو البلاغة ، ولا تمت بصلة الى موضوعها الفني .

---

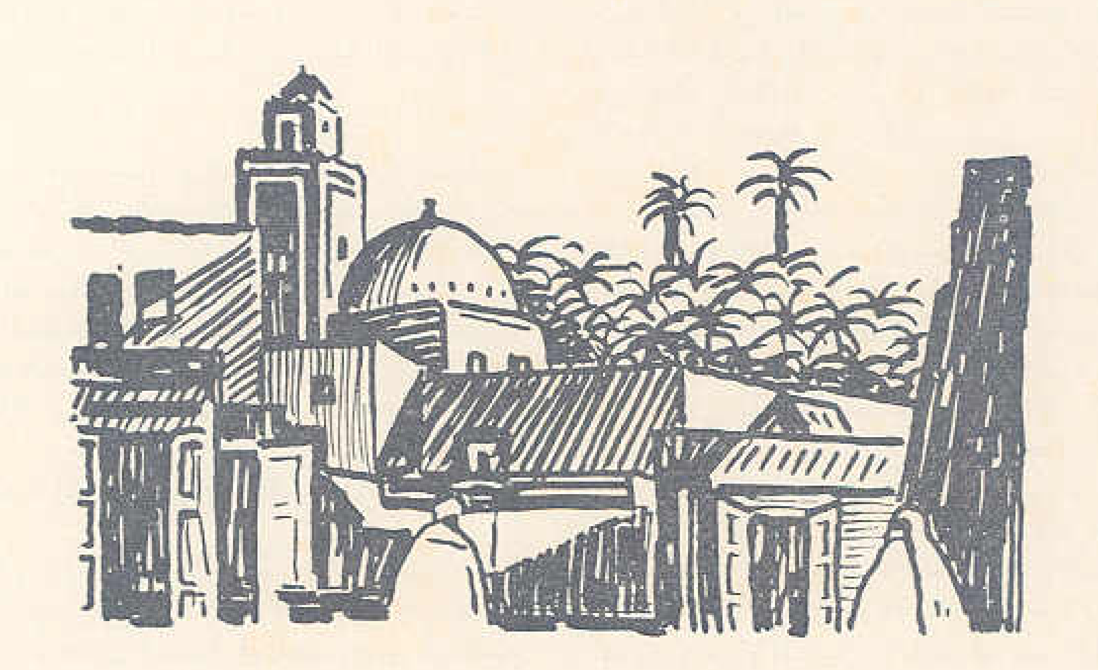
* انظر درة الحجال المرجع السابق .
* انظر تاريخ علوم البلاغة للمراغي ص 111 \ 115 .

واذا كان هناك ما يؤخذ على المؤلف ، فهذه التقسيمات الفلسفية ، والتعريفات المنطقية التي دفعته اليها طريقة التجنيس والتنويع ، والتي اصبح خاضعا لها ـ اراد ام لم يرد ـ مع كل جنس من الاجناس العشرة التي بني عليها كتابه ، فهو مضطر لان يعرف لنا ما هو الجنس ؟ وهل هو عال ، او متوسط ، او اسفل ؟ وما هي الانواع التي تندرج تحت كل جنس ؟ وما هناك من فروق ذاتية ، وعرضية ؟ فبينما نرى المؤلف في ظلال ادبية : تشبيهات بديعية ، وكنايات جميلة ، مع البحتري ، والمتنبي ، وابي تمام ، او مع ابن خفاجة ، وابن زيدون، اذا به مع ارسطو ، والاسكندر ، والفارابي ، وابن سيناء ... وربما اقحم نفسه في حرب عنيف مع المشائين والسفسطائيين .

وهنا ننشد مع البحتري قوله :

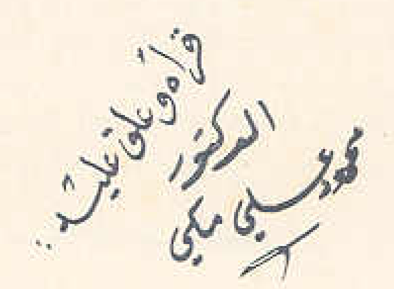
كلفتمونا حدود منطقكم
والشعر يكفي عن صدقه كذبه (*)

(*) ويعني بالكذب في الشعر ـ كما يقول عبده ـ التخييل ، والذهاب بالنفس الى ما ترتاح اليه من التعليل .



معرض الكتب





في السطور التالية نقدم عرضا لكتاب « افريقيا الجديدة » الذي وضعه الكاتب الالماني الاستاذ رولف ايتاليانِدر المتخصص في الشئون الافريقية ، وهو كتاب نرى انه يجدر بكل افريقي ان يقرأه حتى يعرف بلاده خيرا مما يعرف ، واذا كنا نقول ذلك عن اهل افريقيا فان كل اوربي وامريكي اولى بان يطالع هذا الكتاب ، ولو انهم فعلوا لاقنعهم بانتهاج طريق غير الذي انتهجوا حتى الآن ازاء قارتنا المقاسية المكافحة ، وهو اخيرا كتاب يدل على انه ما زال في اوربا كتاب ومفكرون استروحت قلوبهم نسمات الانسانية والعدالة بصورة تستحق الاعجاب والتقدير .. هو كتاب يدل على ان الدنيا ما زالت بخير ....

حضارة اوربا :

(ليست الحضارة الاوربية الا جهازا هائلا لنشر الدمار والخراب، فهي لا تستهدف الا امتصاص طاقات الشعوب التي تبسط سيطرتها عليها ، وابادة الاجناس التي تجرؤ على الوقوف في طريقها ، انها على الرغم من كل ما تصطنعه من مظاهر الرقي والتطور لا تعدو ان تكون « حضارة آكلي لحوم البشر » ، فهي تقوم على اساس اضطهاد الضعفاء والاغتناء على حسابهم ، ونشر الكراهية والحسد بين مختلف الاجناس والامم . انها مدنية علمية ـ لا ننكر ذلك ـ ولكنها متجردة من الانسانية .. هي قوة جبارة ليس في ذلك شك ، ولكن قوتها تعود الى انها تركز جهودها من اجل الوصول الى هدف واحد : هو جمع الثروة ، وهي ـ باسم القومية ـ لا تتورع عن الخيانة واخلاف الوعود ، ولا تكف عن نصب حبائل الاكاذيب وخداع السذج البسطاء .. هي حضارة وثنية وان اصطنعت غير ذلك ، فنحن نراها في كل مكان تسيطر عليه مقيمة اصناما هائلة للاله الوحيد الذي تدين له بالعبودية : اله الترف ..

ترى الانسانية راضية بان تقودها مثل هذه الحضارة الى هاوية الخراب ؟) .

هكذا تساءل (رابندرانات طاغور) فيلسوف الهند الاكبر حينما نشبت الحرب العالمية الاولى في سنة 1914 ، وبهذه العبارة ختم الكاتب الالماني الحر « رولف ايتاليانِدر » كتابه عن « افريقيا الجديدة »

ولعل هذا الكاتب احد الاوربيين القليلين الذين حاولوا ان يتفهموا مشاكل القارة الافريقية بعيدا عن التعصب والغرور اللذين يطلان دائما من سطور ما تكتبه عن افريقيا اقلام الاوربيين ، وهو استاذ جامعي يتولى تدريس تاريخ افريقيا وحضاراتها في عدد من الجامعات الامريكية ، كما انه عضو في كثير من معاهد اوربا وامريكا المتخصصة في دراسات علم الاجناس ، وقد نشر من قبل كتبا كثيرة حول القارة الافريقية من اذيعها واوسعها انتشارا كتاب « القارة القلقة » ، وكتاب « متى تذهب ايها الرجل الابيض ؟ » وكتاب « من الغابة الى الصحراء » وفيه ضمنه انطباعاته حول زيارته للكونغو وتشاد والصحراء الكبرى .

طريق السلام :

ونعود الى كتاب «افريقيا الجديدة» الذي اختار مؤلفه لخاتمته تلك الكلمة المأثورة عن رابندرانات طاغور ، وفي هذه الخاتمة يعلق الاستاذ ايتاليانِدر على هذه العبارة ، فيقول ان الحق يقتضي من الاوربيين جميعا ان يعترفوا بانها صادقة صحيحة بريئة من

التعصب او المبالغة ، وهو امر مؤسف الا انه اذا اردنا ان نصلح اخطاء الماضي وننتهج طريقا جديدة يؤدي بالعالم الى السلام فانه لابد للمفكرين الاوربيين الاحرار ان يتحملوا تبعيتهم فى « تحرير » شعوبهم من تلك الجرائم التي طالما ارتكبوها ولوثوا بدمائها ارض القارة الافريقية .

ماذا فعلت باخيك ؟

وقد كان من اول هؤلاء المفكرين الاحرار الذين رفعوا صوتهم منادين بذلك الكاتب الفرنسي رومان رولان الذي قضى الشطر الاعظم من حياته مدافعا عن الثقافة الاوربية حتى فطن اخيرا الى مدى ما في هذه الثقافة من عناصر الفساد والانحلال ، فاذا به في سنة 1916 يكتب قائلا :

(ان حضارتنا الاوربية اصبحت تفوح منها رائحة الجيف .. انها جسد ميت يدعو اليه الدافنين حتى يريحوه ويريحوا منه بمواراته في التراب) .

ويذكر رومان رولان في معرض الحديث بين الرجل الابيض وافريقيا السوداء ان هناك اسطورة شائعة بين الافريقيين يفسرون بها علة بياض بشرة الاوربي ، اذ يقولون ان الله تعالى سأله : ماذا فعلت باخيك الافريقي ؟ فشحب وجهه وابيض من فرط الخجل والخزي ، وبقي هكذا الى الابد ..

على من تقع التبعة ؟ :

ان التبعة في كل ما قاسته شعوب القارة الافريقية في الماضي وما تقاسيه في الحاضر انما تقع على الاوربيين وحدهم، واذا كنا نريد اليوم ــ نحن الاوربيين ــ ان نكفر عن جرائمنا فينبغي علينا ان ننسى غرورنا واعتقادنا الخاطىء باننا اسمى من غيرنا .. علينا ان نحاول اقامة علاقاتنا بشعوب افريقيا وآسيا على اساس جديد من الاحترام والحب والاخاء .. علينا ان نطهر انفسنا من شوائب الماضي قبل ان ندعو الشعوب الافريقية الى احترامنا او الثقة فينا ، فاننا ما دمنا على ما نحن عليه فانه ليس من شك في اننا غير جديرين بأي ثقة ولا احترام ..

التبشير :

لقد اعتدنا مثلا على اعتبار ديننا هو المثل الاعلى للقيم الروحية دون ان نحاول تفهم ما في الاديان الاخرى من فضائل ، وساقنا الغرور الى محاولة فرض المسيحية على كثير من الشعوب الافريقية المسلمة عن طريق سياسة تبشيرية حمقاء ، كان التبشير يسير فيها مع الاستعمار في ركاب واحد ، لقد تدخل المبشرون في السياسة بشكل مباشر واصبحت مهمتهم هي تخدير الافريقيين واتخاذ نشر الدين ذريعة لمد السيطرة الاستعمارية عليهم وابقائهم خدما ان لم نقل عبيدا للرجل الابيض ، اترانا نعجب اذا راينا الافريقيين يسعون في اول عهدهم بالاستقلال الى طرد هؤلاء المبشرين الذين لا يمثلون الا ظلم الاستعمار وطغيانه واما المسيحية فانها منهم بريئة ..

الثقافة :

وقد اعتدنا الا نعترف بثقافة الا ان تكون ثقافتنا الاوربية وكان العالم خلا من الثقافات قبلنا ، وكاننا نسينا ان حضارتنا لم تولد الا على اساس ما اغترفته مع منابع الحضارات الوثنية التي قامت في العالم القديم والحضارة الاسلامية التي ازدهرت في العصور الوسطى ، وقد اثبتت الابحاث التاريخية ان كل « المجاهل » الافريقية التي غزاها الرجل الابيض فيما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر لم تكن من « المجاهل » في كثير ولا قليل ، وانما كانت مهاد حضارات عظيمة عريقة في القدم ، وان سكان تلك المناطق لم يكونوا من التأخر والجهل بحيث يتصورهم الاوربيون في العصر الحاضر ، وقد كان من ابشع الجرائم التي ارتكبها المستعمرون البيض هو تدمير معالم تلك الحضارات حتى يصوروا للناس بعد ذلك ان افريقيا لولاهم لكانت فريسة للجهل والوحشية ، ولنذكر من امثلة ذلك ان المستعمرين البيض حينما حلوا في جنوب افريقيا عثروا هناك على آثار ترجع الى الاف السنين وتدل على ان هذه المنطقة كانت قد ازدهرت فيها حضارة عظيمة لعلها اقدم حضارات العالم، غير ان التعصب ــ ولا ابالغ اذا قلت التوحش ــ قد بلغ بهؤلاء المستعمرين الى حد طمس جميع تلك المعالم والاثار حتى لا يخالج الناس شك في ان اوربا هي التي جعلت من سكان هذه البلاد بشرا بعد ان كانوا احدى الفصائل الحيوانية ..

واعتدنا كذلك ان نتحدث في كثير من الاحتقار والسخرية عن الامية المنتشرة في شعوب افريقيا ، ونسينا انه اذا نظرنا الى بلد اوربي مثل المانيا في اوائل القرن التاسع عشر فاننا نجد ان نسبة بالغة الضآلة كانت هي القديرة على تذوق ادب « غيتة » او تفهم (شيللر) وان الامية كانت بلا شك منتشرة في امم العالم القديم التي انتجت لنا حضارات خالدة نرمقها اليوم في اعجاب يكاد يصل الى حد التقديس ، ثم ان الامية تختفي اليوم من اوساط الشعوب الافريقية في سرعة مذهلة ولا سيما بين البلاد التي نالت استقلالها اخيرا ، وهو امر يدلنا من ناحية على طموح هذه الشعوب واقبالها على العلم والثقافة في حماس يستحق الاعجاب ، ومن ناحية اخرى على ان الدول المستعمرة لم تسع اطلاقا الى رفع مستوى التعليم بين تلك الشعوب كما درجت على ان تزعم .

ارستقراطية اللون :

وقد اعتدنا ان نتحدث في فخر وعجرفة عن الحرية والاخاء والمساواة ، واعتبرنا انفسنا – نحن الاوربيين – خالقي هذه المبادىء ، وعلى الرغم من ذلك فاننا لم نجد بأسا في ان ننادي بنظريات تناقض تلك المبادىء كل التناقض ، بل تصور الى اي حد يصل تفكيرنا من السخف والغرور ، حينما قام كثير من مفكرينا في القرن التاسع عشر بوضع تلك النظريات التي لا تقوم على اي اساس علمي والتي تزعم ان للاوربيين فضلا على الساميين وللبيض امتيازا على السود او الصفر ، ولنذكر ما كتبه الفريد روزنبرج « مفلسف » الحركة النازية حينما قال ان الرجل الابيض ينبغي ان يتخذ قرارا حاسما في مسالة ابادة الجنس الاسود والقضاء عليه حتى لا « تتلوث » به قارتنا الاوربية ، ولنذكر ما كتبه الكونت « جوبينو » الذي ضمن امثال هذه الاراء رسالته سماها «اختلاف الاجناس البشرية » ، وكانت اساسا لكل ما كتبه حول ذلك المفكرون المدافعون عن مبدا التفرقة العنصرية وما اصدق ما كتبه عن هذا المبدا المفكر بوموون اذ قال : (لقد ابتليت البشرية بكثير من الوان الارستقراطية ، ولكني لا اعرف منها اكثر سخفا ولا حماقة من ارستقراطية اللون والبشرة) .

سيدي ... الولد :

واعتدنا كذلك على ان نعامل الافريقيين معاملة (خاصة) .. على انهم اقل بدرجات في مراتب الانسانية عن امثالنا من البيض الاوربيين ، ولم تفلح دعوات المصلحين الانسانيين في تحويلنا عن تلك المعاملة .. ولاذكر على ذلك مثلا بسيطا شهدته بعيني في الكونغو قبيل استقلاله ، فقد جرت عادة البلجيكيين هناك على ان يتوجهوا بالخطاب الى اي فرد من افراد شعب الكونغو بكلمة (الولد) مهما كان مركزه او ثقافته او سنه ، ثم ارادت الحكومة البلجيكية قبل ان ينال الكونغو استقلاله بقليل ان تخفف من اثر الوقع السيء الذي يتركه مثل هذا التعبير ، فاصدرت امرا بان يستخدم رعاياها مع اهل الكونغو لفظ (السيد) اسوة بما يستخدمونه في الخطاب بين بعضهم البعض، فماذا كانت النتيجة ؟ كان البلجيكي اذا تحدث مع اي مواطن من الكونغو ناداه بقوله : ايها السيد.. الولد .. واطلق ضحكة ساخرة .. اترانا نعجب بعد ذلك اذا نظر الينا الافريقي اليوم بعيون ملؤها الكراهية ؟

* * *

وليعذرنا القارىء اذا كنا بدانا في عرض محتويات هذا الكتاب من آخره ، فالواقع ان خاتمة الكتاب التي سقنا موجزا لبعض فقراتها المهمة انما تتضمن ناحية من ابرز نواحيه .. اذ ان هذا الكاتب الاوربي يتحدث فيها بصراحة مرة عن موقف اوربا ازاء قارتنا الافريقية ، وحديثه اشبه ما يكون (بالاعترافات) ولكنه لا يكتفي بذلك ، بل يدعو الضمير في مختلف بلاد العالم ولا سيما الاوربية والامريكية الى التكفير عن كل تلك الخطايا بانتهاج سياسة جديدة لا تقوم على الارتجال والتسرع ، وانما على تربية (وعي جديد) ، ولا سيما في طبقات شباب المثقفين ، وهو يطلقها صيحة جريئة داعية الى (مراجعة حساب اوربا) في هذه القارة ، والى تطهير النفوس والنوايا قبل ان تستمر اوربا في سياستها الغاشمة الحمقاء .

وهو يختم كلامه بقوله : اني اخشى ان تكون الفرصة قد فاتت ، ومع ذلك فاننا اذا اخلصنا الضمائر واستمعنا لصوت الحق والعدالة فقد يكون هناك مجال لاصلاح بعض ما افسدت ايدي السفهاء منا .. وانهم لكثير ..

* * *

والمؤلف بعد ذلك يستعرض صورامن حياة القارة الافريقية يرسمها في صدق ودقة من خلال زيارته الاخيرة لبلاد هذه القارة ولقائه لكثير من زعمائها

وقادتها ، هذا وان كان لم يكتف بذلك بل حاول ان يعرف آراء رجل الشارع العادي في كل بلد زاره مما اتاح له الالمام باتجاهاته المختلفة وتطور الحركات القومية فيه ..

***

اوربا لا تسمع :

ولنمض في جولتنا مع « رولف ايتاليانذر » حول افريقيا .. لنتوقف قليلا عند هذا الساحل الطويل الذي يدور مع البحر الابيض في الشمال الغربي من افريقيا ، لنتأمل هذه الارض الطيبة الدافئة التي اصبحت تجري فيها انهار من الدماء والدموع والآلام .. الجزائر ، (الجزائر الفرنسية) التي لا تقل في (فرنسيتها) عن نورماندي او بريتاني ، وأي بأس في ان يعترض على ذلك عشرة ملايين من الافريقيين المسلمين ما دام نحو مليون من الاوربيين يرددون تلك (الحقيقة) صباح مساء ؟

« الجزائر الفرنسية » .. وان احتجت على ذلك اغلبية هذه البلاد من المسلمين الذين لا يريدون ان يصبحوا فرنسيين ، وماذا يهم ؟ ان اوربا لا تسمعهم ولا تعيرهم التفاتا .. هكذا قال الملك فرنسا لويس فيليب في سنة 1835 حينما نشبت حرب الجزائر : (.. وماذا يضيرنا اذا انطلقت في سماء الجزائر مائة الف قذيفة؟ ان اوربا لا تسمع) .

واوربا في ذلك الوقت كانت هي العالم .. هي الضمير البشري .. هي كل شيء .. وهكذا يعتقد حتى الآن اولئك المليون من الاوربيين المستعمرين ممن لا يزالون مؤمنين بان اوربا هي سمع العالم وبصره وان الناس في خارج اوربا — اذا جاز ان يعتبروا ناسا — ليس لهم عيون ترى ، ولا آذان تسمع ..

ويقول جان بول سارتر : هناك « حقيقة » لا يعرف هؤلاء المستوطنون الاوربيون غيرها في الجزائر: هي انهم اختصهم الله بنعمة البشرية ، وان أهل البلاد الاصليين « اشياء » لم ترتق بعد الى هذه الدرجة .

وقد كنت قمت باول رحلة الى الجزائر في سنة 1931 حينما لم يكن الشعور القومي في هذه البلاد قد نضج ولا تشكل في صورته الحاضرة ، وكان اول ما صدمت به هناك ان هؤلاء الاوربيين الذين تعاقبت اجيالهم منذ قرن من الزمان لم يوفقوا الى فهمها قط .. بل لم يحاولوا ذلك حتى مجرد محاولة ، ولهذا لم يكن من العسير على اي عقل قدر له نصيب من التحرر ان يتنبأ بما سوف يحدث ..

ومن الغريب ان اوربا التي لم تكن ترى ولا تسمع في سنة 1835 ظلت عاصبة عينيها ومصمة اذنيها اكثر من مائة سنة ، ففي 8 مايو 1945 قام الجزائريون المساكين وفي نفوسهم بقية من ثقة محتفلين بانتصار الحلفاء « الديمقراطيين » على المانيا النازية، ومطالبين « اصدقاءهم » الفرنسيين بتحقيق وعودهم لهم بمنحهم نصيبا من الحرية ، فماذا كانت النتيجة ؟ انطلقت المدافع الفرنسية الى صدور الجزائريين فقتلت منهم في سطيف بضعة آلاف في ساعة او بعض ساعة..

وماذا يهم ؟

ان فرنسا — ومعها اوربا — ما زالت بعد لا ترى ولا تسمع ..

« الديمقراطية » في كينيا :

ولنترك الجزائر ، ولننتقل الى طرف آخر من اطراف افريقيا .. الى كينيا التي تسمى مع تنجانيقا واوغندا « افريقيا الشرقية البريطانية » . وكينيا بلد تسوده الديمقراطية الخالصة التي اجتهد الانجليز في تلقينها للافريقيين . وقد بدأ حكمهم لها في سنة 1885 — كما هو المتبع في السياسة البريطانية — عن طريق الشركات التجارية ، وكانت « الشركة البريطانية لشرق افريقيا» هي التي وقعت على عاتقها « تبعة » نشر الحضارة والديمقراطية في كينيا ، وسرعان ما اصبحت هذه البلاد ملكا (بكسر الميم وسكون اللام) للتاج البريطاني حتى يضطلع فيها بمسؤوليته الكاملة .

ويعيش الآن في كينيا نحو ستة ملايين ونصف من البشر منهم 152 000 من الهنود ، و33 000 عربي ونحو 57 000 من الاوربيين ، ولا تزيد نسبة السكان البريطانيين في كينيا على (0ر9٪) من مجموع السكان .

« اصلاح زراعي » من نوع جديد :

وقد اقبل الانجليز منذ حكمهم لهذه البلاد على التطور بها تطورا سريعا ، فسنوا لها قانونا للاصلاح الزراعي، والاصلاح الزراعي في كل بلاد العالم يستهدف توزيع الاراضي توزيعا اقرب الى العدالة ، ولكن اصلاح الانجليز كان شيئا جديدا يمتاز بالطرافة والاصالة، فقد اصبحت بمقتضاه كل اراضي كينيا الخصبة الصالحة للزراعة او لتربية الماشية من نصيب الاوربيين ، اما الكينيون فقد تركت لهم معظم المساحات المجدبة من البلاد .

وواصل الانجليز جهودهم في سبيل نشر الديمقراطية في كينيا ، ففي سنة 1954 طبق القانون المعروف باسم « ليتلتون » واصبح مجلس الوزراء على اساسه يتألف من ستة اعضاء : ثلاثة اوربيين واثنين هنديين وعضو افريقي واحد .

ويبدو ان هذا الطراز من الديمقراطية لم يعجب اهل كينيا ، ومن ثم ولدت الحركة الوطنية في تلك البلاد ، وتزعمها جوموكينياتا ثم توم مبويا حينما زج بكينياتا في السجن ، وكانت مطالب هذه الحركة هي اعادة توزيع الاراضي على اساس يضمن للافريقيين حقوقهم ، ثم زيادة نسبة تمثيل الافريقيين في اجهزة الحكم والمجالس النيابية .

روديسيا ونياسا :

لعل اول ما يصدم الداخل الى سالزبوري عاصمة اتحاد روديسيا ونياسالاند وهو ما زال بعد في المطار هو ذلك البيان الطويل المعقد الذي يقدم للاجنبي لكي يملأه ، واول ما ينبغي ان يثبته في هذا البيان ليس ذكر وطنه الذي ينتمي اليه ، وانما هو النص على جنسه : ابيض ، افريقي ، اسيوي ، مولد .

للاوربيين فقط :

والعاصمة مدينة جميلة في وسطها عدة ناطحات للسحاب ، وفي ضواحيها بيوت ريفية على الطراز الانجليزي القديم ، والذي يستوقف نظر المتردد على معالم هذه المدينة الجميلة لاول وهلة هو خلوها من الافريقيين . على ان المتسائل عن ذلك لا يلبث ان يجد الجواب في اللافتات التي يراها حيثمر في انحاء المدينة (للاوربيين فقط) ، وقد حاولت مرة ان ادعو في فندقي سياسيا افريقيا مرموقا يتولى منصب (الوزارة) في حكومة الاتحاد ، وتاجرا هنديا معروفا الى تناول الغداء معي ، فلم تسمح لي بذلك ادارة الفندق ، بل نظر الي موظفوه في مزيج من الدهشة والاشفاق والغضب ، كانني ارتكبت جرما لا يغفر لي منه الا الجهل والسذاجة ..

وتبلغ مساحة الاتحاد الفيدرالي بين روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند خمسة اضعاف مساحة بريطانيا ، اما عدد السكان فيبلغ اكثر بقليل من سبعة ملايين ونصف من بينهم نحو 187 000 اوربي ، وقد بدأ النفوذ البريطاني في الامتداد الى هذه البلاد منذ ان قدم اليها سيسل روديس (1853 — 1902) ، وهو الذي اطلق اسمه على هذه البلاد ، ثم استولت عليها (الشركة البريطانية لجنوب افريقيا) في نهاية القرن التاسع عشر (من اجل النهضة بالتجارة والصناعة والثقافة في ظل حكومة صالحة تقدمية) ، وما زالت هذه الشركة تباشر عنايتها بالتجارة والصناعة والثقافة (كذا) حتى اصبحت المقاطعات الثلاث جزءا من ممتلكات التاج البريطاني .

الدكتاتور اليهودي :

اما الاتحاد الائتلافي الذي اقيم بين تلك المقاطعات الثلاث فهو حديث العهد ، اذ انه يرجع الى سنة 1953 ، بفضل سياسي استعماري انجليزي هو السير اندرو كوهين الذي يدلنا اسمه على اصله اليهودي .

ولعل في ذلك ما يفسر لنا كيف يحكم هذا الاتحاد الان يهودي آخر بولوني الاب هولندي الام هو روي فيلينسكي رئيس وزراء الاتحاد منذ سنة 1956 ، وحياة هذا الرجل يمكن ان تكون صورة مصغرة من حياة امثاله من الاوربيين الذين يتحكمون حتى الآن في مصائر البلاد الافريقية .

ولد روي فيلينسكي في سالزبوري في سنة 1907، وكان ابوه صاحبا لاحدى الحانات ثم لفندق متواضع، ولم يأخذ هو الا قسطا ضئيلا من التعليم ، ثم اشتغل اجيرا في بعض المناجم والمزارع ، وقضى فترة من حياته جزارا وخبازا وبائعا ، ثم احترف الملاكمة حتى سنة 1928 ، وبعد ذلك اصبح سائق قطار ، وارتفع نجمه بسرعة بفضل بعض الارستقراطيين الانجليز

حتى تولى منصب النيابة في المجلس التنفيذي في سنة 1940 ، وفي السنة التالية اسس الملاكم اليهودي السابق (حزب العمال لشمال روديسيا) وقد بدا يطالب بفكرة الاتحاد الائتلافي بين المقاطعات الافريقية الثلاث منذ سنة 1948 ، وهو ما تحقق اخيرا على يد اندرو كوهين ، وهكذا اصبح فيلينسكي بفضل ذلك رئيسا لوزراء الاتحاد .

« بدعة » الاستقلال :

ويشرح السير روي فيلينسكي مبادىء سياسته، فيقول من خطاب القاه في جوهانسبورج اخيرا : (ان من الظواهر المؤسفة التي اصبحت «بدعة» هذا العصر ما نراه الآن من مطالبة الشعوب المتخلفة بما تسميه استقلالها وحريتها ، وكان هذا الاستقلال سلة من الخبز يتقاسمون ما فيها فور حصولهم على الاستقلال لقد حانت الساعة لكي نفهم هؤلاء الغوغاء الرعاع ان ذلك ليس الا حلما تقبع وراءه الحقيقة المرة .. ان ما يسمونه « الاستقلال » لن يغنيهم من فقر ولن يسمنهم من جوع ، وانه يجب ان يعرف هؤلاء المخدوعون المضللون ان الوطن الصحيح لا يقوم الا على دعامتين رئيسيتين: اقلية مثقفة مستنيرة تعرف كيف توجه الحكم وتديره ، واغلبية تضطلع بما يسند اليها من عمل في طاعة ونظام .. بهذا يكفل الرخاء والاستقرار في البلاد ، والا اصبحت امورها فوضى تعود بالكوارث على الجميع ، ان البلاد الافريقية جميعا بلا استثناء ما زالت في حاجة الى جهودنا ــ نحن الاوربيين ــ ورعايتنا واخذنا بايديها ، وانا اصرح بان هذا الوضع قد يستمر قرونا قبل ان نسمح لاولئك الملونين المتخلفين بالاخذ بنصيب في حكم بلادهم وادارتها بانفسهم ، وحتى اذا حانت هذه الساعة لذلك اليس من حقنا نحن الذين ضحينا بالكثير من اجل اسعاد هذه الشعوب ان ننال نصيبنا من الجزاء وان يعترف بفضلنا عليها ؟) .

ولست اظن هذه الكلمات التي تصور صفاقة صاحبها وتجرده من الانسانية محتاجة الى اي تعليق ..

7 000 ابيض = 500 000 افريقي :

ويعتبر السير روي فيلينسكي نفسه كما يعتبره الاوربيون البيض هناك من (ابطال الاستقلال) ، فالجميع يعترفون بان نفوذ وزارة المستعمرات البريطانية في توجيه سياسة الاتحاد الائتلافي قد تضاءل حقا في عهده ، غير ان مفهوم (الاستقلال) هنا يختلف عن مفهومه في سائر بلاد العالم ، اذ ان معناه في روديسيا هو ان تنتقل السلطات من اجهزة الاستعمار البريطاني الى يدي روي فيلينسكي نفسه وايدي امثاله من الاقلية الاوربية الحاكمة .

ولروديسيا ونياسالاند برلمان فريد من نوعه ، اذ يتألف من تسعة وخمسين عضوا من بينهم 15 يمثلون الاغلبية الافريقية و44 يمثلون الاقلية البيضاء، ومعنى ذلك ان كل نصف مليون من اهل البلاد يمثلهم عضو واحد ، اما الاوربيون فلهم نائب عن كل 7 000 شخص .. اترانا في حاجة الى مزيد من الامثلة على مدى (الديمقراطية) التي طالما امتنت اوربا على الافريقيين بانها لقنتهم اياها ؟

وقد ظل العالم لا يعرف الا القليل عن الحياة في هذا البلد الافريقي حتى استطاع الزعيم الروديسي سوانجانكو مبولا ان يطلع الراي العام العالمي في مؤتمر اكرا سنة 1958 على حقائق تقشعر منها الابدان .

وفي نفس هذا المؤتمر تحدث زعيم افريقي آخر هو كاموزوباندا عن احوال نياسالاند التابعة للاتحاد الائتلافي الذي يحكمه روي فيلينسكي ، وقد قضى باندا اربعين سنة من حياته في المنفى وسنوات اخرى في السجن لا لشيء الا لانه قال للبريطانيين ولربيبهم اليهودي : اخرجوا من بلادي .. وقد ادى ذلك اخيرا الى نشوب تلك الاضطرابات الدامية التي وقعت في فبراير سنة 1959 .

قابيل وهابيل في جنوب افريقيا :

ولنترك اتحاد روديسيا ونياسالاند الى اتحاد جنوب افريقيا في الطرف الجنوبي الاقصى من القارة حيث كان مهبط آدم وحواء من الجنة بعد ان طردهما الله من الفردوس على ما يعتقد بعض علماء الحضارات القديمة . ترى لو ان ابا البشر عاد اليوم الى عالمنا الارضي ورأى ما يفعل بعض ابنائه في مكان مهبطه .. اتراه يشعر بالندم والاسف على خروجه من الجنة بقدر خجله من هؤلاء الابناء الذين انحدروا من صلبه ؟

ان قصة قابيل وهابيل تتكرر في كل لحظة في هذا الميدان الذي يسمونه (اتحاد جنوب افريقيا) ، وقابيل هنا هو هذا العدد من الاوربيين الذين وصلوا الى تلك البلاد في القرن السابع عشر ، وكان معظمهم من اصل هولندي ، ثم زاحمهم الانجليز الذين احتلوا

مدينة كيبتون فى سنة 1795 ، ووفد عدد آخر من البريطانيين فى سنة 1820 ، وسرعان ما نشب النزاع بين المستعمرين الهولنديين والبريطانيين اذ حاول كل من الفريقيين الاستئثار بخيرات البلاد ، ومن ثم استعرت نار الحرب المعروفة باسم حرب البوير فيما بين سنتي 1899 و 1902 ، واخيرا اعلن (استقلال) اتحاد جنوب افريقيا فى سنة 1909 فى نطاق جامعة الدول البريطانية (الكومنولث) ، وظل الامر على ذلك حتى خرج الاتحاد من تلك الجامعات اخيرا، واذا كانت الكراهية لا تزال حتى الآن على اشدها بين الهولنديين والبريطانيين فان هناك شيئا واحدا يجمع بين الفريقين : ذلك هو ابغاض الافريقيين وصب كل الوان الاضطهاد والعسف عليهم .

ويبلغ عدد سكان الاتحاد خمسة عشر مليون نفس ، من بينهم نحو احد عشر مليونا ونصف من الافريقيين والمولدين ونصف مليون اسيوي ، وثلاثة ملايين من الاوربيين .

التفرقة العنصرية قانون الهي :

ويراس حكومة الاتحاد فى الوقت الحاضر الدكتور هيندريك فيرورد الذي ولد فى هولندا سنة 1901 واشتغل فى شبابه مدرسا ، ثم اصبح رئيسا لتحرير جريدة (دي ترانسفالر) الناطقة بلسان الهولنديين البوير، وتولى بعد ذلك عدة مناصب فى حكومة الاتحاد، كان آخرها رياسة الوزارة منذ شهر اغسطس سنة 1958 .

ولعل فيرورد هو اكثر الساسة الاوربيين فى افريقيا تعصبا واغلظهم قلبا واجمدهم تفكيرا ، ويكفي ان نذكر ان هذا الرجل يصرح دائما بان التفرقة العنصرية (الابارتهيد) انما هو قانون الهي ينبغي ان يطبق فى كل مكان يحل فيه اي اوربي ، وان هذه التفرقة ليست ظلما لما يسميه (العناصر المنحطة) اي الافريقية ، وا نما هي الاجراء العادل الذي يكفل لها ان تعيش (فى المستوى الذي خلقت له) .

ولهذا لم يكن من الغريب ان يلاقي الافريقيون فى هذه البلاد على يد هذا الرجل ما لم يشهد له التاريخ مثيلا ، فدستور الاتحاد ينص على ان الافريقيين لا يمكن ان يكونوا اعضاء فى البرلمان ولا محامين ولا قضاة ولا ضباطا فى الجيش ولا فى الشرطة ، وكل ما سمح لهم به هو ان يشتغلوا مزارعين اجيرين او عمالا بشرط الا يتخصصوا فى اي عمل فني او صناعي ، اما الاعمال التي تتطلب مستوى عاليا من التخصص كالهندسة او الطب او الصيدلة او العمارة فكل ذلك محرم على غير الاوربيين ، واما ملكية الارض فى هذه البلاد فانها تصور بشاعة ما يجري بها، فالاحد عشر مليونا من الافريقيين لا يملكون من ارض بلادهم الا نحو 13٪ من جملة مساحتها ، والمليونان ونصف المليون من البيض يستأثرون بالباقي ، هذا وتتصرف الحكومة والسادة البيض فى الشعب الافريقي كما لو كان قطعانا من البهائم ، اذ يكفي ان يطلب احد الاوربيين بضعة آلاف من الافريقيين للعمل فى مزرعته او منجمه حتى يصدر قرار حكومي بنقل سكان قرية كاملة الى حيث يريد السيد الابيض لخدمته بدون مقابل ، وليس للافريقي ان يحتج او يطلب استبدال سيده بآخر اذا اراد ان يتجنب عقوبة الجلد او السجن او الاعدام فى بعض الاحيان ، اما الاوربي فانه ليس مطالبا بدفع اجر للعامل او الفلاح الافريقي الذي يعمل فى خدمته من شروق الشمس الى غروبها ، وكل ما يلتزم به هو ان يلقي اليه كل يوم قليلا من الذرة والدقيق والملح ، ولا يستطيع الافريقي ان ينتقل من منطقة الى اخرى الا بتصريح من الحكومة ، وهذا التصريح يعين السلطات على ان تجمع العدد الذي تريده من العمال تحت تصرفها فى اي وقت وفى اي مكان .

وقد اصدرت الحكومة اخيرا قانونا يحرم على الرجل الابيض ان يصافح الافريقي بيده طيلة حياته ، فاذا مات (اعني الافريقي) فانه لا يسمح لجسده بان يدفن فى المقابر المخصصة للبيض .

وقد كان من نتائج هذا (الارهاب الاسود) الذي يباشره البيض هناك ان وقع ذلك الانفجار الشعبي الشديد فى مارس سنة 1960 ، والحركات الوطنية وعلى راسها رجال مثل ايزيكيل مفاليلي والبرت لوتولي تسير بخطى سريعة الى الامام ، هذا ولست اريد ان اصرح باسماء بقية القادة الوطنيين الذين تعرفت اليهم اثناء اقامتي هناك حتى لا اتسبب فى مزيد من الاضطهاد لهم على ايدي زبانية (الاتحاد الافريقي) .

❊ ❊ ❊

وهكذا يمضي الكتاب فى عرض صور من حياة افريقيا والافريقيين ، فيحدثنا طويلا عن مدغشقر والكاميرون والكونغو ونيجيريا وغانة وغينيا ومالي

وليبيريا والسنغال وغيرها ، وتصويره لكل ذلك يفيض بالحياة والصدق الى جانب تحري العدل والبعد عن العصبية .

واذا كان هناك ما ينتقد على الاستاذ ايتاليناندر فى هذا الكتاب فهو انه لم يوجه مثل هذا الاهتمام الى شؤون افريقيا العربية ، اذ ان فصوله عن المغرب وليبيا وتونس والجمهورية العربية المتحدة والسودان ليست فى مستوى ما كتبه عن بلاد القارة الافريقية ولعل عذره فى ذلك ان تخصصه انما كان فى شؤون تلك البلاد التي ذكرنا قبل ، وهو مشكور على ذلك على اية حال .

وفى خلال كل ما كتب يردد الاستاذ ايتاليناندر سؤاله الى اوربا : ترى هل لدى الشعوب الاوربية من الشجاعة الادبية ما يحملها على الاعتراف ببشاعة ما ارتكبته او ما ارتكبه بعض اهلها من الجرائم فى القارة الافريقية ؟ .

وهل بوسعها ان تهتدي الى طريق الاخاء الانساني .. الى طريق السلام ؟

هذا هو ما نرجو ..

محمد علي مكي

وكيل معهد الدراسات الاسلامية بمدريد





رمضان شهر الله

للشاعر عبد المالك البلغيثي

رمضان وافى ، نحها ياساقي ... واسبق لبيت الله فى السباق
ما كان اقصره على الافه ... اهل التقى والدين والاخلاق
لم لا نواصل صومه وقيامه ... والصوم لله الحكيم الباقي
افتح له ابواب قلبك كلها ... ليبث فيه خشية الخلاق
شهر كضيف جاء بيتك طارقا ... فاستقبلنه ببهجة وعناق
ضيف نظيف لا يلوث منزلا ... لطهارة الانفاس والاعراق
ضيف طبيب دون اجر سابق ... او لاحق او فتح او اغلاق
ودواؤه فى كونه ونظامه ... لا ما يخط الطب فى الاوراق
يكفي تتبع ما يشير بفعله ... لتصح دون تجرع الترياق
هو مرشد ، ولكم يحول بهديه ... ما بين نفسك والهوى الزلاق
ضيف عفيف لا يسوء مضيفه ... او يقتضيه كثرة الانفاق
لبس الكفاف من العفاف تزينا ... فاراك قصد الصوم عند الباقي
ضيف من الله الكريم موجه ... لعباده فى هذه الآفاق
لم لا يلاقى بالسرور حلوله ... والوجه فى بشر وفى اشراق

* * *

يا مرشدين : ادعوا اليه وشوقوا ... فالصوم مشتاق الى مشتاق
حثوا عليه شبابنا ، وليلزموا ... باداء واجبه بلا اشفاق
قولوا لهم : فى اي دين لم يرد ... امر بصوم العبد للرزاق ؟ !
قولوا لهم : فى ديننا وصيامنا ... ما ليس عند الغير من اخلاق

قولوا لهم : فى الصوم وحدتنا التي عاشت زمانا ، لم تسم بفراق

فاذا تنكر للصيام شبابنا ورموه بالاغراق والارهاق

فلكم اريد بدين ءاباء لهم سوء ، ومنه كم حماه الواقي

* * *

وطنية الدين الحنيف اعز من وطنية لم تلتحم بخلاق

قويت وسادت واستطاع رجالها ان يخرقوا بالعزم كل نطاق

قولوا لهم : ما فى الصيام موانع لمساير عصر الحضارة ، راقي

كم فيه من خير ومن فضل ومن اشياء عن فهم الفرير دقاق

ما فى الصيام عوارض لنظامنا وشئون عصر الذرة البراق

قولوا لهم : كنا شبابا مثلكم لكن له كنا من العشاق

كنا نصومه والمواسم قبله او بعده ، بالحب لا بنفاق

اولستم منا ، ودينكم الهدى وبه فتحنا معظم الآفاق ؟ ؟

دين النبي ، محمد ، ما مثله فى الصدق الا الشمس فى الاشراق

لما دابنا ناهجين سبيله ما كان يطمع خصمنا للحاق

* * *

قولوا لهم : اسلافنا كم جاهدوا فى الصوم ، واستولوا على آفاق

حتى لقد ظن الخصوم بانهم جن ، لباسهم وشد وثاق

فمتانة الايمان تفعل فعلها ولكم تظن خوارقا لنطاق

لكننا لما تركنا ديننا هنا ومزقنا عضال شقاق

هنا ، واسرائيل حل محلتنا فى موطن الاسرا ، مكان براق

* * *

رمضان شهر الله فى ايامنا يمضي سريعا والذنوب تواقي ؟ ؟

من لم يطهره الصيام ، فلم يكن لحلول هذا الشهر بالتواق

رمضان ذكرى كل ناس دينه فاذكر به فضل العزيز الباقي

وانسف به تلك الخطيئات التي قد خلفتك ، وجد فى استلحاق

واعمل بصف المومنين مؤيدا لتسوقك الاعمال حسن مساق



بنتي

للشاعر
أبي بكر الملتوني

هي فرحة لا تنقضـي ، ومسـرة ... لا تنتهـي ، ومـدامـة لا تنضب
بنتي ، وما بنتي سوى كبدي ، فهل ... شاهدت مـن كبـد تجيء وتذهب
انثى – على قصر السنين – احار فى ... مـا تبتغـي واحار فى مـا تطلـب
ولعـل عجمتهـا وقـاء تصدعـي ... فلـو انهـا طلبـت وعـز المطلـب
لبكيت عجزي والهـوان ، وليس فى ... دنيا المصائب مثـل ان يبكي الاب
قد الهمت قبـل الكلام انوثـة ... تسبـي بهـا قلبي الكئيب وتسلب
اخلـو الى كتبي فتأتـي طفلتـي ... تلهـو بمـا اخلـو اليـه وتلعب
فـاذا رضيت مـن الكتـاب بقبلـة ... ومططت من شفتي ، تروغ وتهرب
ويقـال : لقنهـا احترامـك طفلة ... فاجـيء افتعـل الخطـى واقطـب
فـاذا انحنيت علـى الحذاء افكـه ... قفـزت الـى ظهري الموطـأ تركب
ويهـز مهجتي اعتقـاد صغيرتـي ... ان امتطـائـي حقهـا المتكسـب
ترنـو الـي اذا حظـرت ركوبهـا ... بعيـون مبهـوت يحـار ويعجـب
هي بسمـة البيت العبوس وسكـر ... يحلـو بـه طعـم الحياة ويعـذب

* * *

نبهت مـن نومـي على فكـر لهـا ... لفـح اللظـى ولسانـه المتلهـب
تأتي على زهـر الرجاء بمهجتـي ... فتردهـا وكـأنمـا هـي سبـب
اين الخلاص ؟ فما ورائي موحـل ... ممـا عرفت ومـا امامـي غيهب
هـذا السريـر علالة ، والمـرء ان ... لم يحتمـل قسـو الحقائق يكذب
انـي كبـوت مـن المتاعب مثلمـا ... تكبـو المطـي اذا تكـد وتتعـب
لا فـرق الا انهـا فوق الثـرى ... تكبـو وانـي فى سريـر ينصـب
وغـدا اتابـع رحلتـي فى مـوكب ... فظ السياقـة يستحث فيضـرب

فاذا ونيت وداعبت جفني الرؤى ... فيه ، اطير عن رؤاي وارعب

كبرت همومي فى الحياة ولم يزل ... برق الاماني يستدق ويشحب

* * *

واقوم افتتح النوافذ لا ارى ... الا همودا فى المشاهد يكرب

مت ان اردت من الشقاء فلن ترى ... عشبا يميل ولا ذبابا ينحب

واروح التمس الضياء لعله ... شجن يذوب مع الضياء ويغرب

فيلوح لي وجه ابنتي وكانه ... فوق الوسادة برعم يتثقب

متهللا فى صمته متكلما ... ينعي علي تضعضعي ويؤنب

وسنى يناغيها الملاك وتمتطي ... وسط الحنان فراشة تتوثب

ترتاد ءافاقا وفى قسماتها ... مما ترى اثر ومما تطرب

فى وجهها من كل فن ءاية ... وبثغرها من كل خمر مشرب

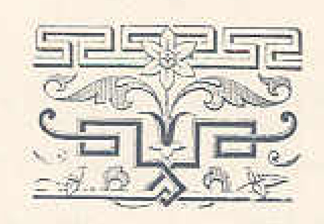
تحمي حماها هالة لا تعتدي ... وتذود عنها بسمة لا تغلب

حورية فى زورق من فضة ... من تحته ينساب بحر مذهب

* * *

ياللسنى – ياللجلالة – كيف لا ... اشقى ، ولا اعنى ، ولا اتعذب

لولا عنائي لم يلح هذا السنى ... يوما ، ولم يفتر هذا الكوكب





ترجمها عن الفرنسية
للأستاذ
محمد برادة

كان القدماء يصفون الترجمة بالخيانة ، لانها تشوه الاسلوب ، وتضعف قوة المعاني ، وتشل سحر الالفاظ .. ولعل هذا الحكم اكثر صحة بالنسبة الشعر الذي يكون وحدة متماسكة بين اشكال التعبير ، وموحيات الصور .. ورغم ذلك ، فاز الشعر بنصيب وافر من الترجمات في كل اللغات ، لانـه دعامة اساسية في الثروات الجمالية الانسانية .

وانا لا أدعي في ترجمتي لهذه المقطوعات الثلاث ـ انني اضفيت عليها حلة شعرية تضاهي تلك التي كتبت بها ، ولكن شفيعي في هذا الترجمة انني اعتمد على ما تتضمنه من صور رائعة ـ رغم بساطتها ـ ، فهي وحدها قادرة على التسلل الى نفس القارىء لتنقل اليه خلجات الصدق التي نفثها هؤلاء الشعـراء ((الشاعـرون))



للشاعر الكوبي
روبرتو فيرنانديس

أنحـن الذين قدر لنا ان نعيش بعد الآخريـن ،

لمـن نديـن بالحيـاة ؟

من ذا الذي هلـك بدلا مني في غياهب السجون ؟

ومـن تلقى رصاصتـي ،

الرصاصة التي وجهت الي ، تلقاها في قلبـه ؟

وعلى جثة اي ميت احيـا انـا ؟

ذاك الذي ستظل عظامه ملتحمة بعظامي ،

وعينـاه المنزوعتان من محجريهمـا

ستظلان تبصران من خلال عيني ،

واليـد التي لم تعـد يـده

وليست يـدا لي وحـدي ،

هل يمكنها ان تخط كلمـات موزونـة

دون ان تجعله يحيا من خلالها ؟

السلام للجزائر

للشاعر الفرنسي
جان تيرس

نوارات الصبار تغازل الشمس
وولد صغير منكب على منحنى الطريق
مسبلا جفنيه
لان وهج الشمس محرق .
كانت الدموع تترقرق فى مآقيه
وهو يحدج التراب ،
المتطاير بين قدميه العاريتين ،
وجلبابه المهترىء
يقضم ساقيه ..
جلبابه المخرق الذي ينجذب الذباب اليه
من كل الثقوب ..

★ ★ ★

نوارات الصبار تغازل الشمس ،
والسماء طاس ازرق كبير
مدلي من فوق ،
وفى « الواد » الاجرد
كانت اوراق الدفلى
تتثنى تحت ثقل الغبار

★ ★ ★

وهناك بعيدا
على حافة الطريق . .
كان عربي صغير يرسم
ـ لانه لا يعرف الكتابة ـ
كان يرسم ،
صورة لبندقية كبيرة
اردت اباه قتيلا .

الى اللقاء

للشاعر الروسي سيرج إيسينين

سيرج اسينين (Serge Essenine) ، شاعر روسي فى طليعة الشعراء الثوريين الذين وقفوا انتاجهم على تصوير مآسي روسيا القيصرية ، وتطعيم الوعي الشعبي بدماء جديدة وقد وضع لحياته نهاية ماساوية عندما انتحر سنة 1925 لكنه قبل ان يلفظ انفاسه ، لم ينس ان يعزف نغمات مشرقة تفتح ابواب الامل ، فكتب هذه المقطوعة التالية ، كتبها بدمه : (1)

الى اللقاء يا عزيزي ، الى اللقــاء

يا صديقي اني اضمك بين جوانحــي

اننــا نفترق ، ولكــن املا فى نفسي الآن ،

يرســم صــورة جميلــة للقائنــا

* * *

لتبدا المسيــر دون ان تتلفظ بكلمــات

ودون ان تضغط على يــدي . .

لتبــدا المسيــر . .

وجبهتك الناصعة لا تفقدها اشراقها باكتئابك

اذ ما جدوى الاكتئــاب ؟

حقــا نحن لا نتطلع الى اكثر من الحياة

امــا الموت ـ موتنا ـ فليس بجديــد .

(1 انظر كتاب L'Anthologie de la poésie russe du XVIII[e] siècle à nos jours - Gallimard.

قصة العدد

اليد على الحلقوم

للأستاذ محمد زنيبر

كان ذلك في ايام « السيبة » قبل مجيء الفرنسيين الى هذه البلاد بعدة سنوات .

البرد قارس والثلوج تتساقط باستمرار على قمم الجبال الشاهقة وفي منحدراته ، وفي الوادي حيث تجمعت القرية كلها حول دار القائد علال يخيم ظلام دامس وسكون رهيب لا يقطعه من حين لآخر الا نباح الكلاب وصفير الرياح العاتية ولا يسمع اي صوت للبشر ، رغم كون القصبة آهلة بالسكان .

وفي هذا الفضاء القاتم ، دوت بغتة بين منعرجات الاطلس الكبير طلقة نارية قوية ، وكان دويها ينذر بانها انطلقت من بنادق عديدة ، وفي الحين ، انقلبت القصبة الهادئة الصامتة الى سوق حامي الرواج وخرج النساء في زينتهن ، وخرج الاطفال وملأوا الممرات التي سيمر منها القائد علال الى داره ، واحتل اصحاب الدفوف والمزامير مراكزهم العادية وعمت الزغاريد والافراح ، وانطلقت الالسنة من عقالها

وكان من عادة القائد علال ، وهو من زعماء « السيبة » في الاطلس الكبير ، ان يعلن عن رجوعه ، كلما عاد من غارة على الاعداء والمخالفين ، بواسطة طلقة نارية قوية يشارك فيها كل اصحاب البنادق ويتردد صداها في الوادي بين النجود والوهاد ، فيخرج النساء مع اطفالهن في زغاريد متتالية وهن فرحات بعودة ازواجهن ، وخائفات في آن واحد من سماع خبر موتهم او فقدانهم ، ولكنهن على كل حال مستعدات لينقلبن في الحين من الغناء الى البكاء ومن الفرح الى الحزن .

وبدا اهل القصبة ، المعلقة في حضن الجبل ، يسمعون تصاهل الخيول ووقع حوافرها على الارض المكسوة بالجليد ، واخيرا ، ظهرت جموع الفرسان امام باب القصبة يتقدمهم القائد علال ، وكلهم ملتحفون في برانيسهم الصوفية ، متقلدون للبنادق الطويلة والخناجر الفضية اللماعة ، ولا يرى من تحت عمائمهم الكثيفة الا احداق ذات نظرات مخيفة .

اما القائد علال ، فكان يتميز عن الكل بقامته المديدة وبهيئته وطلعته المهيبة ، وكان يحدق فيمن حواليه بعينين يتطاير منهما الشرر ويعلوهما حاجبان كثيفان كبيران قد اختلط فيها الشعر الاسود بالابيض

* * *

وتقدم الشيوخ والكهول يسلمون عليه ، بينما الدفوف تضرب والمزامير ترقص الهواء ، والرجال والنساء يتجاوبون في حوار غنائي تاري الايقاع ، ودخل القائد علال الى القصبة وتبعه الفرسان ، ثم جاء من بعدهم الجرحى وهم محمولون على ظهور البغال ، واخيرا الاسرى والسبايا والمغانم والاسلاب والاخراج الكبيرة المملوءة برؤوس الاعداء التي قطعت اثناء المعارك والتي ستعرض على القبيلة في حفلة كبيرة تلعب فيها الفرسان ويطلق الرصاص .

دخل القائد علال الى داره ودخل معه اصحابه الذين رافقوه في غزوته ، وكذلك اعيان القصبة ، فملأوا صحن الدار التي هي في الواقع قصر عظيم ، شاهق البنيان يحتل اكثر من نصف القصبة .

وانتهى النساء من غنائهن وزغاريدهن ، وكان الخدم مصطفين امام القائد علال ينتظرون منه ادنى اشارة وتفرس القائد في وجوه الحاضرين على ضوء الشموع والقناديل الزيتية وقال لهم :

« رجعنا اليكم ، والحمد لله ، منتصرين ، لقد غلبنا العدو في كل قتال نشب بيننا وطاردناه في الوديان والجبال ، وقتلنا منهم عددا كبيرا ، وقد اخذنا معنا اكثر من سبعين راسا سترونها غدا في حفلة « البارود » وما اتاسف الا على الذين لم يحضروا معنا في هذه الغزوة ، اما نحن فلم نفقد من جانبنا الا عشرة رجال ، رحمهم الله رحمته الواسعة ، وان ابناءهم سيصبحون ابنائي ونساءهم سيكونون تحت حمايتي ورعايتي .. والآن اطلب منكم ، يا اخوتي ويا ابناء عشيرتي ان تبقوا كلكم عندي حتى تتناولوا العشاء ».

ثم التفت الى الخدم ونظر اليهم نظرة السيد وقال : « هيا ، قدموا للناس الطعام » .

وتفرق الحاضرون في الحجرات الفسيحة حيث نصبت لهم فيما بعد القصاع الكبيرة المملوءة بالطعام بينما دخل القائد علال الى بيت نسائه ، حيث كانت تنتظره حفلة اخرى هي احب الى نفسه واشهى .

* * *

فقد اعتاد ، كلما عاد من غزوة ، ان يدخل باحدى الكواعب الابكار المختارة من بين بنات القبيلة الموصوفة بالجمال والاصالة ، وقد حرص في المرة الاخيرة ان ان يختار هو بنفسه الفتاة التي ستزف اليه ليلة رجوعه من مغامراته الحربية .

وبالفعل ، فما اقبل على صحن البيت حتى وجد نساءه الكثيرات مصطفات وبايديهن الدفوف والدرابيك وهن في ايقاع حار ملتهب يرددن اهازيج الترحيب والفرح ، واخترق صفوفهن شامخ الانف واتجه نحو القبة ، وتبعته امراة بدا يطفو على وجهها ماء الكهولة، ودخلت معه الى القبة ، وما ان استوى به المجلس حتى انحنت عليه لتقبل يديه ، فاشار اليها بالجلوس وقال :

كل شيء مهيأ ، يا فاطمة ؟

ــ نعم ، سيدي ، كل شيء مهيا .. ولعلك ، محتاج الى تناول شيء من الطعام اولا ؟

ــ لا .. هاتي البنت .. والطعام معا

ــ حالا ، سيدي

ولكنها ما وقفت حتى تذكرت شيئا مهما ، وقالت : « ولكن ، يا سيدي ، لابد ان تعلم ان..

فقاطعها مغضبا : قصي علي الامر فيما بعد .. هل فهمت ؟

وخرجت المراة وهي لا تكاد تصدق بخروجها سالمة من بين يديه ، وغابت برهة وجيزة وعادت وبجانبها الفتاة العروس وهي ممسكة بيدها وخلفهما الخدم يحملون اطباق الطعام والنساء خارج القبة مسترسلات في الاهازيج والاغاريد والتراجيع .

وضع الخدم الاطباق في احد ابهاء القبة ، ثم خرجوا سراعا ، وعند ذلك اقتربت فاطمة وبجنبها الفتاة وهي تشجعها وتقول لها : « افرحي ، يا بزة واسعدي ، ان القائد سيحبك اكثر منا جميعا ، وستكوني اثيرة عنده ، عزيزة لديه .. ابسمي واضحكي ، فالقائد يحب في المراة ان تكون طروبا لعوبا ضحوكا .. وجميلة بالطبع ، واذا كانت كذلك ، فانه يعطيها كل ما تتمناه.

وكان القائد ينظر الى عروسه نظرة جدية ليس فيها ابتسام ، ولكنها نظرة فيها كثير من الرضى والارتياح ، نعم ، ان العروس اجمل مما كان يتصور ، ولكنها صغيرة لا تعرف ما يراد بها ، يدل على ذلك ارتعاشها وقفزان صدرها .

وما هو الا ان قام القائد اليها وامسكها من ذراعيها واجلسها الى جنبه ، وانسلت فاطمة وخرجت الى النساء تامرهن بهز « عمارة » جديدة بالدفوف و « التعاريج » .

وهكذا ، دخل القائد علال بعروسه الجديدة وسط الاناشيد والزغاريد وبين اهليه وذويه ونسائه ووسط اعيان القبيلة ووجهائها .

* * *

وبعد ساعة خرج من القبة وتوجه الى الحمام واغتسل ودخل الى حجرة بجنب الحمام يستريح

فيها ، وصلى ما فاته من اوقات ، وعند ذاك دخلت عليه فاطمة وهي من اولى زوجاته واذكى نسائه وتفرست فى وجهه خفية وفهمت انه قلق من شيء ، فقالت : انك ، يا سيدي ، متعب ، وفى حاجة الى شيء من النوم والراحة ..

— لا ، لا ..

او لعل ، سيدي ، غير راض عن عروسه وانكر منها شيئا ؟

— لا ، لا ، بالعكس .. ايه ، يا فاطمة ، الآن ، اعيدي علي قصتك .

— كنت اريد ان اخبرك ان يزة لما ذهب اصحابك ليأتوا بها واخرجوها من بيتها ، تعرض لهم ابن عمها فى الطريق ومعه صاحبان له ، واوقفهم ، وامرهم بان يتخلوا عن البنت لانه خطبها من عمه ووعده بها ، وطلب منه اصحابه ان يتركهم وشانهم ويفسح لهم الطريق ، فلم يقبل ، ونشب بين الفريقين جدال انقلب الى قتال ، وقد وقع ابن عم يزة فى الاسر ، وهو الآن سجين فى المطمورة التي بجنب الدار ، وكنت اريد ان اشير عليك باطلاق سراحه حتى تكون يزة منشرحة النفس طيبة الخاطر ، وقد حدثتني هي نفسها فى الموضوع واستعطفتني .

وسكت القائد برهة ثم قال وعلى وجهه امارات الاحتقار والغضب : « قبحكن الله ، يا نساء ، فما اوهى عزائمكن واضعف قلوبكن وايمانكن .. والله ، لولا اني مصاب بداء الحلم لقطعت راسك وراسها ، وجعلتكما عبرة لنساء القبيلة ، ولكن ، انذريها انها ان عادت الى الخوض فى هذا الموضوع ، فانها لن تأمن غائلتي ..

اما ابن عمها ، فقد ساقته الاقدار الى الموت .

وبهتت وجحظت عيناها لما سمعت ذكر هذه الكلمة ، ولم تتمالك ان صاحت : الموت ! الموت ! الله ! الله !

— نعم ، نعم ، الموت .. انني احارب الاعداء خارج القبيلة ، ولا اريد ان يكون لي اعداء فى داخلها ..

انصتي ، اني سآمر بقتله الآن ، والذي اطلبه منك هو ان تقولي ليزة اني اطلقت سراحه وامرته بالخروج من القبيلة والابتعاد عن الاطلس بالمرة .

وسكتت فاطمة ، وسكت القائد علال برهة من الزمان ، وتفرست فاطمة فى وجه زوجها وكانت اعرف الناس به ، وقرات فى ملامحه انه هذه المرة لم يعد راضيا ، مرتاحا من غزوته ، فلم تتمالك ان بادرته قائلة :

— والله ، يا سيدي ، انك لم تعد مسرورا فرحان من رحلتك .

— ومن قال لك هذا ؟

— هذا ظاهر على وجهك .

— ذلك لاني لم اقتل ما يكفي من الاعداء .

فاجابته متعجبة : وهذه الاخراج الملأى بالرؤوس المقطوعة ، وهذا العدد الضخم من الاسارى والسبايا؟ اليس ذلك كافيا ؟

فارتعش شارباه ، وقال لها وقد التقى حاجباه وتقطب جبينه : والله لو قتلت كل هذه القبائل المجاورة ، ما كان ذلك يشفي غليلي ، وما دام القائد ابراهيم حيا يرزق ، فلن يطيب لي منام .

— ومن هو القائد ابراهيم ، يا سيدي ، حتى تعبأ به وتحسب له كل هذا الحساب ؟

— انه نذل ، خسيس ، لئيم ، ولكنه ما دام معتصما برؤوس الجبال ، وما دام يسبني وينتهك حرمتي وانا لا اعرف الراحة ولا يهدأ لي بال .. لقد دانت لي كل القبائل المجاورة ، واصبح كل القواد من اقصى سوس الى بلاد الحوز يخطبون مودتي ويهابونني ، ولم يبق الا ابراهيم ذلك الوغد السافل .. ولابد لي من راسه ، طال الزمان ام قصر .

— مع مثل هذا الرجل لا تنفع الا الحيلة .

— واي حيلة ؟

— لابد ان توجد حيلة تقضي عليه ، وقد قيل قديما : رب حيلة انفع من قبيلة ..

وسكتت برهة ، ثم قالت بقوة وحماس : واذا دللتك على حيلة ناجعة ، ماذا يكون جزائي ؟

— اطلبي ما تريدين ..

— انا لا اطلب منك شيئا لنفسي ، لا مال ولا حلي .. وكل ما ارجوه هو ان تطلق سراح ذلك الشاب ابن عم « يزة » .

فنظر اليها متعجبا وقال : انك لمشغولة القلب بهذا الشاب ، هل هو من اقاربك ؟

— لا ، ولكن ، يا سيدي ، ليس له ذنب الا كونه يحب ابنة عمه .

ونظر اليها القائد نظرة ملؤها الغطرسة وقال : انا ليس من عادتي ان اسامح واصفح .. ولكن فى هذه المرة ، ساحاول ، على شرط ان تكون حيلتك ناجحة ، فاذا ما قبضت على القائد ابراهيم واتيت به مكبلا ، مسلسلا ، فساطلق سراح ذلك الشاب الجرىء ، والا فلن يكون حظه الا الموت ، هل فهمت ، هل فهمت ؟

— نعم ، سيدي

— والآن ، ما هي حيلتك ؟ اشيري علي بها وعجلي

— ان اذنت لي ، يا سيدي ، ان اخرج لاتصل بأخي فان له دورا مهما يقوم به فى هذه المسالة ، ثم أعود لابين لك ما استقر عليه راينا .

— تخبثين علي ، يا ملعونة ! قومي لعنك الله ، ولك اجل الى غد عند اذان الظهر ، فاذا لم تعطيني جوابا ، فانا فى حل من قتل الشاب ، والآن قولي ليزة ان تاتي حالا عندي .

❋ ❋ ❋

وفى الغد ، عند الضحى ، دخلت فاطمة على القائد ومعها اخوها عسو المدعو « القنفد » لكثرة ما ينكمش فى جلسته وهيئته ، وكان القنفد احد ادباء الاطلس الشعبيين ، شاعرا ، مضحكا ، ماجنا ، منشدا ، ومغنيا يتجول بين القبائل ويجلس مع القواد والكبراء في خلواتهم ، مقبولا لدى الجميع لنكتته وخفة روحه ، والى جانب هذا ، كان رؤساء الاطلس يستشيرونه فى المسائل الجدية ، فيجدون لديه الراي السديد والفكرة الثاقبة

واستقبله القائد بشوشا : على سلامتك ، يا قنفد ، ما بالك لم تحضر البارحة ؟

وحدق فيه القنفد بعينين ساخرتين : وهل بحثت عني ؟ وهل انا امراة جميلة حتى اتقدم اليك ليلة عودتك ؟

— قاتلك الله ، انت لا تعرف الا الضحك والمزاح ، ولا يعرف الهم الى صدرك طريقا .

— وماذا يفعل الهم برجل مسكين مثلي ، هو لا يحب الا مرافقة الكبراء .

وظلوا فى حديث ومداعبة الى ان قال القائد : لعل فاطمة تحدثت اليك فيما يشغل بالي ؟

— نعم ، واذا عملت بمشورتي فستنتهي المشكلة.

— وما هي مشورتك ؟

— الراي الذي ساشير عليك به سيجعل القائد ابراهيم فى قبضتك ، وسيترك لك الخيار بين ان تقتله او ان تتخذ منه صديقا ، والراي عندي هو ان تتخذ منه صديقا .

— ولماذا ؟

— لان القائد ابراهيم يستحق ذلك ، انتلا تعرفه، اما انا ، فلي معه صحبة قديمة تتجاوز العشرين سنة، واذا انصت لي واسكت العداوة فى قلبك ، فساتكلم لك عنه بكل انصاف وحق ، انه رجل شهم ، شريف وهو احسن من كل هؤلاء القواد الذين يحيطون بك ، لانه ليس بالمنافق ولا بالغدار ، وكلمته كلمة الرجال ، واذا ما رايته استمر فى حربك ، فلانه لا يرضى ان يخضع للقوة ، ولو اظهرت له الاستعداد للصلح والصداقة وظهر له منك العزم الصادق ، فانه يمد اليك يده ويعتمد عليك ، هذا هو القائد ابراهيم .

— والآن ، ما هي خطتك ؟

ـ خطتي هي ان تزوجه احدى بناتك واذا ما تم ذلك نشأت بينكما الثقة ، واذا ما قدم عندك ، فلك ان تفعل به ما تشاء .

فاجابه القائد مستنكرا : هرمت يا قنفد وخرف عقلك ولم يبق لك رأي .

ـ ولماذا ؟

ـ لانك تقترح علي ان ازوج احدى بناتي من الد عدو لي .. واذا امسك بنتي عنده واستمر في محاربتي ورفض ان يقدم عندي كما تقول ، فاي وجه سيبقى لي ، وكيف تكون حالي امام الناس ؟

ـ انا اعرف القائد ابراهيم واعرف طبعه ، وعلى كل حال ، اذا وقع شيء ، مما تخاف ، فدونك راسي فاقطعه .

ـ ومن سيدبر هذه الخطة ؟

ـ ما عليك الا ان تكل الى الامر ، حتى آتي اليك لاخطب بنتك نيابة عن القائد ابراهيم ، وكل ما تهتم به الآن هو ان تزودني بما يكفي من المال والزاد وان لا تكون في ذلك مقصرا مقترا .

وفكر القائد مليا ثم رفع راسه وقال بصوت قوي ، صوت الذي اتخذ قرارا حاسما : طيب ، اني اقبل ان امشي معك في هذه التجربة ، فان نجحت ، اطلقت سراح ذلك الشاب وجازيتك بجائزة اترك لك اختيارها ، وان فشلت قتلتك وقتلت فاطمة اختك والشاب ايضا ، ففكر قبل ان تجازف بنفسك ، واذا قبلت هذه الشروط جهزتك بالمال وبما يلزم لتذهب حيث ترمي شبكتك .

ـ ايها القائد ، لست في حاجة الى شبكة ، وانما الى صنارة ، لاننا لا غرض لنا الا بسمكة واحدة ، اما شروطك ، فقد قبلتها ، ولا احتاج معها الى روية وتفكير .

وهنا نطقت فاطمة التي ظلت صامتة الى تلك اللحظة : لعل سيدي يقبل الآن ان يخرج ذلك الشاب من المطمورة ويضعه تحت الحراسة في احدى الحجرات .

فنظر اليها شزرا وقال لها بصوت مغضب : ذلك امر موكول الي ، وثقي اني لست فظا غليظ القلب .

فابتدره عسو : هل افهم من هذا انه اذا قدم عليك القائد ابراهيم ليصطلح معك ، فستمحو من قلبك كل ضغن وستستقبله كصديق ؟

ـ هذه مسالة اخرى نتركها للزمان هو الذي يفصل في شانها .

وبعد ما اتفق عسو مع القائد على ترتيبات السفر ولوازمه وجهزه بكل ما يحتاجه لمهمته ، خرج من القصبة وانصرف على بغله يخترق نجود الاطلس ووديانه ، متجها نحو احد المرتفعات حيث يربض القائد ابراهيم وسط عشيرته .

❊ ❊ ❊

جلس القائد ابراهيم وحوله جماعة القبيلة ، الساعة ساعة الحكم وفض النزاعات ، يتقدم المتحاكمون اليه وهو يفصل في قضاياهم بسرعة ، واعضاء الجماعة لاينبسون ببنت شفة ، ذلك ان القائد ابراهيم كان في نفس الحين قاضيا موفقا موهوبا يهتدي بسرعة الى الاحكام التي تسوي بها القضايا الشائكة ، هذا مع كامل النزاهة والتجرد .

والواقع انه ما كان احد ، سواء من اعيان القبيلة او غيرهم ، يستطيع ان يجرؤ على القائد ابراهيم لانه يفوق الجميع بدماثة اخلاقه وشجاعته ورجولته وتواضعه وايثاره وكرمه واحسانه ، وقد بلغ من السخاء مع الضعاف والمحتاجين انه صار في الآخر لا يملك اي ثروة شخصية ، الى جانب هذا فقد كان شابا بهي الطلعة مهيب السمت .

وكان آخر من تقدم اليه في ذلك اليوم للتحاكم شخص محدودب الظهر ، معتم بعمامة غريبة ، ملثم ، اقترب منه وهو يتكىء على عصاه وقال له : لقد بقيت انا الآخر ، ايها القائد ، لان لي شكاية طويلة .

فنظر اليه القائد متعجبا وقال : ومن هو خصمك؟
ـ خصمي ؟ .. انك اعرف الناس به .. واخشى ان لا تاخذ لي منه حقي .

فحدق فيه القائد متعجبا وقال : قل لي من هو وسأفرجك عليه .

ـ اذا كنت تتعهد لي بذلك ، فانا اقول لك من هو .. خصمي ايها القائد هو انت .. فهل تستطيع ان تنصفني من نفسك ؟

واندهش الحاضرون وازداد تعجب القائد وقال له بقوة : انك تتهمني ايها الشيخ دون ان تعرفني بنفسك ، والآن سنتحاكم الى الجماعة ، فاذا تبين انك تظلمني فماذا سيكون جزاؤك ؟

وما اتم القائد ابراهيم كلامه حتى انطلق الشيخ بضحكة عالية مدوية وازاح اللثام عن وجهه وكم كانت دهشة الحاضرين عندما عرفوا فى وجه الرجل « القنفذ » احد شعراء الاطلس المعدودين واحد ظرفائه ومضحكيه .

وضحك الجميع وقام اليه القائد فعانقه واجلسه الى جانبه ، والتفت القائد الى اعضاء الجماعة وقال لهم : ايها الاحباء ، انتم ضيوفي فى هذا النهار ما دام الشيخ عسو جاء ليزورنا ويسمعنا من شعره ونوادره .

وذبحت الاكباش ونصبت الموائد ، وكان يوم كله ضحك ولهو وقصف وعزف ، وكلما انتهى الشيخ عسو من لون انتقل الى غيره ، مما جعل الحاضرين كلهم ينسون اهليهم وذويهم وينسون كذلك هموم الحياة ومتاعبها ويمرحون فى جو كله سرور وسحر وسلو . وغرور .

وظل القنفذ فى ضيافة القائد اسابيع وهو فى ارغد عيش واطيب مقام الى ان اغتنم خلوة مع مضيفه ففاتحه قائلا : بعد هذه المدة التي قضيتها عندك فى احسن ضيافة ، لا اخفيك ايها الاخ تعجبي من شيء لا يفارق بالي ، والآن ولم يبق لي الا ان اودعك ، لست ارى بدا من التحدث اليك فى ذلك بكل صراحة حتى يطمئن قلبي .

ـ وما الذي يثير فى ءان واحد تعجبك وتألمك قل لي بكل صراحة ، فانا احب ان اسمع الحقيقة .

ـ الذي يثير تعجبي هو عداوتك مع القائد علال .

ـ ولمه ؟

ـ لاني اعرف كل واحد منكما حق المعرفة ، فكلاكما راشد عاقل ، والعاقل لا يقبل ان يصير عدوا الا لاسباب معقولة ، وانتما اي شيء بينكما ؟ حقا لقد كان ابواكما متعاديين ، ولكن عدواة الاباء قد تنقلب الى صلح وصداقة بين الابناء .

فاجابه القائد بهدوء وصرامة : لا تحدثني عن صهرك القائد علال ، فكلما تذكرت اسمه تذكرت مصائبه واسودت الدنيا فى عيني .

فضحك عسو وقال : سبحان الله ، انتما تتشابهان حتى فى طبعكما ، فهو كذلك يقول نفس الشيء عندما يذكر له اسمك ، ولكن ، فى الايام الاخيرة، شعرت انه يتضايق من هذه العداوة ويحمل هما كثيرا بسببها الا ان انفته تأبى عليه ان يصرح بشيء

ـ انصت ، يا عسو ، ان كان القائد علال وجهك الي رسولا من عنده ، فتفضل وابلغني الرسالة ، والا فلنترك الحديث فى هذا الموضوع .

ـ عجبا لكم ايها القواد ، انتم لا تعترفون الا ببعضكم ، فمن جاءكم رسولا من عند قائد مثلكم تنصتون اليه ، واذا جاءكم احد ليدافع عن ضعفاء ومظلومين تغلقون ءاذانكم وتسدون فى وجهه الابواب ، لست انا ايها القائد ابراهيم ، رسولا من عند القائد علال ، واذا اراد القائد علال ان يوجه اليك رسولا ، فلن يختار شيخا خرفا مثلي ، وانما انا ، فى الواقع ، رسول للثكلى والارامل واليتامى الذين فقدوا الابناء والازواج والاباء فى هذه الحروب التي تشعلون نارها انتم معشر الكبراء ، اما ترفقون بهم وتنهون الخصومة فيما بينكم ؟

ـ هل فكرت فى ما تقول ، يا عسو ؟ من المسؤول عن هذه الخصومة ؟ ومن بداها ؟ ومن استمر فيها ؟

ـ كل هذه مسائل الحق فيها بجانبك ، ولكن ، هل من الصواب البقاء على حال كهذه ؟ اليس من الممكن اطفاء نار الحرب بطريقة تحفظ لكل من الخصمين شرفه وكرامته ؟

— انصت ، يا عسو ، كلمة اخيرة ، اذا كـان صاحبك يرغب فى الصلح ، فانا لا اقول له : لا ، وانما يجب ان يكون رجلا معـي

— اني متيقن انه فى قرارة نفسه يرغب فى الصلح، ولا يحول دون هذا الصلح الا حاجز العنـاد مـن الجهتين ، واذا اذنت لي وتركت نسيم الخير والسلام يهب على نفسك ، فسأفكر بما بقي لي من عقل ضعيف فى اشرف طريق للوصول الى صلح الاخوة وتطهيـر النفوس من الضغن وادران العداوة .

— كل هذا حسن ، ولكن ، انا لا استطيع ان امد يدي انا الاول ، فلست البادىء بالشـر ، وعلى كل ، فليعلم صهرك انه اذا اراد الاستمرار فى الحرب ، فانا مستعد لها ، واذا جنح الـى السلم ، فانـا رهـن اشـارته .

وتهلل وجه عسو وانطلقت فى تجاعيده ابتسامـة تدل على رضى وارتياح ، وقال بلهجته المرحة : الحمد لله .. الحمد لله .. ان اجري عند ربي يكون عظيما، فقد ساعدتني الاقدار على حقن الدماء واصـلاح ذات البين .. والله لقد انشرحت نفسي حينمـا تحققت ان كل واحد منكما له رغبة اكيدة فى الصلح ورجائـي الى الله ان يتم الامر بينكما على احسن حال ويستحكم التقارب حتى تنسينا الايام المقبلة ما مر من ساعـات النحـس والنكـد ...

قال ذلك بلهجة الاولياء الصالحين وبصوت فيه رقة وحنان ، ولم يتمالك ان تلالات فى عينيه دمعتان عند ذكره لساعات « النحس والنكد » ، وسكت لحظة ثم قال : والآن ، ايها القائـد المغـوار ، اذا اذنت لي ، فقبل ان اودعك غدا ، سنجدد الكلام فى هذا الشـان حتى نصل الى الغاية المنشـودة .

— انصت ، يا عسو ، انا لا اريد ان اسمع منـك كلمة الوداع ، وسيؤلمنا ان تفارقنا هكذا بهذه السرعة ، فاجلس ، معنا فان لنا رغبة اكيدة فى انسك وحديثك ، اما ما ذكرت ، فسيأتي باجلـه .

❋ ❋ ❋

وقضى عسو اياما اخرى مـع القائد ابراهيم ، ثم جاء ليودعه واعاد الكرة مـن جديد ، مرغبا اياه فى الصلح عارضا خدمته ووساطته ، وصادف من القائد ابراهيم نفسا كريمة وقلبا صفوحا لا يعرف الضغـن اليه سبيلا ، حيث سمع منه هذا الكلام : اذا وجدت طريقا لاصلاح ذات البين فانا مستعد لقبولها لا اشترط عليك الا شرطا واحدا ، هو ان يتجنب القائد عـلال كل اعتداء على اراضينا واولاد قبيلتنا ويحتـرم حريتنـا .

فنظر اليه عسو مبتسما ابتسامته العريضة وقال له : ضع يدك يا قائد ابراهيم فى يدي ، وتوكل على الله وعلى صحبتي ، لقد وجدت الطريق ، وما اوسعهـا واحسنها واسهلها من طريق ، هل عرفتها ؟

— لا ، واللـه .

— لقد فكرت وفكرت فى الامـر وتبين لـي ان احسن طريقة لانهاء العداوة هو ان تصبح صهرا للقائد

— هذا امر صعب ، بعد كل ما مر من الاحداث .

— والله ما هـو بصعب ولا شـاق ، واذا لانت القلوب من الجانبين فاحسن ما يؤلف بينها هو علاقة الزواج ورباط المصاهرة ، وعلى كل حال ، فاتمام الامر موكول الي ، مادمت قد قبلت ان اكون واسطة خير ، وازيدك ايها القائد ان المسألة لها جانب مغر ، خصوصا بالنسبة للشباب امثالـك ، انت لا تعـرف عائشـة بنت القائد علال ، عائشة ومـا ادراك مـا عائشـة ! صدقني ، والله لو رايتهـا فى جمالها وطول قامتهـا وبياضها لصحت من غير شعور ورميـت بعمامتـك ونسيت نفسـك والزمان وبقيت تنظـر اليها بـدون انقطاع ، كل هذا مع العقل والعرض والاخلاق وحلاوة الطبع وخفة الروح ، والله ، يا قائد ابراهيم ، مـا نلت من الدنيا شيئا ان لم تتزوج عائشة بنت القائد علال .

فاجابه القائد ابراهيم بدون تفكير : انا لا اطلب كل هذا ، ويكفيني العرض والعقل ، قاتلك الله مـن شاعر ، انت لا تكون مسرورا حتى ترى صاحبـك مستسلما امام بلاغتك .. ومعنـى هذا انني لا ارى من جانبي اي مانع من المصاهرة مع القائد علال اذا كان يرغب فى صلح حقيقـي .

ووضـع القنفد يده فى يد القائد وصافحه بحرارة وايمان ، مفهما اياه انه متفق معه على كل شيء، وتعانق

الرجلان للوداع ، وركب القنفد بغلة مسرجة اهداهـا اياه القائد ابراهيم وانصرف قافلا الى بلدته .

* * *

وسارت الامور بسرعة وبسهولة ، عاد عسو فاخبر القائد علال بنتيجة رحلته ، فارتاح القائد لما سمع وطلب من عسو ان يعود الى القائد ابراهيم ليبلغه استعداده للصلح معه وتزويجه من ابنته عائشة .

وعاد عسو الى القائد ابراهيم فى جبله الشامخ واطلعه على كل ما تم فى الامر ، وبعد اسابيع زفت عائشة بنت القائد علال فى موكب من فرسان القبيلة ورجالها الى القائد ابراهيم وكان عرس وكانت افراح وولائم تناقلت اخبارها قبائل الاطلس .

ومرت الشهور والاعوام ، ورزق القائد ابرهيم اولادا من عائشة ، واحبها كما احبته ، ووجد فيها اكثر مما قاله عسو ووصفه .

ونعم الاطلس بالصلح بين القائد علال والقائد ابراهيم ، وامنت السابلة ، وتنوسيت الاحقاد ، ولحد تلك الساعة لم ينزل القائد ابراهيم الى صهره ولم يزره ، وانما كانت الرسل تتناقل بينهما بدون انقطاع ، وكانت العلاقات على احسن ما يكون من الود والمحبة ، ولم يكن ثمة اي حيطة او حذر من جانب القائد ابراهيم ، وانما اقعده عن زيارة صهره نوع من التعفف والاحترام ربما كان ناتجا عن ايام العداوة والحرب .

وفى ذات يوم جاءت المناسبة ليزور صهره ، فقد وجه القائد علال يطلب بنته عائشة ان تزوره هي واولادها وينزلوا فى ضيافته اياما .

وفهم القائد ابراهيم ان الفرصة سنحت ليتلاقى مع صهره فوجه اليه يخبره بقدومه ، وتهيأ للسفر فى جماعة صغيرة من اصحابه وساروا ومعهم زوجته واولاده فى منعرجات الجبال يتنقلون بين الوديان والهضاب الى ان اشرفوا على قصبة القائد علال والمؤذن ينادي لصلاة العصر .

وكان القائد علال فى تلك الاثناء جالسا فى دهليز بيته مع شيخ يظهر من سحنته وهيئته انه تاجر اتى من احدى المدن الحضرية ، وكانا جالسين على طنفستين من دوم وهما غارقان فى حساب طويل ، الى ان فاجأهما المخزني بدخوله وقال للقائد علال وعلى وجهه علامات الجد : سيدي لقد وصل القائد ابراهيم ومعه العيال والاصحاب فلم يفكر القائد علال طويلا ، وانما قال له :

— العيال يدخلن عند العيال ، والاصحاب ينزلون فى ضيافة الخليفة احمد .

وسكت ، فقال له المخزني : والقائد ابراهيم ؟

فنظر اليه القائد علال بهدوء ووضع اصبعيه على عنقه وامضاهما من الوريد الى الوريد ، مشيرا اليه بالذبح .

خرج المخزني والتفت القائد الى صاحبه التاجر قائلا « لنعد الى حسابنا » ولكن التاجر كان قد اغمي عليه ، فنادى القائد على مخزني ءاخر وقال له : « رش الحضري بالماء حتى يستيقظ ، فساعود بعد قليل .





في المغرب العربي : التعريب واجب وطني :

تلك هي الحقيقة التي آمن بها الشعب وتبنتها الحكومة ونفذها صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس حين امر جلالته بتنظيم دورات خلال كل سنة للموظفين الذين هم وجه الحكومة واداة الدولة ومرآة الاستقلال ، وفعلا فقد تم فتح دورة في السنة الماضية كانت دورة تجريبية ، راى فيها المسؤولون عوامل النقص ، وادركوا اسباب النجاح ، وعملوا على ان تكون هذه الدورة الثانية التي ابتدات هذا الشهر دورة مثمرة ، وحملة موفقة خصوصا بعد ان قسم المشتركون الى فئتين ، فئة مبتدئة وهي التي يجب ان يعتنى بها عناية خاصة لانها احوج الى التعريب ، وفئة متوسطة تستطيع بمجهود قليل ولكنه منظم ومخلص ان تتدارك النقص وتلتحق بالركب ...

والحق أن مشكلة التعريب الاداري من مخلفات الاستعمار الذي عمل جهده على محاربة لغة البلاد ، وهدم كيان الامة العربية في هذا الوطن العربي ... وما اكثر ما خلفه الاستعمار من مشاكل ولكن اعظمها واخطرها فيما اعتقد امران اولهما تنظيم الوظيفة العمومية ، وثانيهما تعريب الادارة ومغربتها ، ومن الاسف انه رغم المجهودات التي تبذل لاصلاح الوظيفة العمومية فلا تزال الادارة تسير حسب ما رسمه الاستعمار وخططه الفنيون المفروضون ، مما جعل الوظيفة لا تعتمد على اساس يضمن لها الاستقرار والتخصص والاستفادة من الكفاءات مما دفع بالموظف الى ان يصبح مساوما يبحث عن المنصب الذي يدر الربح الوفير ، والتعويضات الكافية ، والانديس المرتفع والعمل المريح ، فخلت بذلك بعض الوزارات التي لا رواتبها تغري ولا تعويضاتها خالية من الحراس، واكبر مثال على ذلك وزارة التعليم ، وبناء الفصول ، وتكوين الاطارات لا يؤمها الا مضطر ، ولا يعمل بها الا من لفظته الابواب واوصدت في وجهه النوافذ فيدخل الى التعليم راضيا بالغبن مؤمنا بالاجحاف ، لاعنا للظروف ، ساخرا من نفسه ومن الحياة ... انها مشكلة ، ومشكلة خطيرة ارجو ان يوفق المغرب في عهد ملكه الشاب الى حلها واصلاح فسادها وتوحيد اطارات الوظيفة العمومية وتسوية الشهادات وتوحيد الترقيات .

اما التعريب فهو مشكل معقد لانه عمل لا يتعلق باعادة تنظيم او اصدار قانون ولكنه عملية تكوين وخلق ، والتكوين يستلزم امكانيات، ويتطلب مجهودات ويستغرق وقتا . وافضل حل له أن تعطى الدروس باللغة القومية طول السنة ، وان يقوم بالتعليم اساتذة مختصون لهم خبرة وتجربة الى جانب الثقافة والكفاءة ، وقبل ذلك لابد من رغبة وشعور يجعل الموظف يقبل على العربية بدافع وطنيته ، وايمانا بقوميته .

وفي الجمهورية العربية المتحدة :

الدين والدنيا رسالة الازهر :

الان اصبحت جامعاتنا الاسلامية وعلى راسها الازهر الشريف تشق الطريق الى التقدم الحقيقي حين اعادت للدراسات الاسلامية شمولها ، وارجعت لجامعاتنا رسالتها الاولى ، رسالة العلم والنور والخلق فاحدثت كلية جديدة لا لتكوين الفقهاء والقضاة والمفتين والوعاظ فقط ، ولكن لتخرج لنا رجالا قادرين على الحياة ساهمين في بناء حضارة امتهم ، لتخرج لنا المسلمين الاولين الذين لم يلههم الدين عن الدنيا ، ولم تفتنهم الدنيا عن الدين ... وحسنا فعل الازهر حين فتح هذه الكلية الجديدة للمعاملات والادارة وجعل الدراسات فيها متنوعة تشمل النواحي الاقتصادية والتجارية والقانونية وقسمها الى شعب متعددة اهمها: الاحصاء ، ادارة الاعمال ، المحاسبة ، الادارة العامة ، وبذلك حقق حلما طالما راود المصلحين ورفع وصمة عن جبين الدراسات الاسلامية في عهودها المتاخرة ، عهود التخلف الفكري والتتريك العثماني والغزو الاستعماري

التي جعلتها جامدة لا تجتر الا الموات من تفكير الاموات فاصبحت لا تغني عن الحياة شيئا .. وقد استغل الاستعمار هذا الجمود لصالحه حتى لا يستيقظ العقل العربي ماردا جبارا يحطم الاغلال ويعيد التاريخ ويقهر الدخيل ، وجاءت اليقظة وعم الانبعاث وتحقق الاستقلال ورجعنا الى موارد الثقافة نستمدها فاذا هي سلاح افناه الدهر واكله الصدا ووجدنا تراثنا عاجزا عن مسايرة الركب متاخرا عن التمدن الحديث وكانت الانتكاسة فاصبحنا نهاجم كل قديم ونكفر بكل موروث ، ونتعلق بكل جديد ونؤمن بكل وافد ، وما انصفنا حضارتنا وتراثنا في واقع الامر وانما ظلمنا ذلك الارث الخالد الذي ولد ولم يجد من يحضنه ونبت ولم يلق من يتعهده ..

وعسى ان تكون هذه الخطوة فاتحة عهد جديد للدراسات الاسلامية فتعيد لحضارتنا رونقها الجميل وسيرتها الاولى يوم كانت تحلق بجناحين : جناح الخلق والايمان والروح ، وجناح العقل والعلم والاختراع ، وحينئذ تحقق ما يدعو له الاسلام ويؤمن به من ازدواج في التكوين الانساني يعتني بالروح اعتناءه بالمادة ، ويعمل للحياة عمله للاخرة ..

وعندئذ سيكون الاختصاص في ثقافتنا غير الاختصاص الذي عرفناه ، ذلك الاختصاص الذي حرم ثقافتنا الاسلامية زمنا طويلا من منابع الحياة ، وروافد المعرفة مما قضى على عقولنا وجمد تفكيرنا وحصرنا في دائرة ضيقة لا نعرف شيئا عما حولنا ، ولا نتاثر ، ولا نؤثر وغير الاختصاص الذي ابتلي به هذا العصر فكان سببا لضيق الافق الفكري وعاملا من عوامل الجهل النسبي مما ادى بالانسانية الى الطبقية الفكرية ،وحرم الانسانية من طاقات مثمرة جبارة لو وسعت آفاقها الى جانب اختصاصها لاوجدت قاسما مشتركا يجمع المختصين ، هذا القاسم الذي يدفع بنا جميعا الى التعرف على جوانب متنوعة والوان مختلفة من المعارف الانسانية ويكون سببا في ازدهار الحضارة ، وعاملا في الاستفادة من الجهود المبذولة والعقول المبدعة ..

وفي بلاد الرافدين :

الام مدرسة :

لاول مرة في تاريخ العراق الحديث يسمح للمراة بالدخول لكلية الشريعة لتشارك اخاها الرجل في الدراسات الاسلامية ، ولتعمل معه متعاونين على خدمة مجتمعنا العربي المسلم وتوجيهه توجيها سليما ، والحق ان هذا القرار الذي اتخذته كلية الشريعة العراقية والخطوة التي خطاها الازهر الشريف بارض الكنانة حيث قرر في اول هذه السنة الدراسية واحد وستين واثنين وستين قبول الطالبات في مختلف كليات الجامعة الازهرية يعتبر نصرا كبيرا للمراة العربية المسلمة ، ولعل الفضل يرجع الى جامعة القرويين بفاس التي كانت اول جامعة اسلامية فتحت صدرها للمراة واعادت لها حقوقها المسلوبة في الثقافة الاسلامية وبوائها المكانة التي وضعها فيها الاسلام .

والواقع ان المراة في مجتمعنا الاسلامي على قدر ما رفع الاسلام من قدرها ، وعلى قدر ما اعطاها من الحقوق وجعلها اختا للرجل تشاركه الحقوق وتشاطره الواجبات ، بقدر ما ظلمها المتزمتون من المسلمين حيث جردوها من مكاسبها جميعا ، وحرموها من حقوقها والزموها البيوت وقصروها على المقاصر وخدروها بالخدور ، وسلبوها نعمة العلم ، ونور العقل فاصبحت عضوا اشل لا يقوم باية مهمة ، وشتان بين عصر يؤخذ فيه الدين عن النساء العالمات (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميرى) وبين عصر يتحرج ابناؤه من تعليم البنات وتثقيف النساء ، وشتان بين دين يوجب العلم والثقافة على الذكر والانثى ، وبين متدينين حصروا معرفة الدين على طائفة خاصة من الرجال اسموهم رجال دين ... وليت شعري متى كان للاسلام رجال دين او نساء دين انما نحن جميعا رجالا ونساء مكلفون بتبليغ ما نعلم ، ومن هنا كان المسلم رجل دين وعقيدة ولو اعوزه التخصص والتبحر .

وعسى ان تحقق الاخت المسلمة بدخولها الى ميدان حرمت منه اكثر من الف سنة اماني الامة العربية ، وتعيد لنا تاريخ الامجاد ، وتشارك اخوانها في الكفاح المرير من اجل اسعاد شعبنا وبناء امتنا وتوجيه مجتمعنا توجيها سليم الاتجاه ، قويم الخلق ، قوي التكوين ، وان اغلب مصائب امتنا واقوى اسباب تاخرنا يرجع الى تخلف القاعدة الاساسية التي يبنى عليها كيان المجتمع ويتوقف على مستواها مستقبل الشعب الا وهو المراة مربية الاجيال ، ومكونة الشعوب وصانعة المعجزات ومبدعة التاريخ وموجهة الامم ، وما احوج المراة المسلمة للدراسات الاسلامية ، والتكوين الروحي الذي يجعل منها نورا يهدي شبابنا ويعدها للدفاع عن معتقدات امتنا وحراسة تراثنا بتكوين ابنائنا تكوينا خلقيا صحيحا وتنشئتهم على المبادىء الاسلامية الصحيحة ، وتطهير عقولهم من خرافات الجاهلين وسموم المغرضين :

الام مدرسة اذا اعددتها ❊ اعددت شعبا طيب الاعراق

اعداد : موساوي زروق

مناقشات

حول قصيدة: إننا أخوان

للاستاذ عبد الكريم التواتي

وبعد ...

كنت انتظر من الاخ الحلوي وفى تعليقه الثاني بالذات على قصيدتي اننا اخوان ان يركز انتقاده حول موضوعية القصيدة وشكليتها ومدى استجابتها لما وضعت من اجله ، او على الاقل ان يضع النقط على الحروف ويفتح اعين القراء على الجوانب التي استرعت اهتمامه من حيث يريد ، وان يكون قبل هذا وبعده موضوعيا الى اقصى حدود الامكان او على الاقل الى الدرجة التي تظهره بمظهر الناقد البصير النزيه والذي يحاول جهد امكانه ان يبين الحقائق المجردة وان يلقي عليها من انوار مجهره الدقيق الاضواء الكشافة التي تقف المتتبعين للحياة الادبية فى هذا البلد الكريم على المواضع المغموزة ـ فى نظره ـ فى القصيدة التي كانت ـ ويجب ان تظل ـ محور كل هذه التعليقات ـ ولو انه فعل ـ وله الاختيار ـ اذن لاراح نفسه من عناء البحث وراء سراب خادع ، ولجنب قلمه هذه الكلمات النابية ـ المنافية لمكانته كاديب ممتاز ـ التي اوردها فى غير ما موضع من تعليقه الثاني والاول ، ولابعد كذلك عن اذواق القراء هذا الاسلوب المهلهل الذي حاول وراءه وبه ان يبين عن هذا اللاشيء الذي اقام حوله زوبعة فى فنجان .

وكنت انتظر من الاخ الحلوي كذلك ان يركز نقده حول النقط التي كان اثارها فى تعليقه الاول فلا يخبط خبط عشواء او يتهافت فى هذا العديد من النظريات المتناقضة، والافكار اللامحدودة المعالم او الاهداف والتي اوردها فى سياق مشوش الانغام ، عديم الارتباط .. ولكن اذا كان من الحقائق المسلمة ان الانسان ـ يجب ان يتقبل احيانا الواقع بوصفه حقيقة راهنة ان طائعا او مكرها، فانا لن نحاسب الحلوي على هذا التهافت الذي دعاه اليه فيما يبدو ما كان يعانيه من انفعالات نفسية عصبية حين وجد نفسه فى الميزان وهو الذي كان يصور له خياله المجنح انه فوق الاعتبارات وكل القيود .. وانما سنحاول فى رفق وهدوء ان نعالج ما ساقه فى حقائقه الخمس .. وكم يؤسفني ان اجد نفسي مضطرا من جديد ومنذ بداية الحديث على محاسبته على ما كنت اكدته فى تعليقي الاول حين وصفت معدته بعسر الهضم ، وانها لا تستطيع ان تهضم الا بعد الاجترار المتكرر . وفى هذا الموضوع حلا للاستاذ الحلوي هذه المرة فى رده على تعقيبي لا ان لا يخرج عما اعتاده والفه من تقليد الاخرين فى كل شيء بما فى ذلك تنظيم كتاباته فحسب ، وانما شاء ان يقلدني انا بالذات حين قسم بحثه الى حقائقه الخمس .. واذا كنت قد رميت الاستاذ الحلوي بالاجترار ـ وفى عرف الحيوان الناطق هذه المرة حتى لا يغضب ، فيضطر الى شرح المفردات اعتقادا منه انه فى درس من دروسه التقليدية ـ فما قلت منكرا من القول ولا زورا، وتعليقه الثاني اعظم شاهد على ما اقول ، وهو نفسه اكد وفى حرارة واسلوب خطابي مبسط استغرق صفحة كاملة من مجلة دعوة الحق هذه الفكرة ، بل ودافع عن احقيته فى ان يجتر ، وهو بعد هذا لا يتوانى ان يقول : ان هذا الاجترار هو وحده الذي يربطه وادبه بماضيه السعيد ، وهو الذي يجعل لمعاني شعره الاهداف العليا ، والمثل السامية التي تتوخاها الانسانية الحافزة فى تطوافها نحو استكناه المجهول ، ويؤكد ان الاجترار هو السبيل الوحيد الذي يعطي معطيات الشعر ـ فى نظره ـ الروافد القمينة بجعله يتطلع الى الخلود ، ويطمع فى البقاء .. وليستر هذا الاجترار المتعمد يضفي عليه كلمات براقة هي بدورها اجترار لما كان قد قاله الشاعر العربي :

اترانا نقول الا معادا او معارا من قولنا مكرورا

ويبدو ان الاجترار اصبح ملكة اصيلة لدى الاخ الحلوي، حتى انه لا يستطيع حتى حين يحاول ان يضرب مثلا ما الا ان يسرق هذه الامثال ايضا من الاقدمين، فهو حين اراد ان يصفنا بمرض الذوق والتعامي عن رؤية الحقائق الفاضحة لم يشعر الا وهو يجتر امثال الشاعر المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

وليس يصح في الافهام شيء
اذا احتاج النهار الى دليل

واذا كان الحلوي يرى ان من الاصالة وربط الحاضر بالماضي والمستقبل الاستمداد من افكار الاخرين، فله رايه الخاص، ونحن لا نناقشه في مدى ايمانه بهذه النظرية، وانما الذي نريد ان ننبهه اليه ونثبته، هو اننا نرى خلاف ما يعتقد، فان الظروف والتيارات والتفاعلات التي واكبت حياة وحضارة عصر ما، لا يمكن ان تكون هي هي نفس التيارات التي تماشي وتواكب مختلف الحضارات الاخرى، والا لما استطاع الانسان ان يصل الى ما وصل اليه من اكتشافات واختراعات.. اننا حين نحاول دراسة الماضي للمعرفة والاعتبار والوقوف على التاريخ الحضاري لامة ما، ولفترة ما من حياة ما، انما نحاول ان نستكنه الاسباب والظروف التي كونت تلك الحضارة وكيفتها، ونعرف الاتجاهات الاصيلة التي عملت على صبغها بهذه الصبغة دون تلك، اما ان نحاول عن طريق الاجترار ان نكيف وجودنا طبق ما توجيه رسوبات الآخرين من الوان واذواق فهذا شيء لا يمكن ان يخطر ببال انسان يملك ذرة عقل مميز سليم.. ان الاصالة كل الاصالة في ان نضيف — او نحاول ان نضيف — صورا ناطقة واحاسيس حية نابضة الى الصور والاحاسيس الحية الخالدة التي استطاع اولئك الخالدون ان يرسموها في ظلال والوان زاهية قاومت الفناء واستطاعت ان تنفذ الينا جياشة بالحياة، فياضة بالمعطيات قوية بالمعاني، زاخرة بالعواطف والخلجات الانسانية.. والادب منذ كان — والشعر اصدق صورة للاداب الانسانية — عمل ابدا وسيظل يعمل على ربط الصور النابضة في مختلف حيوات الخالدين النابهين وافكارهم حتى تظل النبراس الكشاف الذي يستضيء به السائرون في مجاهل المستقبل المجهول. ولكن لا ليجتروه ويقفوا عنه، وانما ليضيفوا اليه اضواء كاشفة اخرى ويرسموا من كل ذلك صورة زاخرة بمختلف احاسيسهم الواقعية وغير الواقعية، لا ان يظلوا في دوامة من الافكار المجترة، فلو ان الانسان عمل على اساس فكرة الاجترار مهما فسرت، لما وجد مختلف النظريات التقدمية في جميع الميادين، ولما استطاع الرعيل البشري ان يقطع كل هذه المراحل الطويلة التي قطعها عبر مسيره نحو النور والانطلاق، ولكن الشيء المحقق والذي لا يحتاج الى دليل هو ان الاقطاب والخالدين كانوا دوما خلاقين ومبدعين، وكانوا ابدا يبتكرون الافكار التي تعتبر الخلية وتعد النواة.. ثم ياتي بعد هؤلاء آخرون قد لا يهمهم من الحياة الا صورها الظاهرة الباهتة لانهم يعلمون ظاهر الحياة الدنيا وهم عن الحقائق الازلية غافلون، هؤلاء هم اصحاب الافكار الضحلة الفطيرة الذين لا ينفكون يجترون ويدورون في دوامة من افكار من سبقوهم.. ونحن عندما نحاول ان ندرس الشعر او الادب برمته كظاهرة انسانية حضارية لا يمكن ان ننظر اليه الا من جهة الخلق والابداع، فما كان للمتنبي ودانتي وبيرون وفيكتور هيجو ويلز وشوبان وفولتير وابن الرومي ان يخلدوا لو ان آثارهم اقتصرت على لوك افكار من سبقوهم، لا ابدا، انما دخلوا التاريخ حين حاولوا فاستطاعوا — وقد يكون الى حد ما — ان يفتحوا نوافذ جديدة على آفاق جديدة من الحياة الانسانية واستطاعوا ان يفتحوا اعين الناس في تركيز على هذه المناحي التي ظلت مجهولة لدى الرواد قبلهم، ولكل هذا ارجو ان يفكر الاستاذ الحلوي في ان الشعر الاصيل انما ينبثق عن الروح المومنة بالخلق والابتكار في معناهما الواسع الدقيق، ولا يمكن ان يفسر قولنا هذا بانه تنكر للماضي المجيد او غير المجيد وانما هو امتداد له، وتاكيد للوحدة والوشائج الانسانية الراغبة رغبة جامحة في ان تعمل على تحقيق الافضل والارغد من العيش والاسعد من الحياة، ونعتبر — وهذا ما يجب — ان الشعر سوف يظل الى الابد القاسم المشترك الاعظم في جميع الاتجاهات الحية في خلايا الانسان الخالد ولا يمكن هذا الا اذا تصورناه وجسمناه حسب معطيات الحياة المتجددة في كل وقت وحين؛ ومن حق الحلوي اذا كانت افكاره لا تتسع لهذه الاجواء البعيدة الاغوار في مجاهل الكيان الانساني ان يكتفي بالاجترار وان يصوره له خياله السجين بانه التعبير الاصيل والطريق الوحيد للمحافظة على ما

يسميه تاريخ الامجاد وامجاد التاريخ ، اما نحن فما زلنا نؤكد وفي حرارة بان الشعر ، بل الحياة لايمكن ان تكون ذات قيمة حقيقية اذا لم تتجلد في كل شيء ، لا في صورالناس وازيائهم وافكارهم السطحية الضحلة وانما في نظرتهم العميقة الى تفهم اسرار الكون وخبايا الوجود ، وما كان في مقدور غير الشعر ان يسبر هذه الاغوار وان يصل الى تحديد مفاهيمها واعطاء مضامينها الصور المتحركة المعبرة ..

ويثير الاستاذ الحلوي في حقيقته الاولى مشكلة دقيقة هي مشكلة حكم القراء على الانتاج ، والحلوي في هذه القضية يكاد يؤكد بانه لولا القراء لما استطاع ان يكتب شيئا او ينتج انتاجا ، والى هنا قد تكون للحلوي اعذاره الخاصة ، ولكن الشيء الذي لايمكن ان يعتذر له عنه هو ادعاؤه بان اي شاعر ما كان ليكتب الا ليقراه الاخرون .. وهنا ايضا اقول للاخ الحلوي بانى اعتقد ان اي شاعر من هذا النوع لابد انه يشكو مركب نقص فظيع حين يربط انتاجه بالاخرين ، لان معنى هذا ان مثل هذا الشاعر لا يجد من نفسه الدوافع الغريزية والميول الانسانية التي تجعله يخلق ويبتكر لمجرد الايمان برسالة الخلق والابتكار ما دام المفروض فيه ان يحتل مركز القيادة والزعامة ، اذ الشعر ليس بضاعة مجردة او نظرية اقتصادية بمعناها الجاف تبور اذا لم تجد مستهلكا ، وان على المعمل في مثل هذا الحال ان يوقف عجلة الانتاج ، لا ابدا ان الشاعر لا يمكنه ان يوقف انتاجه لان هذا الانتاج هو في الحقيقة المسيطر عليه ، ولانه الطريق الوحيد للتعبير عن الوجود الذاتي للشاعر ، والشاعر لا يمكنه ان يتاثر ابدا – في حدود ذاتيته وكيانه – بالاحكام التي يصدرها عليه الاخرون مهما تكن تلك الاحكام صائبة او جائرة ، لان الرسالة التي يتحمل اعباءها عن رضا وطواعية واختيار لا يمكن ان تترك له مجالا للاختيار في الانتاج وعدمه ، فنحن يا اخي الحلوي لا ننتج ليقرا لنا الناس ، والا امسكنا عن الانتاج ، لا يااخي ولو حدث هذا مرة واحدة في التاريخ لما امكن لكثير من النظريات التي اثبت محك التجربة صلاحيتها ان ترى النور ، ان التوالد الطبيعي لكل الكائنات لا يمكن ان يخضع لغير الرغبة الاصيلة في الانتاج ، هذه الرغبة التي نعد هذ التوالد نفسه التعبير الصادق المجسم – بالبناء للفاعل – للوجود ، فلو ان ابيقور مثلا وهو اول فيلسوف – فيما اعرف – عالج موضوعا حسابيا في نظرة الناس للحياة : اللذة والالم – (راجع كتاب الدكتور اسماعيل مظهر في الموضوع) عمل على ضوء نظرية الكتابة للقراءة من الاخرين لما امكن لنظرياته ان تصلنا الان في المذهب الوجودي الذي يحاول بعض الناس لهذا السبب او ذاك ان ينسبوا ابتكاره لسارتر الاديب الفرنسي المشهور ، ان الاديب – كما قلت سابقا – عند ما يحس في اعماقه برغبة الانتاج والتوالد ، انما يكون مدفوعا بقوة لا منظورة الى تسجيل ما يحسه ويجول بخاطره ثم لا عليه اقرا الناس ما انتج ام اهملوه ما دام هو قد ادى رسالته ، ولو ان هذا المبدا الذي يدعو اليه الحلوي ساد الحياة لكان على الحياة نفسها ان تغير الكثير منها لان الناس لا يحسون له وجودا ولا يجدون له طعما ولا لذة .. انها الرغبة الاجبارية في الانتاج تلك التي تدفع الشاعر الاصيل الى تسجيل افكاره وخواطره ، لهذا فليس من حق احد ان يرغم ءاخر على قراءة الاخرين او قراءة انتاجهم ، على ان القراءة الموضوعية المركزة تستحسن اكثر فاكثر عند ما يتعلق الامر بالنقد والتوجيه ، ومن الغريب ان الحلوي بعد ان حمل على حملة شعواء لاني قلت اني لا اقرا انتاجه وعد هذا نقصا في اي انسان ينتسب للادب ارتكب نفس (الخطا) وفي شكل افظع حين ناقض نفسه في هذه القضية ، فهو في حقيقته الثالثة يقول بالنص : (.. ولكني مع الاسف لم اجد ما يغريني بالوقوف فتناولت منها ما اثار اهتمامي وتركت الباقي لحكم التاريخ اشفاقا على نفسي وضنا بوقتي ..) بينما يعود في ءاخر فقرات مقاله ليقول بالنص ايضا (.. وانا اؤكد له انني مغرم بقراءة جميع المحاولات حتى ولو كانت فاشلة لانى اعرف كيف استفيد منها . الخ) فاينا المتهافت والمتناقض مع نفسه .. ؟

واما حديث الاخ الحلوي عن مدارس الشعر فهو يحاول فيه – والاجترار ايضا هو الذي اوقعه في هذا المازق – ان يبدو قاضيا مطلقا ، حاكما بامره يضع الناس حيث يشاء دون اي اعتبار لغير احكامه ، والا فمن اين جاءه هذا الادعاء الفارغ بانه هو يمثل المدرسة القديمة بخصائصها وسماتها ، وان الاخ الطنجي – واعتذر عن اقحامه ضمن هذه المناقشات – يمثل المدرسة الحديثة ، ان المدارس الادبية تعنى اولا وبالذات الطرق الواضحة لمعالجة الافكار الادبية الصادرة عن النفس الانسانية تجسيما لميولها ورغباتها وتصويرا لنزعاتها التي لا يمكن ان تنحصر – في نظر المومنين بشمولية الادب – في قديم وحديث الا عند ما لا توضع

للاشياء الموازين .. اما عند ما يراد استقصاء الاسباب والدوافع الحقيقية لانتاج هذا اوذاك، فان المدارس تتعدد، والمناهج تختلف ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فاذا كان الحلوي قد رضي لنفسه ان يتحصن وراء اسوار المدرسة القديمة ، فاني انا من جهتي اتحاشى ان احكم لنفسي بهذا او ذاك او بما لم يستحي الحلوي ان يجعله قسما ثالثا ويثبته في مقاله الثاني فان مثل هذه الاحكام كان يجب ان تترك للتاريخ وللنقاد ، ومن السماجة ان يحكم الانسان لنفسه بالجودة والاصالة او ان يدعي ان مجرد كلمات عابرة صادرة من اشخاص مهما تكن منزلتهم ، كافية لان تحمل الانسان العاقل على التباهي باصالته ، فان كتب التاريخ الادبي القديمة مليئة بكثير من امثال هؤلاء الذين يجدون من معاصريهم التأييد والتصفيق ولكنهم عندما اريد ادراجهم ضمن الخالدين اختفوا باختفاء المصفقين والهاتفين .. افيرضى الحلوي ان يكون مثل هؤلاء .. اما انا فيعلم الله اني لا اهتم بما يقول الناس بقدر ما اهتم برغبتي الاكيدة في أن احاول الاستجابة لجيشان نفسي ورغبتها الصادقة في ان تعمل شيئا من اجل الخلود الادبي ، وكان بودي – وكنت قلت هذا في تعليقي الاول – لو ان الحلوي انتقد القصيدتين مقطعا مقطعا ، وبيتا بيتا ، ليرى الى اي مدى يختلف اتجاهانا تعبيرا وشكلا وفنا ومضمونا ..

واعود الى موضوع الحقيقة الرابعة لاذكر الحلوي بانه وقف من هذه القضية موقف السفسطائيين فهو قد وضع مقدمة مغلوطة حين اعتقد بان الانسان يجب ان يكون شيئا واحدا لا ينفك عن ماضيه الا بمقدار ما يبقيه متعلقا بحاضره وكان من الطبيعي ان تؤدي هذه المقدمة الفاسدة الى نتيجة واحدة هي عدم التمييز بين منطقتي العقل والعواطف ، ولو ان الحلوي حمل نفسه بعض العناء فدرس الجوانب الشكلية والموضوعية لحياة بعض الخالدين حتى اولئك الذين يعرفهم هو لوجد لهم اتجاهات قد تبدو في نظر قاصري النظر متناقضة وما هي في واقع الامر سوى التعبير المجسم للانطلاقات الحافزة التي تجعلهم يمتازون عن بقية الناس ، وللتمثيل ، لا شك ان الحلوي قد قرأ كثيرا من الاشعار الغزلية لفقهاء كانوا يتصدرون مراكز الافتاء والقضاء ، وكانت مراكزهم تلك لا تسمح لهم – في عرف اجوائهم الخاصة – بأن يخوضوا ميادين التشبيب والغزل ، ولكنها النفس الانسانية الكثيرة الجوانب والمتعددة الميول ، وان من يحاول ان يقصر النفس على اتجاه خاص دون غيره وبرغمها على سلوك طريق معين انما يجهل حقيقة بسيطة بساطة ان النار تحرق ، وهي ان قيمة الانسان انما تتجسم في مدى قدرته على ان يخلق من نفسه ولنفسه وللاخرين اجواء قد تبدو غريبة وفي صور متناقضة في بعض الاحايين ، ولعل فن المقامات في الادب العربي كان محاولة لبواعث الايمان بفكرة تعدد ميول الانسان وتباين سلوكه تبعا للتيارات المتباينة والحوافز المختلفة ولعل الشعراء العرب كانوا مثالا حيا لهذه الظاهرة الشيء الذي حمل النقاد الاقدمين على اعتبارها من اجمل وابرز مميزات الشعراء ، ولعله ايضا من هنا جاءت لمؤلفي التاريخ الادبي نظرية اختيار الانتاج الادبي للشعراء والادباء على اساس ما انشأوه وقالوه في جميع ميادين الشعر من غزل ومديح وهجاء وتصوف الخ..

.. ويثير الاستاذ الحلوي من جديد موضوع الحديث عن القومية والاعراف والدساتير ويقف حيث وقف من النقطة السابقة التناقض .. ولا بأس هنا ايضا من ان اذكر الاستاذ بحقيقة اخرى بسيطة ما انفك يرددها ما دام استاذا للاداب ، وهي ان الاسلوب العلمي غير الاسلوب الخطابي وهما غير الاسلوب الادبي ولو انه تذكر هذه الحقيقة لما غاب عنه كيف يعلل حديث التواتي وهو يحلل القومية واسسها ، وحديث التواتي وهو يدعو الى التحلل من القوميات الضيقة ويدعو الى الايمان بالوحدة الاسلامية كعقيدة يجب ان تحل محل القوميات جميعها .. وانا لا اعتقد – كما يعتقد – اننا كسبنا ربحا ما – غير التهريج والديماغوجية – من الجامعة العربية على وضعها الحالي ، كما اعتقد ان لا عرقلة ابدا في طريق الدعوة الى وحدة اسلامية على عكس الدعوات الى القوميات ، لان هذه تقوم على اسس مادية صرفة ومنافع مؤقتة ومحدودة باعتبار الزمان والمكان بينما الدعوة الى الوحدة الاسلامية تراعي كل ذلك وتزيد عليه حين تريد ان يكون الارتباط بين مختلف الاعضاء على اساس من رضا الله ومبايعته ، وفرق بين ما يباركه الله وما يباركه الناس ، وبهذه المناسبة احب ان اسجل هنا حادثة قصها علي الامام الشنجيطي وزير التعليم في المملكة الاردنية حدثت له مع شخصية اقتصادية بارزة في احدى الجمهوريات العربية ، قال الامام الشنجيطي لمحدثه – والموضوع في ايهما افضل واجدى

على العرب ، الدعوة الى العروبة ام الى الاسلام — انا لست اقتصاديا ومع ذلك فاني ارجوك ان تجيبني عن هذا السؤال الاقتصادي وهو ايهما اكثر فائدة ربح اثنين او عشرة ؟ قال الامام الشنجيطي لقد أجابني الاقتصادي الخبير العشرة بالطبع ، قال الامام الشنجيطي قلت فلم اذن تعملون على اغتصاب اربعمائة مليون مسلم من اجل ارضاء نصف مليون من المسيحيين ...؟ واقول بدوري ما هي الفوائد الحقيقية التي جنيناها حتى الآن وراء الدعوة الى القومية العربية التي لم تتجاوز حتى عند دعاتها منطقة الدعاية والآراء والشعور ..؟ انه من الجميل حقا ان نكون شعراء ولكن عندما نعالج الحقائق الصارخة والتي لا تتلاقى والاخيلة العاطفية يجب ان نكون مع انفسنا واقعيين الى اقصى الحدود الممكنة لهذه الواقعية . لكل ذلك فما زلت اعتقد على — خلاف الاستاذ الحلوي — ان وحدة اسلامية هي وحدها الكفيلة باخراج — لا العالم الاسلامي وحده — من هذه الحيرة والبلبلة والخوف والاضطراب التي يشعر بها الجميع وانما العالم اجمع، واقولها صراحة ان الدعوة الى الوحدة الاسلامية لا يمكن ان تقابلها الدعوة الى اليهودية أو المسيحية ، وان تكن الدعوة الى اليهودية والمسيحية قائمة فعلا وواقعيا فهل قامت اسرائيل فى قلب العالم العربي المسلم والمؤيدة من طرف الهياة الاممية الا على اساس من الدعوة اليهودية ؟ وهل يعيش الفاتيكان الدولة فى قلب دولة الا على اساس من الدعوة المسيحية ؟ فاذادعونانحن الى وحدةاسلامية رمينابالجمودوالرجعية ووصفنا بالدعوة الى القبلية والنعرة الجاهلية ، اللهم ان كانت الدعوة الى الوحدة الاسلامية دعوة جاهلية فاحيني عليها وامتني عليها .. ثم ان الاسلام حين ردد الآية الكريمة التي اوردها الاستاذ الحلوي (يا ايها الناس انا خلقناكم .. الآية) انما اوردها فى مقام التذكير بان هذه الوحدة لا يمكن ان تتم وعلى اسس صحيحة متينة الا فى ظلال الايمان بالاه واحد ، وبان الاسلام وحدة شاملة كاملة تستطيع فى مفاهيمها الانسانية ، ومضامينها الالاهية ان تتغلب على جميع العقبات التي ما انفكت تعترض سبيل الانسانية المتعثرة نحو النور والحياة ، ومحاولات الانسان الوصول الى حياة الكمال والعزةالحقيقية لم تتجسم الامرة واحدة عند ما استطاع محمد (ص) ان يقنع الناس بضرورة الايمان بوحدة الاهداف والاغراض المنبثقة عن الايمان بوحدانية الله التي هي خلاصة العقيدة الاسلامية، واذا كان العالم الغربي حتى الآن لم يستطع رغم جميعما احدثه من نظريات اقتصادية وغيرها وبما سنه من قوانين ووضعه من شرائع وكونه من منظمات ان يجعل الانسان يطمئن الى مصيره وينجيه من الارتباك والخوف من الحياة ومن اخيه الانسان ، فانما ذلك لان اي دعوة لا تقوم على اساس الدعوة الى الله ولا تستند الى وحدة روحية تكون فيها المادة احدى الاسس لا انها الاس وكل شيء لايمكن ان تستمر او تنجح او تبقى ، لهذا يا اخي الحلوي فاني اومن بان الطريق الوحيد لصلاح الانسان وتحقيق مبادىء التعايش السلمي انما تتحقق عند ما يسود الارض الدين الاسلامي ، وسيرى الجاحدون لهذه الحقيقة كيف انهم بعيدون عن تحقيق اهدافهم متى ظلوا بعداء فى افكارهم وءارائهم عن الاسلام بمعناه الانساني الكامل الشامل ، وفى اسسه التي وضعت من اجل اسعاد المجموع البشري على ضوء الواقع الذي يحياه ومع مراعاة ظروفه وملابساته . واما عن الجانب الشكلي الذي اورده الحلوي كخاتمة لحقائقه الخمسة فيؤلمني ان يكون الاخ الحلوي ارتكب خطأ فاحشا قد يكون عن غير قصد حين قال بالنص (.. ان الالتفات الى الجوانب النفسية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية فى اي عمل ادبي مرحلة ثانوية — كذا — يمر اليها الناقد عن طريق الشكلية وجمال الاداء ..) ذلك ان هذا قلب فاضح للحقيقة التي يجب ان تهدف اليها الاداب والشعر فى مقدمتها — فان كل من يفكر ويومن بان الادب انما ينبع من صميم الحياة بجميع مظاهرها ومتناقضاتها لا يمكن ان يعتبر اولية الاداء والشكل ، وثانوية المفاهيم والمضامين ، فان من ابسط الامور الملموسة ان الاداء والشكل انما كانا — وجودا — من اجل المضمون والمفهوم ، اللهم الا اذا اصبحت الحقائق كلها معكوسة فى نظر استاذنا الحلوي واصبح لا يفكر — حين يكتب — فى غير البهرجة اللفظية والاداء الموسيقي ان صح التعبير ولو على حساب الغاية والاهداف .. واريد ان يفكر الاستاذ الحلوي معي فيما كانت ستؤول اليه الاداب الانسانية الخالدة العالية التي انجبتها قرائح شوامخ الاقطاب العالميين لو لم يراع فيها الاحسن الاداء وصياغة الشكل ؟ ان هذا الذي يدعو اليه الحلوي يدعو الى مزيد من الدرس والتعليق قد نفرد له فصلا خاصا فيما بعد وعليه ان يتحمل تبعات ما قد ينشا عن هذه الافكار .. انها افكار تسوقنا الى استذكار عهود الخوارزمي ، وبديع الزمان ، والصاحب بن عباد ، والحريري ، يوم كانت

فيه الاداب لا تعدو ان تكون مقالا تجتر فيه الالفاظ في مجانسات لفظية بحتة على حساب المعنى ودون مراعاة له او اعتبار ، افلا تصدقوني الآن ان قلت ان الاستاذ الحلوي قد اختلطت في ذهنه الحقائق الثابتة والمفاهيم العصرية حين يحاول ان يتهرب منها على حساب الماضي ، وحين يفضل طريقة بديع الزمان والصاحب بن عباد في معالجة القضايا الادبية التي هي القضايا الانسانية في محتواها البعيد والقريب . ان الشكل والاداء يجب اعتبارهما ــ في نظر العقلاء ثانويين ويجب اعتبار المضامين الغاية والمقصد اولا وبالذات فالناس ــ او انا على الاقل ــ لا اعجب بالمتنبي ، او ابي تمام ، او البحتري ، وابي نواس ، وابن زيدون واضرابهم لمتانة اللفظ وسلاسة التعبير كما يقول النقاد الاقدمون . لا ياخي وانما اعجب بالافكار والمعاني والاخيلة التي استطاعوا ان يبتكروها ويخترعوها ثم يصوغوها في قوالب من الشعر الحي الجياش النابض بالمعطيات ..

بقيت كلمة قبل الاخيرة يجب ان اهمس بها في اذن الاخ الحلوي حول البحث اللغوي الذي اثاره عن لفظة الجهم والجاهم فاقول : انه وان لم تذكر المعاجم اللغوية هذا التركيب بالذات فارى ان القياس لايمنع صوغها على البناء للفاعل . ففي اللسان مادة جهم ما نصه (.. جهمه يجهمه (بالبناء للفاعل) استقبله بوجه كريه قال عمرو بن الفضفاض الجهني :

ولا تجهمينا ام عمرو فانما
بنا داء ظبي لم تخنه عوامله

وقد يستأنس لاجازة القياس في هذه المادة بما جاء في اللسان في آخر نفس المادة (.. وبنو جاهمة بطن منهم) اي جهيمة ..

وبعد فارجو من الاخ الحلوي ان قدر له ان يعود للتعليق مرة ثالثة ان يحدد الاهداف من هذا النقاش وما اذا كانت ــ فقط ــ القصيدة (انتا اخوان) هي دائما محوره .. وليطمئن الى اني سوف لا اتأخر عن مناقشته الحساب على اي طريق اراد ، على طريق مصارعة الثيران او منازلة القيان ...

الحديث ذو شجون





ان هذه الحركة الانتقادية التي دارت بين السيدين : الحلوي والتواتي ، على منبر مجلة (دعوة الحق) ، يمكن ان نجعل منها نقطة انطلاق نحو ايجاد حركة نقدية نحب لها ان تلتحم ، فتدفع الذين تعودوا ان يسكتوا ، الى ان يخوضوا هذا الغمار ، معتمدين على حاستهم النقدية فقط ، من غير تعرض الى اشياء اخرى خارجة عن نطاق العمل الذي يحلل ويدرس .

وعليه ، فلا حاجة بنا للتأكيد على خطورة النقد بالنسبة لكل حياة ادبية ، ولا الى التنبيه على الانواع والمدارس النقدية ، فذلك لا يتسع له المجال . والحق ان ما قراته لهذين السيدين ، لم يكن من باب النقد الخالص ، ومع أن المجال كان متسعا لكليهما ، اذ كان فى امكانهما أن يستخرجا عن طريق المقارنة بين القصيدتين كثيرا من اللفتات التي تساعد النقد فى اظهار مواطن الرداءة والجودة فيهما ، الا انهما عزفا عن ذلك ، وخاضا فى امور بعيدة بعيدة .

التقاء القصيدتين : انه من الممكن ان نقسم وجوه التقاء القصيدتين الى مضمون والى شكل :

فمن ناحية المضمون ، نجد ان المعنى الرئيسي فيهما ، يهدف الى شجب الحرب ، والدعاية الى السلم ، وذلك عن طريق ارشاد الانسان الى انسانيته ، من حيث يراها اخوة كائنة فى كل المخلوقات بقطع النظر عن اللون والجنس والدين . اما من ناحية الشكل :

1 — فهما يلتقيان فى الوزن والقافية ، اذ انهما على وزن الخفيف ذي التفاعيل الستة ، تارة نجد بعض ابياتهما مدورة ، واخرى نجدها ذات شطر وعجز ، كما أن القافية النونية التي تحدث رنينا اخاذا هي احدى وجوه التشابه بين القصيدتين ، فهي فى كلتيهما نون مكسورة قبلها الف لينة .

2 — ونجد بعض التعابير موحدة فيهما . يقول التواتي :

يا اخي انني وانت على رغم هوانا وانفنا اخوان .

ويقول الحلوي :

يا اخي نحن فى الحياة على رغم هوانا وانفنا اخوان .

ويكرر هذا البيت فى راس كل فقرة فى قصيدته، فكانه الفكرة الاولى فيها .

3 — ونجد ان ادوات الاستفهام عندهما تتشابه ، مما يؤكد هذا التشابه ويبلوره ، فهما قد استفهما بعلى ما ، ولم ، والهمزة ، وان كان التواتي ، قد سكن ميم لم لضرورة الايقاع .

افتراق القصيدتين :

ووجوه الافتراق ايضا تتناول المضمون والشكل: فمن ناحية المضمون ، نجد ان التواتي فلسف موضوعه وعمقه ، اذ جعل الدعامة الاولى للاخاء ، هي الوحدة الايمانية التي تطالب بها الديانات على اختلافها ، وذلك الحب الذي تدعو اليه العقائد المختلفة :

يا اخي انني وانت على رغم الديانات في الدنى اخوان
والديانات مذ توالت على الارض دعتنا للحب والايمان
وكلانا انا وانت خليقان بان نحيا في صفا وامان
هذه الارض امنا والسماوات ظلال ترعانا في اطمئنان

واستطاع بواسطة ابتهال صوفي ان يضع يديه على المشكل الذي خلقه الانسان وتعذب به :

وتسابيح شع منها هدى الحق مضيئا في احلك الاحزان
فلماذا اخي تنكر قلبانا لما وطدت يد الرحمان

وكان هذا الابتهال ذا صبغة وعظية لم تذهب بنقاء الصورة وعمقها . واذا كان لم يستقل مشاهد الطبيعة ليغدقها على موضعه ، فيزيده خصوبة ، فانه عوض عن ذلك باعطاء تشابيه غزلية ، كان يقصد منها الى جعل الصورة في مكانها المقدس بصفة نهائية :

ابدا يا اخي (فانا ابتسامات العذارى لمغريات الاماني).

وبعد هذا ، التفت الى تلك المؤثرات التي تجعل اخوة الانسان حتمية لاتقبل الجدل ، تلك المؤثرات هي وحدة المصير ـ القدر المحتوم ـ انصهار المبادىء واللون والجنس في بوتقة الانسان لدرجة انها تصبح عقيمة المعنى اذ يتلاشى كل شيء فيها ما عدا انسانية الانسان ـ القوميات ـ الدساتير ـ القوانين ـ ثم الحضارة الانسانية في شمولها وابعادها :

وحدت بيننا المصائر والاقدار مذ كنا في ضمير الزمان
المبادىء واللون الفاظ بلا روح او بدون معاني
والقوميات والدساتير والاعراف من وضع عابدي الاوثان

ويقول :

الحضارات ملكنا نحن الاثنين خلقناها بالدما والجنان
والحروب المدمرات عدو لكلينا البيض والسودان

ثم بدا يتساءل في حسرة عن هذا التطاحن الموجود بين الدول ، وعن العلم ، هل وجد من اجل سعادة الانسان او شقائه ؟ وكان يقصد من وراء هذا التساؤل الى اظهار فداحة الخطأ الذي يتركه الانسان وهو يحصد عمره بيده ، اذ يصنع بها الاسلحة الفتاكة ، ويعيش بفكره يحلم بالسلام والامن :

يا اخي لم تسابق الدول الكبرى لانتاج افتك النيران؟
الملأ الارض الجميلة رعبا باسم حفظ السلام والاوطان ؟
التدمير ما بنينا من الاحلام او شدنا من صروح الاماني؟

ولكي يكتسب هذا العمق عنده شكلا فلسفيا فقد تبنى فكرة الحلول ، ولهذا بدا يطالب كل انسان بالعمل معه على تحقيق رغبة الحياة في الانسان ، وهنا عاد الى ايمانه يستلهمه ، فالله لا يترك الذين يسعون في الخير يتعثرون في الديجور :

(يا اخي ما اراك الا وجودا وامتدادا لروحي الهيمان)
فلنسر في طريقنا نحقق في صبر رجاء الحياة في الانسان
فالاله الرحيم يكلأ بالتوفيق مسعى الانسان في الاحسان

ويمكن ان نلخص ان هذا العمق اتى من تعدد الصور في القصيدة ، مما جعلها حركية ، ولولا تلك التساؤلات المتكررة في بعض الاحيان ، لكانت القصيدة خالية من كل ركود .

اما بالنسبة الى الحلوي ، فاننا نرى ان الشاعرية تكاد تقفز من كل بيت من ابيات قصيدته ، ولذلك نجده يتناول موضوع الحرب والاخاء من وجهة نظر اخرى : فهو ربما ارجع المسؤولية في فوضى العالم الى خطيئة ءادم الاولى ، هذه الخطيئة التي وحدتنا كبشر ، لاننا انحدرنا من سلالة مرتكبها :

يا اخي نحن في الحياة على رغم هوانا وانفنا اخوان
فعلى ما تعيش في هذه الدنيا ذئابا في صورة الانسان ؟
نحن ابناء والد جرع اللذة سما من ناضرات الجنان
اغضب الله لاهيا فتهاوى من خلود الى وجود فان

وهو يستفظع ظمأ الانسان الى الدماء ، في الوقت الذي يسعى فيه للحب ، مما يجعله يشجب حيوانية الانسان وغابيته :

ولماذا نهيج شوقا الى الحرب نعاني من نارها ما نعاني ؟
ظامئات نفوسنا للدم المسفوح تختال منه احمر قاني
نتساقى كأس الصداقة والحب بأيد مضرجات البنان
نتفانى على الحطام وما يبقى حطام ولا يزول التفاني

وهو يتحسر على الحق الذي عيي لسانه ، فيتوجه الى الانسان يعاتبه فى قسوة ، ويخاطبه بكلمات مرة :

يا غليظ الطباع يا سافل الاطماع يا عار هذه الاكوان !

ويتساءل فى مرارة عما يهدف اليه هذا الانسان من حياته ؟

اكذا اختار ان يعيش بنو الدنيا وقودا يضيء ركب الزمان

ويقول :

الهذا اخي اتيت الى الدنيا ، اهذي رسالة الانسان ؟

وبعد هذا يعود فى شاعرية شفافة ليعكس موضوعه على صفحة لازوردية من صفحات الطبيعة ، تلك هي صفحة البحر بموجه وزورقه وربانه . والحق انه استطاع بمهارة ان يخضع جميع العناصر التي تكمل هذه الصورة البحرية ، لتجربته : فالزورق هو الحياة ، والامواج هذه المشاكل التي تعترض سبيل الانسان ، والربان هو العقل الذي يقوده نحو النور ، اما المجذاف فهو الحكمة والصبر اللذان يفضيان به اذا تمسك بهما الى الشاطىء الامين :

نحن فى زورق تقاذفه الموج عديم الشراع والربان

ويقول :

ضاع منا المجذاف وامتلأ الزورق فى ماء ولج فى الخفقان
فتعاون معي لنجذف بالايدي فترسو على جناح الامان!

وهناك تساؤلات شاعرية بعيدة كل البعد عن ان تكون عميقة ، لانها مجرد خواطر فقط :

لم نحيا على اختلاف ونسعى فى افتراق كاننا ضدان ؟
لم نذكي اجيج نار فنصلاها كانا من عابدي النيران ؟

ومن ناحية الشكل ، فاننا نجد فى قصيدة التواتي بعض السقطات النحوية والعروضية ، ولكنها رغم ذلك قابلة للاحتمال ، اذ انه يمكن ان تكون المطبعة قد اخطأت فى رسمها ، وهو امر معتاد فى بلدنا . وعلى هذا الاساس ، نستطيع ان نقسم السقطات العروضية التي لاحظناها الى قسمين :

1) تلك الزحافات والعلل التي غزت هذا الايقاع فجعلت من المتعذر على الذي لا يملك اذنا موسيقية ان يشعر باحتفاظ الوزن بالدبدبات التي يتكون منها ايقاعه ، وهذا وان كان جائزا ، الا ان الاكثار منه يغتصب من القصيدة رواءها النغمي . والظاهرة الكثيرة من هذا الزحاف عند التواتي ، هي انه يلجيء قارئه الى ان لايفقط على حرف علة ، ذلك الضغط الزحافي الذي يسمى بالمد :

وكلانا انا وانت خليقان بان نحيـ (ا) فى صفا وامان

فكلمة نحيا لا يستقيم معها الوزن الا اذا لم نضغط على الياء فى ءاخرها .

2) وهناك بعض الابيات لا تستقيم بوضعها فى القصيدة ، مع وزن الخفيف ، ويمكن ان تكون المطبعة قد اخلت بواجبها ازاء هذه الابيات ، فصارت ذات عاهة ايقاعية :

المبادىء واللون والجنس الفاظ بلا روح او بدون معاني
والقوميات والدساتير والاعراف من وضع عابدي الاوثان

وهذا البيت :

والحروب المدمرات عدو لكلينا (ا)لبيض والسودان

لا يستقيم الا بجعل همزة الوصل فى : (البيض) همزة قطع . اما السقطات النحوية ، فهي :

1) النيران بدل النيرين ، فهي معطوفة على مجرور :

وتهادى جمالها الرائق الاخاذ كل الوجود و (النيران).

واذا كان الشاعر يعني بها جمع نار ، فالمعنى لا يستقيم ابدا . وهناك بعض ملاحظات لغوية ، وهي : استعمال ننمي مكان ننتمي ، فننمى مضارع من انماه كبره او جعله ينتمي اليه ، واعتقد ان الوزن هو الذي منع هذا ، ثم جمع (وسام) على وسامات ، لارضاء الايقاع .

اما الحلوي ، فلا نكاد نعثر له على سقطات من هذا النوع ، وان كنا نلاحظ بعض الفاظ او تعابير ذات استعمالات كلاسيكية ، : مضرجات البنان ، عي ، لج فى ، نذكي اجيج نار فنصلاها ، ولكنها لا تجعلنا نذهب الى القول ان الحلوي بحتري معاصر . والحق ان

قصائده الطوال التي تقال في المناسبات ، يظهر عليها التاثير البحتري بجلاء ، ولا ينقصها لكي تعبر عنه ، الا الجو الذي كانت تنشد فيه .

والتواتي يصدر عن عاطفة دينية ، اذ انه لا ينسى الله والديانات ومفعولهما في توحيد البشر ، ولا يفتا يردد ذلك في اول القصيدة :

يا اخي انني وانت على رغم الديانات في الدنا اخوان
والديانات مذ توالت على الارض دعتنا للحب والايمان

وفي وسطها :

فلماذا اخي تنكر قلبانا لما وطدت يد الرحمان !

وفي ءاخرها :

فالاله الرحيم يكلا بالتوفيق مسعى الانسان في الاحسان

بينما نجد ان الحلوي لم يستغل هذه العاطفة ، لاظهار مدى طغيان الانسان وجوره ، واعتقد انه عوض عن ذلك باستغلاله مشاهد الطبيعة ، لتشخيص صوره:

نحن في زورق تقاذفه الموج عديم الشراع والربان
في ظلام كالموج ادعو فما تسمع صوتي واشتهي ان تراني
ضاع منا المجذاف وامتلأ الزورق في ماء ولج في الخفقان

ويقول :

لم نبكي وفي الطبيعة سحر وجمال وصفوة واغاني ؟

فذاك اقرب الى الشاعرية ، اما استغلال المشاعر الدينية في القصيدة ، فانه يكتسب طابعا وعظيا ، وان كان يمكن ان تحول هذه الطاقات الوعظية الى خميلة شعرية اذا احسن استغلالها .

مقارنات : ان القصد وراء المقارنة هذه، ان نقيس مدى نسبة الاصالة في كلتا القصيدتين ، لنستطيع من خلال ذلك ان نقدر الجهد الذهني والعاطفي اللذين صرفهما الشاعران من اجل انشاء قصيدتيهما ، ومن ثم يمكن الحكم بدقة على مظاهر الاخلاص للشاعرية ، تلك المظاهر التي تنعكس على القصيدتين معا ؛ لان الاخلاص للشاعرية ، يقتل في نفس الشاعر تلك النزعة الى التقليد ، وذلك الشوق الى ان يلوك الصور التي سبق اليها .

فالحلوي ينتهج اسلوبا مهجريا حين يجسد الطبيعة ويحييها ، ليجعلها ناطقة بصوره وتجاربه :

نحن في زورق تقاذفه الموج عديم الشراع والربان .

وهو في هذا شبيه بالشاعر ايليا ابي ماضي في قصيدته (ابتسم) :

فاضحك فان الشهب تضحك والدجى متلاطم ولذا نحب الانجما

وكذلك جبران في (النبي) : (ان ما تشعرون به من الالم ، **هو انكسار القشرة التي تغلف ادراككم ، وكما ان القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب ان تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الارض الى نور الشمس)** وهذا اسلوب نراه شائعا في الانجيل . والحلوي حين تحدث عن غرور الانسان وسفالته :

يا غليظ الطباع يا سافل الاطماع يا عار هذه الاكوان !

ذكرنا ذلك بقصيدة (الطين) ، لابي ماضي ايضا :

نسي الطين ساعة انه طين حقير فصال تيها وعربد
وكسى الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد

ولكن ، يلاحظ ان شاعرنا واجه الحقيقة بكثير من الصراحة المباشرة ، اذ خاطب الانسان بغليظ الطباع ، وسافل الاطماع ، بينما حاول ابو ماضي ان يشير الى حقارة الانسان عن طريق لا مباشر، فالانسان حين يتاح له ان ينتعش ، ينسى انه حقير كالتراب اصله. ونستطيع ان نجد فوق هذا تاثيرا لطه المهندس في قصيدة الحلوي ، وذلك ان هذا الشاعر ، يكثر من ترديد الصور البحرية في شعره ، نتيجة لاسفاره المتعددة ، فهو يرسم لنا في قصيدته (الجندول) تلك الروعة التي استشعرها وهو بمدينة (البندقية) ، ويكفي ان نعرف انه فضل ان يسمي احدى دواوينه : (الملاح التائه) ، لتحقيق هذه الغاية. والحق ان الحلوي كان موفقا في تقديم تجربته من خلال الصورة البحرية التيجعل ادواتها الخام هي : (البحر ـ الموج ـ الزورق

الربان ـ المجذاف ـ الشراع) . اما التواتي ، فحين تحدث عن الاخاء وفلسفة الالوان ، كان ذلك كفيلا بان يذكرنا بكثير من القصائد التي قيلت في هذا الموضوع . ولكن الذي نلاحظه ، انه لم يستطع ان يستغل صورة فلسفة الالوان استغلالا دقيقا ، بعد ان كانت قصيدته تمتاز بهذه الصورة على قصيدة الحلوي ، اننا نجد هذه الصورة براقة مشعة عند ابي ماضي في قصيدته (الطين) :

يا اخي لا تمل بوجهك عني
ما انا فحمة ولا انت فرقد

فابو ماضي يلقي اليك صورته ببساطة ليرز خطورة هذا الوضع الانساني الشاذ ، وكثيرا ما تكون البساطة سببا في تهويل وتعميق الشعور بالمآسي بينما اكتفى التواتي بلفتة عابرة اشار فيها للتفرقة اللونية ، ولو استغلها ذلك الاستغلال الجدير بها ، لكانت قصيدته ذات عمق عميق . والواقع ان هذا الاسلوب البسيط ، جدير به ان ينفع في مثل هذه المواضيع ، اذ انها مكرورة ، كتب فيها الانسان منذ اجياله الادبية الاولى ، ولهذا ، فاذا لم يغير منهـا الاسلوب المعهود في كتابتها ، ربما تكون ذات رنة وعظية ، تفقدها روعة الخلق الكامنة فيها . ولعل الذين يخرجون الاشرطة التي تعالج مشاكل الحرب ، في فرنسا قد ادركوا ذلك ، فعادوا يلقون قصصهم في كثير من العفوية والبساطة في الاخراج. ونفس الشيء، يمكن ان يقال في الاشرطة التي تعالج قضية الميز العنصري ان في فرنسا او في امريكا ، والحق ان الشاعرين معا ، لم يستطيعا ان يحملانا في قصيدتيهما، الى حيث نشعر بخطورة الموضوع الذي يزاولانه . هناك صخب عاطفي ما في ذلك شك ، ولكنه مشوش متداخل ، يجعلك تشك في مدى اخلاص كل من الشاعرين في اضفاء روحه على صوره الشعرية التي يلقيها موزونة حينما تاخذ صيغتها النهائية . وكنت احب ان يكونا من الشاعرية بحيث يبرزان حقيقة الحرب امام قارئهما بشكل يجعله يستفظعها ، ويومن بخطرها على الانسان والحضارات ، ويمكن ان يكون

هذا الفشل في انجاح هذه الصورة ، راجعا الى ان كلا منهما لم يعش ظروفا حربية قاسية ، تخصب في نفسه القلقة كل معاني العطف على الانسان . وعليه فهما زاولا صورتهما من خلال ما سمعاه عن الحرب وليس من راى كمن سمع . ولكي نتاكد من امكان نجاح الشعراء في وصفهم للحرب بعد ان عاشوها ، نسرد هذه الاسماء لشعراء فرنسيين بلغوا القمة في هذا المضمار ، وهم : بول ايليار (1865 ـ 1952) ولويس اراكون وجاك بريفير (*) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن ان ندين شاعرينا بتقصير فظيع ، ـ وان كانا غير مسؤولين عنه ـ ادى الى فشل صورهما الشعرية عن الحرب ، لانهما لم يستطيعا محاكاتها ، واستقطاب الفظائع التي تصيب الانسان منها ، الا من خلال تلك الرنة الوعظية التي ذهبت بكل روعة محتملة .

ونجد في كلتا القصيدتين بعض افكار اجنبية ، ترفرف في ملل من خلال ابياتهما ، لانها ليست في مكانها . فالتواتي يشير الى حلولية مسيحية ، ويجعلها احدى الوشائج التي تربط بين الانسان والانسان :

يا اخي ما اراك الا وجودا وامتدادا لروحي الهيمان

وهي نفس الحلولية التي يتبناها المهاجرون المسيحيون ، كميخائيل نعيمة ، وابي ماضي ، يقول هذا الاخير :

خلت اني في القفر اصبحت وحدي
فاذا الناس كلهم في ثيابي

والحق ان هذا يمكن ان يرجع الى نفس الشاعر الصوفية ، التي افصحت عن نفسها في قصيدته غير ما مرة . اما الحلوي ، فقد اشار الى اسطورة ءادم ، وهي وان كانت مشاعة بين الديانات التوحيدية كلها ، الا انني اعتقد انه زاولها من طريق اشارة لا مباشرة الى الخطيئة الاولى ، فكأنه يقول : « نحن ابناء اب خاطىء ، فلماذا نستمر في الخطأ ؟» وهذا تاثير مسيحي :

(*) فيما يخص الشاعرين الاولين ، انظر عنهما : سلسلة : شعراء اليوم : مختارات من شعرهما . اما الاخير ، فانظر قصيدته (بربارا) في ديوانه : كلمات .

نحن ابناء والد جرع اللذة سما من ناضرات الجنان
اغضب الله لاهيا فتهاوى من خلود الى وجود فان

ملاحظات : واخيرا ، نرى من اللازم توجيه بعض الملاحظات :

1 ــ عدم الاخلاص فى الصورة الشعرية المزاولة عند كل من الشاعرين ، وخصوصا منها ما كان متعلقا بالحــرب .

2 ــ الرنة الوعظية التي تتجلى فى تلك الاوامــر : (استعمال فعل الامر) التي يلقيانها معا ، وهي تقل فى قصيدة الحلوي ، وتعنف فى قصيدة التواتي .

3 ــ تكرار ذلك التساؤل بشكل مفاجيء ، يجعلك تفقد لذة الاستمتاع بالفكرة التي سبقته ، بالاضافــة الى ان هناك تساؤلات ساذجــة :

يقول الحلوي :

ولماذا نهيج شوقا الى الحرب نعاني من نارها ما نعاني؟

ويقول ايضا :

اكذا اختاران يعيش بنوالارض وقودا يضيء ركب الزمان؟

ويقول التواتــي :

فلماذا اخي تنكر قلبانا لما وطدت يد الرحمان ؟

ويقول ايضا :

فلم الحرب يا اخي واماتينا سواء وانتا اخوان ؟

وترجع سذاجة هذه التساؤلات الى انها لا تهدف الى خلق جو مبهم باستفهامها يعيش فيه القــاريء ويجعله فى شوق لمعرفة الصور الشعريــة التي ستاتي بعــده .

4 ــ ونلاحظ ان بعض المعاني لا تنتظم فى سلسلة متراصة تبدا من الاسفل وتنتهي الى الاعلى ، يقــول الحلــوي :

يتفانون كي يعيشوا فيفنون ضحايا مطامع واماني
يا غليظ الطباع يا سافل الاطماع يا عار هذه الاكوان !

فهو يتحدث عن اطماع الانسان الجشعة ، ثــم ينتقل فجاة الى شتمه، لاظهار غروره وكبريائه . وهذه الظاهرة تقل عند الحلوي عنها عند التواتي ، فهو يقول:

ولماذا ندوس فى فورة الجهل تماثيل حبنا الفينان ؟
ولماذا اخي نحطم بالحقد دنانا كاننا يائسان ؟

ابدا يا اخي فانا ابتسامات العذارى لمغريات الاماني

هذه التساؤلات ، لا تنسجم مع القرار الهادىء الذي حمله الينا هذا البيت الثالث . واقرا الفقرة الثانية من هذه القصيدة ، لتجد ان العلاقــة بيـــن معانيها ياخذها بعض وهــن .

5 ــ ورغم هذا كله، فنحن نجد ابياتا فى القصيدتين معا ، من الروعة بحيث تستطيع ان تغنينــا عن كــل ما عداها ، وذلك لانها كانت فى المستوى الفكري اللائق بموضوع مثل هذا .

يقول التواتــي :

ووسامات ساحة الحرب ليست غير خزي الانسان للانسان

ويقــول :

الملأ الارض الجميلة رعبا باسم حفظ السلام والاوطان؟

ويقول الحلوي :

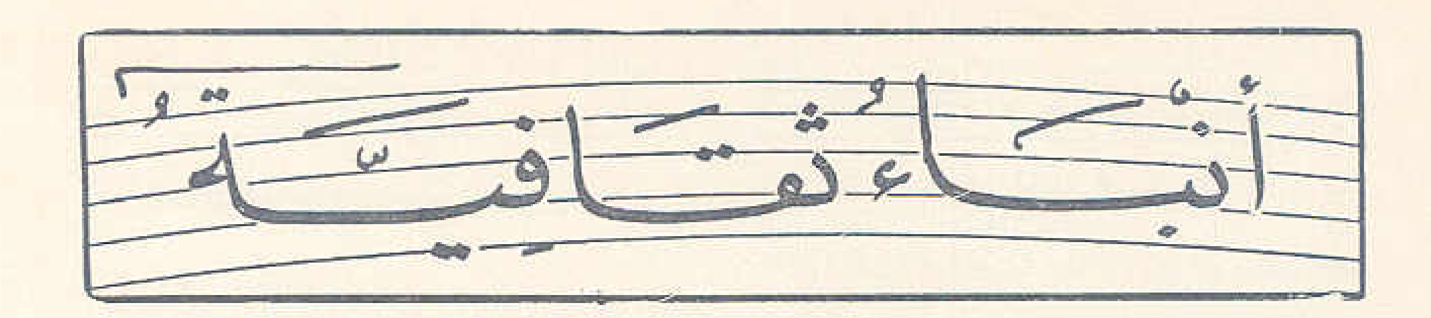
نتفاني على الحطام وما يبقى حطام ولا يزول التفاني

ويقول ايضــا :

فعلى م نعيش فى هذه الدنيا ذئابا فى صورة الانسان ؟

ويقول ايضــا :

يا غليظ الطباع يا سافل الاطماع يا عار هذه الاكوان !
الهذا اخي اتيت الى الدنيا ، اهذي رسالة الانسان ؟



❊ تستعد جمعية « نبراس الفكر » في نطاق نشاطها الثقافي ، لعقد مهرجان كبير يستمر خمسة أيام في عطلة الربيع المقبلة ، وذلك بمدينة تطوان وتحت عنوان :

« المغرب والتيارات العقائدية في العالم »

وقد وضعت الجمعية التصميم العام لهذا المهرجان . وكان قد سبق لهذه الجمعية ان نظمت بتطوان في ابريل 1960 مهرجانا فلسفيا ، واصدرت في الايام الاخيرة كتابا بعنوان : « فلاسفة الاسلام في الغرب العربي » يضم محتويات هذا المهرجان

وتجري الاستعدادات ليشارك في هذا المهرجان أكبر عدد ممكن من قادة الفكر واصحاب الاختصاص في الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية .

❊ كان الاكتشاف الهام في مهرجان ابن طفيل الذي أقيم في لبنان بمناسبة مرور 850 عاما على ميلاده هو ما أعلنه مندوب المغرب الاستاذ محمد التازي في الدراسة التي القاها في هذا المهرجان نيابة عن كاتبها الاستاذ محمد العابد الفاسي ، محافظ جامعة القرويين الذي عثر مؤخرا في مكتبة الجامعة المذكورة على مخطوطة :

« رجز ابن طفيل في الطب العام » .

ويذكر الاستاذ الفاسي في دراسته هذه أن هذا الكتاب يقع تحت رقم 30\30158 في مجلد ضخم مكتوب بخط اندلسي صحيح متقن غفل من تاريخ النسخ واسم الناسخ . ويبلغ عدد اوراقه 150 ورقة ، ومقياسه 20 × 22 في ورق متلاشي ، وبعض أوراقه مبللة . وفي القليل منها تلاشي شديد ، ومع ذلك فهي تقرأ بوضوح ، وورقته الاولى والاخيرة بخط جيد . ويظهر اول ورقة منه وثيقة الوقف ، والكتاب تام تنقصه ورقة واحدة بين الباب الثامنة والخمسين، والواحدة والستين من احدى مقالاته . والكتاب نظم رجزي من نوع الاراجيز العلمية المعروفة في أوساط الاندلس . ويبلغ عدد أبياته 7765 بيتا رتبه صاحبه على سبع مقالات .

❊ وجه معهد الدراسات العربية العالمية بالقاهرة الدعوة الى الاستاذ الكبير سيدي عبد الله كنون ليحاضر في قسم الدراسات الادبية عن « الحياة الادبية في المغرب » .

❊ نظمت المندوبية السامية للشبيبة والرياضة المغربية معرضا للرسوم التي يرجع تاريخها الى ما قبل سنة 1860 وضعتها تحت تصرفها منظمة اليونيسكو العالمية . وذلك بقاعة باب الرواح بالرباط .

❊ « الاستقلالية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة » كتاب صدر أخيرا بالمغرب . لمؤلفه الاستاذ عبد الحميد عواد .

❊ شارك عميد الجامعة المغربية الاستاذ محمد الفاسي في مؤتمر تكوين الاطارات العالمية لوزارة التهذيب الوطني للوطن العربي .

❊ نظم المركز الثقافي العربي خلال الشهر الماضي عدة ندوات ومحاضرات ومناقشات ثقافية وفكرية في مدينتي الرباط وفاس .

❊ صدرت عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية جريدة بعنوان « الحسنى » ، وهي أسبوعية تعنى بالشؤون الاسلامية والثقافية عامة ، يديرها الاستاذ السيد محمد المدور .

❊ تأسست في وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية لجنة للتأليف والترجمة والنشر .

* عقـد في الرباط مؤخـرا مؤتمـر الاذاعـات الافريقية تحت رئاسة السيد محمد المختار ، المديـر العام للاذاعة الوطنية ، الـذي انتخب رئيسـا لهـذا المؤتمر ، شاركت فيه عدة وفود من الوطن الافريقي .

* شارك المغرب في المؤتمر الاسلامي الذي عقـد مؤخرا بالقدس ، بوفد من علماء المغرب يتركب مـن السادة : عبد الرحمن الدكالي ، الحاج حسـن بوعياد ، ابراهيم الكتانـي ، الحسن بنانـي ، محمد المـدور الذيـن انتدبتهم وزارة الدولـة المكلفـة بالشـؤون الاسلامية ، للمشاركة في هذا المؤتمـر .

* اسندت رئاسة قسم الادب واللغات الشرقية بكلية الآداب المغربية الى الاستاذ محمد بن تاويت عن طريـق الانتخـاب .

* اصدرت الاذاعـة الوطنية المغربيـة جريـدة اسبوعية بعنوان « صوت المغرب » مديرها الاستـاذ محمد المختار مدير الاذاعة الوطنية .

* شارك المغرب في مؤتمـر اليونيسكـو لتنمية الانبـاء بافريقيـا ، الـذي عقدته منظمة اليونيسكـو بباريس ، وعقد في اواخر الشهر الماضي . وكان يتركب الوفـد المغربـي مـن الكاتب العام لوزارة الانبـاء ، والسيد محمد المختار المدير العام للاذاعة المغربيـة ، والسيد عمـر غنـام مدير المركـز السينماتوغرافي والسيد المهدي بنونة المديـر العام لوكالة المغـرب العربـي للانبـاء .

* « الاسلام الحق » كتاب لمؤلفه محمد الكامل التونسي سيصـدر قريبـا .

* جمع الشاعر التونسـي الهادي لقمان قصائده التي كتبها في أيام شبابـه ليصدرها في ديـوان .

* سيصدر قريبا الشاعر التونسـي فـوز الدين محمود ديوانا بعنوان « نبضات قلبي » .

* نشر في تونس اخيرا كتاب (الخيال الشعري عند العرب) وهو من تراث الشاعر التونسي المرحوم : « أبي القاسم الشابي » يتناول فيه موضوع الخيـال في الشعـر العربي والقصص والاساطيـر العربيـة .

الطبعة الاولى من الكتاب ظهرت سنة 1933 ، اي قبل وفاة الشاعر بسنة واحدة . يعتبر هذا الكتاب أعنف هجوم على الشعر القديم رغم انه مكتـوب باسلـوب عربي جميل مشرق .

* اصدرت مجلة « الفكـر » التونسية عـددا خاصا بمؤتمر الادب العربي الذي عقد في شهر أكتوبر في رومـا .

* سيصـدر في القاهرة ديـوان « العـروبـة » للشـاعر السـوداني عبد الله عبد الرحمن الامين .

* عقـد مؤتمر الكتاب الافريقيين الاسيويين في القاهـرة في شهـر فبرايـر .

* من المنتظر ان يعقد مؤتمر الفنون الشعبيـة بالقاهرة في منتصف شهر مارس المقبـل .

* جـرت اتصـالات بيـن بعـض الشركـات السينمائية في هوليود ، وبعض الادباء الذين ترجموا مـسرحيات وقصصا لتوفيق الحكيم ، بقصد الاتفـاق على اخراج احدى روايات الكاتب العربي الكبير على شاشـة السينمـا . وتحويلها الى فيلم تنتجه هذه الشركـة السينمائيـة .

* السيدة « انطوانيت بطيخـة » ترجمت الـى الفرنسية بعض قصص وروايات لتوفيـق الحكيـم ، ونجيب محفوظ ، ويحيى حقي ، ومحمود البدوي ، وعبد الحليم عبد الله ، وأمين يوسـف غراب .

* « ترجمات عالمية « للشعر العربي » بـدات لجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب في ترجمة الجزء الثاني من اعمال الشعراء العرب الى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ويضم الجزء الثاني قصائد لابراهيم ناجي واحمد رامي وعلي محمود طه وصالح جـودت وعلي الجنـدي .

* تصدر في اول الشهر القادم المسرحية الاولى للدكتور لويس عوض واسم المسرحيـة « الرهيب » تتحدث عن ثورة قـام بها المصريون ضد الاستعمـار الروماني واستمرت هذه الثورة ثمانية أشهر .

* الدكتور نجيب الكيلاني فرغ من كتابة ثلاثة كتب : الربيع العاصف (رواية) ، ودموع الامير (مجموعة قصص) وراس الشيطان (رواية) . تظهر الكتب الثلاثة خلال هذا العام .

* « اللص والكلاب » رواية من تاليف نجيب محفوظ تصدر قريبا .

* الدكتور لويس عوض يكتب دراسة عن « تحرير المراة » فى الفكر العربي الحديث يدرس فيها آراء قاسم أمين ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وغيرهم من دعاة تحرير المراة .

* قررت جامعة عين الشمس شراء مكتبة المؤرخ الاستاذ محمد شفيق غربال ، وقد الفت لجنة برئاسة الدكتور احمد عزت عبد الكريم عميد كلية الآداب ، لفحص محتويات المكتبة وتقدير ثمنها وهذه هي المكتبة الثالثة التي تشتريها الجامعة بحيث اشترت من قبل مكتبة الدكتور احمد عيسى ، ومكتبة المعهد البريطاني .

* اصدرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية التي تشرف على نشر مؤلفات (احمد تيمور) كتابا جديدا له هو « الموسوعة التيمورية » التي تتحدث عن آراء العرب فى عدد كبير من الموضوعات (خلق الانسان وصفاته ... الخ) كما اصدرت اللجنة كتابين هما (خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب) و (علي بن أبي طالب : شعره وحكمته) .

* تقوم لجنة المسرح فى مجلس الفنون بوضع المصطلحات الخاصة بفنون المسرح ، والسينما ، والموسيقى ، والاذاعة والتلفيزيون ...

ومن بين المصطلحات التي اقرتها : « الاذاعة المرئية » بدل التلفيزيون ، « والمطولة الموسيقية » بدل السيمفوني ، « والمحترف » بدل الاتيلييه ، « والماشط » بدل الماكير ، « والمستحدث » بدل الموضة .

ومما يذكر ان هذه المصطلحات نفسها عرضت على المجمع اللغوي .

* يترجم الدكتور محمد مندور دائرة المعارف المسرحية الفرنسية الى العربية .

* اسند الى الدكتور طه حسين الاشراف على معهد الدراسات العربية العالية خلفا للمرحوم محمد شفيق غربال .

* قررت لجنة التوجيه والتبادل الثقافي بمجلس الآداب والفنون انشاء جائزة سنوية باسم « جائزة غربال » .

* ترجم المستشرق الاسباني بيدرو مرتينث 15 قصة مصرية الى اللغة الاسبانية للكتاب المصريين: محمود تيمور ، محمود طاهر ، يحيى حقي ، نجيب محفوظ ، يوسف ادريس ، يوسف الشاروني ، عبد الرحمن الشرقاوي ، مصطفى محمود ، عبد الحليم عبد الله .

* منح الدكتور عبد الجبار جرمود جائزة المؤلفين العرب ، وقدرها الفا ليرة ، عن كتابه « يزيد بن مزيد الشيباني » ... وهي الجائزة التي قدمها مجلس بيروت البلدي لجمعية اصدقاء الكتاب، لتمنحها لافضل كتاب نشر فى لبنان باللغة العربية فى عام 1961 .

* منح فى الايام الاخيرة الاديب اللبناني الكبير ميخائيل جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية للآداب .

* صدر في بيروت كتاب بعنوان « قضايا جديدة فى الادب الحديث » للدكتور محمد مندور فى منشورات دار الآداب .

* انهت مجلة « الاديب » اللبنانية فى دجنبر الماضي عامها الحادي والعشرين . ولا شك ان هذه المجلة خدمت الادب العربي خدمة كبيرة واسعة ، وانشات جيلا من الكتاب وعرفت بهم فى البلاد العربية

* اقيم فى بيروت مهرجان شعري لذكرى شاعر الارز شبلي الملاط .

* صدرت فى بيروت مجلة نسائية باسم « الحسناء » .

* اقيم في وست هول بالجامعة الامركية في بيروت مهرجان ادباء العربية في البرازيل لتكريم الاخطل الصغير الشاعر بشارة الخوري .

* توفي في بيروت يوسف غصطين الذي شغل منصب مدير جريدة « الاهرام » .

* قريبا يصدر في بيروت « نشيد الرخام والشمس » يضم مقطوعات نثرية فنية لنقولا قربان.

* تصدر دار الشرق في بيروت سلسلة دراسات عن الشعراء المعاصرين ستظهر فيها حلقات تتناول الاحياء والاموات .

* « الفراغ الابيض » مجموعة شعرية لالياس الجبيلي ، نهج فيه نهج جديدا اذ اعتمد على طريقة المقاييس الشعرية الغربية في النظم .

* « في هيكل اللبنانية » كتاب جديد يصدر قريبا في بيروت لجورج غريب .

* يصدر قريبا عن المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثاني من كتاب « النوادر » لابي مشحل .

* ظهر في دمشق كتاب « الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري » للكاتب احمد كمال زكي .

* « مثالب الوزيرين » رسالة ابي حيان التوحيدي المشهورة والتي كان الباحثون في ادب ابي حيان يجزمون بضياعها صدرت اخيرا عن دار الفكر في دمشق بتحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

* ستصدر وزارة الثقافة والارشاد بدمشق مجلة خاصة يتولى الاشراف عليها فؤاد الشايب .

* قام الاستاذ لؤي عجان بترجمة مسرحية أوسكار وايلد « اهمية الحريق » الى اللغة العربية .

* سيقدم الشاعر العراقي عبد الله الجبوري ديوانا للطبع بعنوان « أشباح وظلال » .

* صدر عن اتحاد الادباء العراقيين ببغداد ثلاث مجموعات شعرية هي « الطوفان » لالفريد سمعان ، و « قصائد كانت ممنوعة » لعبد الرزاق عبد الواحد و « شاهد القرية » لحامد الغربي .

* ستصدر جمعية اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ببغداد مجلة بعنوان « الكتاب » .

* صدرت رواية « اليد والارض والماء » لمؤلفها ذو النون مترجمة الى اللغة الروسية .

* انتهى الاستاذ عبد القدوس الانصاري من تاليف كتاب أسماه « تصحيح اخطاء المستشرقين في دراسة الآثار العربية القديمة » وقد حلل في هذا الكتاب الاخطاء على ضوء اللغة العربية الفصحى وما توصل اليه في دراسة الآثار والنقوش العربية ؛ كما صحح ايضا في الكتاب الاخطاء التي وقع فيها الكتاب العرب ، الذين ترجموا تلك الآثار من اللغات الاجنبية

* « قصائد معفرة » ديوان شعري جديد سيقدمه الى القراء الشاعر السعودي عباس مهدي خزام .

* اصدر الشاعر السعودي محمد سعيد المسلم ديوانا جديدا بعنوان « شفق الاحلام » مشتملا على 26 قصيدة .

* يعد الآن الشاعر سعيد الهندي ديوانا للطبع بعنوان « من وحي العقيق » .

* اللغتان الانجليزية والفرنسية ستكونان ضمن المناهج الدراسية في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

* عثر في ايران ، على نسخة خطية من القرآن الكريم ، يرجع تاريخها الى سنة 198 هـ . وتعد اقدم نسخة من القرآن مكتوبة على الورق ، عثر عليها حتى الآن .

* عقد في يناير في (دكا) بباكستان الشرقية المؤتمر الدولي للمؤرخين بحثت فيه الموضوعات المتصلة بتاريخ الاسلام والثقافة الاسلامية

* عقد في نيودلهي مؤخرا مؤتمر عالمي يدور موضوعه حول التاريخ الاسيوي .

* كتاب « ام النبي » للدكتورة بنت الشاطيء تم طبعه في جاكارتا مترجما الى اللغة الاندونيسية بقلم الدكتور ضياء شهاب الاستاذ بجامعة جاكارتا . ويشتغل الدكتور ضياء الآن بترجمة كتابي « نساء النبي وبنات النبي » استكمالا لهذه التراجم الادبية للشخصيات النسوية في بيت النبوة .

* يقوم الاستاذ خير الدين محمد من الملايو بترجمة قصص ابراهيم المصري « شروق الاسلام » و « الجارية والامير » و « حجاب العراق » و « حلم سميرة » الى لغة الملايو .

* قام المستشرق الهولندي « دكتور شومان » بترجمة كتاب تربية « سلامة موسى » الى الهولندية وقد ترجمت مكتبة الكونكريس الامريكي هذا الكتاب الى الفرنسية سنة 1952 ايضا ومن الغريب ان المجلس الاعلى للآداب والفنون بالقاهرة يريد ان يترجم هذا الكتاب نفسه الى الانجليزية .

* في متحف مدينة ساتوماري في رومانيا كتاب هام اكتشف اخيرا . هذا الكتاب يضم حوار العالم الايطالي جاليلو الذي عارض فيه نظريات بطليموس في الكون .

* سأل الصحفيون الاديب اليوغسلافي ايفو اندريش الحائز على جائزة نوبل في الادب لهذا العام : عما شعر به عندما سمع بالخبر فقال : (يجب علي ان لا أعترف بأن الاحساس الذي تولد في وجداني في هذه اللحظة اصعب بكثير جدا مما يمكن لي ان اصفه . لقد فكرت في الحال بأن هذا اليوم هو يوم عظيم بالنسبة لبلدي وبالنسبة لي اما المجد ؟ فلا استطيع أن اقول بأنني قد حلمت به . وانني أرجو من كل قلبي ان اتمكن من التخلص من العذاب الذي سالاقيه عن طريق الاجتماعات وحفلات الاستقبال والاحاديث التي ساكون مطالبا بها .

كتب ايفو اندريش دراسات عن كبار الكتاب اليوغوسلافيين ، وعن جويا ، وجوركي ، وبترارك .

ويعتبر اندريش من المتخصصين في اللغات فهو يعرف الفرنسية والالمانية والايطالية والانجليزية والاسبانية .

والشخصيات التي يتحدث عنها في رواياته وقصصه هي شخصيات من تركيا والصرب .. وقناصل ووزراء ورجال دين وفلاحون ولصوص .

* من اشهر الكتب التي صدرت عن حياة امبراطورة روسيا كاترين العظمى ، كتاب اسكندر دوماس الذي حلل فيه شخصية الامبراطورة التي عاشت حياتها في حلم ليلة عربية وكتاب فالسفسكي الذي يعتبر وثيقة تاريخية حيث جمع كتابه كل الوثائق عن عصر كاترين وحللها واصدر كتابه الذي أصبح أهم مرجع تاريخي عن حياة القيصرة وعصرها .

وآخر كتاب صدر عن حياة كاترين الفه كاتب انجليزي اسمه (يان جراي) وجعل مراجعه محصورة في الكتابين السابقين عن الامبراطورة ، وقد تعلم المؤلف اللغة الروسية ليقرا كتاب فالسفسكي .

* ظهر اخيرا كتاب عن تولستوي ، مؤلف الكتاب هو سيرجي تولستوي الابن الاكبر للاديب الروسي .. والكتاب في الاصل مجموعة من الذكريات كتبها الابن عن والده العظيم ، وقد وجدت هذه الذكريات ضمن الاوراق الخاصة للابن بعد وفاته سنة 1947 ولكنها لم تظهر في كتاب الا في الفترة الاخيرة .

* دار الطبع والنشر للاداب الشرقية في موسكو نشرت مجموعة من المختارات الشعرية لعدد من شعراء الاقطار العربية المعاصرين مترجمة الى الروسية باشراف معهد الدراسات الشرقية في اكاديمية العلوم السوفييتية .

* اكتشف النقاد مسرحية قديمة للكاتب الالماني (برتولت بريخت) وقد صدرت المسرحية هذا الشهر في دار نشر (لارشي) . المسرحية اسمها (الخطايا السبع الرئيسية) وقد كتبها بريخت سنة 1932 . تحكي المسرحية قصة اختين احداهما ترقص والاخرى تغني وترغبان في كسب المال لبناء بيت وترتكبان في سبيل ذلك اية خطيئة .

※ الصحف الفرنسية والانجليزية تتحدث عن كاتب جديد فى الادب الفرنسي هو جان كوا الذي فاز اخيرا بجائزة جونكور للادب وهى من اشهر الجوائز الادبية فى العالم .

※ ظهرت فى فرنسا كتب كثيرة تتعلق بالعالم العربي تزيد على الخمسين كتابا يتناول اكثرها مشكلات المغرب بالنسبة لفرنسا .

※ صدر فى باريس مجلد يضم انتاج الشاعر الرومانسي فيكتور هيكو مشتملا على 153 الف و 837 من الابيات الشعرية واحتفل فى ستراسبورج بفرنسا بمرور 100 سنة على ظهور كتابه « البؤساء » الشهير .

※ الف المستشرق الايطالي فرانسيسكو جابريلي استاذ العربية فى جامعة روما كتابا عن النهضة العربية يقرأ الآن فى اميركا باقبال ملحوظ بعد ان ترجمه راندم هاومس الى اللغة الانجليزية وهذا الكتاب يؤرخ للنهضة العربية الحديثة ويصور نضال العرب فى سبيل الاستقلال والحرية ، وقد لاحظ النقاد ان جابريلي شديد التحمس للجمهورية العربية المتحدة والتأثر بالرئيس جمال عبد الناصر فى مقدرته ونزاهته وخطواته التي تسجل التقدم نحو الوحدة العربية .

※ تحتفل ايطاليا بذكرى مرور 25 عاما على وفاة كاتبها المسرحي الكبير بيراندللو .

※ آخر رواية للاديب الايطالي البرتو مورافيا اسمها « السام » . زار مورافيا البرازيل والهند اخيرا ويكتب الآن كتابا عن الهند .

※ عثر بين انقاض مدينة بومبين التاريخية فى ايطاليا على هيكل عبد مكبل بالسلاسل ، وعثر على مقربة منه على تمثال من البرونز يمثل اميرا شابا فى وضع غرامي . ويعتقد علماء الآثار بان تحت خرائب بومبي آثارا نفيسة اخرى من الرخام والبرونز يمكن العثور عليها فى عمليات التنقيب .

※ صدر فى لندن كتاب يتضمن مجموعة من رسائل الشاعر الايرلندي جورج راسل .

※ اكتشفت احدى جامعات لندن نصا عربيا جديدا لالف ليلة وليلة يحتوي على اجزاء غير معروفة ، ستسافر الدكتورة فاطمة موسى الى لندن فى الصيف القادم لتحقيق هذا النص .

※ آخر كتاب اصدره اشهر الادباء الشبان فى انجلترا كولن ولس وهو كتاب يتضمن تحليل ثلاثمائة جريمة .

※ من الكتب التاريخية التي صدرت فى اميركا فى الشهر الماضي كتاب عن « تاريخ الطب » فى اوائل عهد اليونان والهندوس والفرس ، وكتابا : (العلم منذ نابليون) و (نحو علم حديث) وهما يتحدثان عن الثورة الكبرى التي حدثت فى الاسكندرية ايام كانت العاصمة العلمية للعالم .

※ سجل النقاد ان اهم كتاب ظهر فى اميركا فى الشهر الماضي هو الكتاب الذي الفه (سولينبورج) عن تاريخ حياة (وليام راندولف هيرست) الرجل يملك الآن ثلاثا وعشرين دارا صحفية ويصدر خمس عشرة جريدة اسبوعية وتسع مجلات ، بالرغم من انه ولد فى اسرة امية ، ليس فيها – تقريبا – فرد واحد متعلم .

※ عثرت ارملة الكاتب والقاص العالمي هيمنكواي على ثلاثة مؤلفات ضخمة بين اوراقه الخاصة الاول يحكي فيه ذكرياته وحياته فى باريس بعد الحرب العالمية الاولى ، والثاني بعنوان (الصيف الخطير) .. وهو عبارة عن بحث فى مصارعة الثيران . والمؤلف الثالث قصة طويلة كتب عليها هيمنجواي بخط يده (كتاب ضخم عن الارض والبحر والهواء) ولم يختر له هيمنجواي عنوانا بعد .. وانماسيختاره له ناشر مؤلفاته الذي قال انها احسن ما كتب هيمنجواي .. بل تفوق قصة « العجوز والبحر » التي جعلته يفوز بجائزة نوبل .